رواية
عكس الاتجاه
ياسر أحمد
دار العين للنشر

عكس الاتجاه

عكس الاتجاه

(رواية)

ياسر أحمد

الطبعة الأولى / ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥
www.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف : بسمة صلاح
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٥٧٥ /٢٠١١
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 128 - 5

عكس الاتجاه

رواية

ياسر أحمد

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أحمد، ياسر.

عكس الاتجاه: رواية/ ياسر أحمد.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٢٨ ٥

١– القصص العربية

أ– العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٥٥٧٥ / ٢٠١١

الإهداء

إلى أبناء جيلي،

وإلى كل الباحثين عن الحرية

عكس الاتجاه

وقف على السور فبدا طويلاً كظل أسود يقف وحده في فضاءٍ واسع، كانت تلتمع فيه أضواء المدينة، أشعل السيجارة الأخيرة في علبته مستخدمًا يدًا واحدة، بينما الأخرى كانت مربوطة بضمادة ومُعلّقة برقبته. انحنى بجذعه نحوي وهو يمد يده مشيرًا نحو الفراغ الذي بدأ يهبط عليه ضباب الشتاء الثقيل، وبدت أضواء ليل القاهرة بعيدة وقلقة، ثم قال:

- "لو حكيتلك مش هتصدق..".

فضحكت ضحكة عالية متواصلة، وجلست على السور مدليًا قدميَّ في الهواء، ونظرت نحو الميدان بالأسفل وأنا أطوح بيدي في الهواء قائلاً:

- "دا أنا الشخص الوحيد اللِّي ممكن يصدق".

مال ينظر نحو الأسفل، ورفع علبة السجائر الفارغة وقذفها في الهواء فتهاوت نحو الشارع من ارتفاع سبعة طوابق، وظللنا نرقبها حتى توارت في ساحة الميدان الكبير الخالي.

نام على ظهره ممددًا جسده على السور، ناظرًا نحو السماء. مضى يحكي وأنا مصغ، يروي لي قصته الكاملة التي لم يعرفها أحد من قبل. تخرج كلماته هادئة وكأنها تنبع من قرار بعيد. يحكي بضمير الغائب وكأنه يسير بمحاذاة نفسه، يمضي معها ولا يلامسها وكأنَّ الحكاية تحكي نفسها وهو فقط يعيرها صوته.

– "عارف لما تكون إنسان ناجح في الحياة.. حققت طموحات كثيرة مادية ومهنية.. معندكش أي مشاكل كبيرة.. عندك استقرار، وشخص سويّ ومتزن.. ناس كتير بتبصلك باحترام، وتتمنى توصل للّي أنت وصلتله.... إنسان سعيد.. أو مفكر نفسك سعيد بمعنى أصح ومش ناقصك حاجة".

صمت قليلاً ثم تابع الحكي:

– "كل يوم بالليل وأنت سايق على الطريق بعد يوم طويل في الشغل ومروّح بيتك.. في الاتجاه المعاكس بتقابلك أضواء العربيات وتريلات النقل الكبيرة.. أضواء سريعة في الناحية الثانية من الطريق بتضوي في عينك، وتمر من جانبك في لمح البصر.. أضواء مش عارف مين وراها بس بتقابلك.. بتعدي في لحظة.. كل يوم كنت دايمًا بتقاوم إحساس قوي وعارم.. إحساس غريب بيسيطر عليك في الوقت ده وأنت كل يوم على الطريق... إحساس بأنك عاوز تكسر.. تكسر وتعدّي بعربيتك في

عكس الاتجاه.. شعور بيسيطر عليك لدرجة أنك بتجاهد علشان إيدك ماتخونكش وِتكْسر فجأة...

الضلمة بحر كبير بياخدك، وهواء الطريق تيار عنيف فجأة بتحسه بس وصوته بيروح.. هواء وصوت العربية وصوت الطريق.. كله بيسكت فجأة وسرعتك بتزيد.. بتزيد..".

صمت لفترة وكأنه غاب في غياهب ما كان يستعيده، ثم قال:

- "النور بتاع الشاحنة يقرب.. يقرب عليك وفجأة.. صفحة بيضا.. بس!.. صفحة بيضا".

يوميات البداية

إنَّ ما تبحث عنه وتريده بشدة، قريب.. يكاد يكون على مسافة ذراع منك أو أقرب، ولا ينقصك سوى أن تمد يدك وتمسك به، ولكنك لا تسطيع أن تفعل هذا. إن ما تريده يكمن أمامك مباشرة وتحت عينيك طيلة الوقت، ولكنك تظل تطالعه وكأن فيك قوة مركزية ما تجذبك نحو ثقلٍ آخر.

لا تتغير المسافة بينه وبينك مع مرور الوقت، ولكنك ستزداد اقتناعًا بصعوبة الحصول عليه. يزداد الثقل ثقلاً مع الوقت، ويصير التخلص منه كل يوم أصعب من ذي قبل، هكذا هو الوقت يكون دومًا تراكماته.

وضع الثبات يصنع وقته المتشابه، اللحظات تتحول إلى دقائق، والدقائق تتحول إلى ساعات، والساعات تصير أيامًا، والعالم يدور حول نفسه، ولكنه ظل على قوانين جاذبيته وثباته.

وضع الثبات الطويل يقتل الأيام، ويختزل الوقت في ثوابت لا تتغير وحتى إن تحركت تشعر بأنها ارتعاشات طفيفة في جسد خامد وكأنَّ روتينك اليومي وحركتك اليومية مهما توالت بها الأحداث تظل على شعورك الدائم بجمودها.

كل شيء قد يكون صخبًا من حولك، ولكنك ما زلت في وضع الثبات وكأنك تمتص كل ما حولك ليبقى جامدًا داخل الإطار.

تنمو لحيتك كل يوم ولكنك لا تلحظها؛ لأنك كل صباح كنت تحلقها بحركة آلية، ترتدى أحد القمصان فلا تميز اختلافهم فأنت في عجالة من أمرك دومًا. أية رابطة عنق ستفي بالغرض قبل القفز خلف عجلة القيادة؟، شمس الصباح مثلها مثل زحام الطرقات شيء روتيني لا يُنذر بجديد، نفس القهوة المرة تلقي بها في جوفك في دفقات مستمرة، ونفس الجريدة الصباحية تطالع عناوينها دون تركيز، ونفس الوجوه المعتادة تحوم حولك. كل شيء يأخذ دورته، وكل ما تفعله أنت هو أنك هنا لتكمل الصورة.

صندوق... أنت في صندوق، تتحرك بالصندوق أينما ذهبت، الصندوق هو الثقل وهو الإطار، وكل شيء هنا يتتابع مرورًا وكأنك محطة لست إلا. أن تجاهد مركزية الثقل كأنك تضع السنوات في مواجهة اللحظات. هل تغلب جموح اللحظة سنوات المنطق المعتاد المنسق المنساق؟

لا يخاطر الإنسان أحيانًا بفقد الثقل، يظن أنه بدونه سيترنَّح وسيسقط حيث ستطؤه الأقدام، وسيفقد ما كان عليه من قبل.

إن ما تريده على بعد خُطوةٍ ستخطوها، ولكنك تظل طويلاً دون حِراك لتحسب العواقب، والثقل دائمًا يزداد عندما تزداد الحسابات.

أما أنا فقفزت نحوه ذات مساء، وتركت الثقل يهوي في قرار جاذبيته وانطلقت.

كنت على علم بكل تلك الأسئلة التي ستكون في انتظاري عند العودة. لماذا عدتَ؟ ماذا ستفعل؟ هل أنت مجنون؟ لا أحد يفعل ما فعلته؟ الكل يريد السفر وأنت تعود؟!

لا أحتاج أن أقول شيئًا فأنا حقيقة لا أشعر بهم وهم يتحدثون، كلها أحاديث يلوكها الناس لبعض الوقت حتى يعتادوا على وجودك فيصمتون. فليصنع الوقت صمته كما تصنع الأحداث جدلها وضجيجها.

ذات مساء تكاثرت فيه السحب، خرجت من المكتب في الطابق الرابع والعشرين هابطًا نحو الشارع، وفي الساحة الخلفية جلست على الرصيف المرتفع أنفث دخان سيجارتي بعد أن منعوا التدخين في المبنى الفخم. كل ما أذكره أنَّ الثقل كان يزوي مع كل نفثٍ أطلقه في سماء المدينة.

ناطحات السحاب البراقة بزجاج واجهاتها تطالعني والنهار يقترب من نهايته، السحب تجمَّعت اليوم فبدا الجو رماديًا استثنائيًا كأنَّ هناك شيئًا ما يدور في الأفق. الموبايل لا يتوقف رنينه في جيبي، تركته هناك على الرصيف مع الجاكت ورابطة العنق.

أشعر بالثقل يتلاشى وأنا أمضي مبتعدًا. لقد خرجت يومًا لأدخن سيجارة، و لم أعد منذ ذلك الحين.

طرفة عين

شيء واحد يستطيع أن يفعله الإنسان، أن يجد شيئًا يخصه، شيئًا يملكه أو يسكنه حتى وإن كان حلمًا أو فكرة. شيئًا يحاول أن يصنعه ليصنع به نفسه، يحاول إيجاده ليتواجد به.

الطائرة كانت تحلق فوق سماء القاهرة بين سحاب رمادي كثيف في عصر أحد أيام نهاية العام. على مدرج الهبوط كان مطر الشتاء في استقبالي فارتديت معطفي الثقيل وأنا أدلف للحافلة التي ستنقلني لمبنى الركاب، ارتكنت على الزجاج، أطالع قطرات المطر الخفيفة وأتلمَّس برودة الزجاج، ويخالجني شعور بالشوق لتلك القطرات وذلك الطقس الشتويّ.

خارج صالة المطار لم يكن أحد في استقبالي فأنا كعادتي لم أخبر أحدًا بقدومي. لم أكن أعرف سببًا لحبي الرحيل والعودة دون خبر.

يصحون في الصباح فينتبهون لرحيلي أو لقدومي، لم أحب يومًا مراسم الاستقبال أو الوداع، ولم تكن أمي أو إخوتي على أي حال يجيدون هذه المراسم، فكنت أرفع عنهم مشقة المحاولة.

أول مرة رحلت للخارج، رحلت دون علم أحد، كان عهدًا عليَّ أن أقطع الطريق دون مبررات ودون وداع، كانت أيام كنت فيها مُحملاً بالوجع وبأسباب الرحيل، منذ الرحيل الأول وأنا اكتسبت هذه السمة، السفر في صمت.

أن تنسلّ هكذا، وأن تعود للدائرة هكذا في طرفة عين.

لم أكن أعلم إلى أين يحملني التاكسي، العنوان القديم لمنزلنا لم يعد له معنى بعد أن انتقلت أمي منه، لم يعد لنا مكان في بيت العائلة القديم، تركنا الإرث الملعون لعائلة أبي، وابتعدت أمي بإخوتى إلى مسكنٍ آخر بضاحيةٍ خارج المدينة.

القاهرة الجديدة مكان ما يقع خارج المدينة لم أزره من قبل، لم أكن لأعرف بالتحديد العنوان الجديد للمسكن فمضيت أحاول الاتصال بأمي ولكنها كعادتها لا تجيب على الهاتف، (أمي من النادر الوصول إليها).

فكرت كثيرًا في الاتصال بإخوتي، ولكن لم تكن عندي رغبة في أحاديث طويلة، كنت أريد أن أصل إلى السرير، أريد السكنى. لا أريد أن يطالعني أحد أو أطالع أحدًا. هل لكل خطوة يخطوها الإنسان في الحياة أسئلة وإجابات؟!! لماذا أشعر أن للعودة ألف سؤال في انتظاري وألف عين تتطلَّع إليَّ حائرة؟!! لماذا لم تكن للرحيل أسئلة؟!! لماذا الوضع دومًا

معكوس؟!! كأنَّ الرحيل بديهي والعودة شيء غريب. هل الرحيل قدر والعودة سؤال؟!!

تذكرت أنني كنت قد أرسلت من قبل طردًا، وبعض الحوالات المالية للعنوان الجديد، فتحت اللاب توب، وبحثت عن العنوان في مراسلاتي حتى وجدته فلقنته لسائق التاكسي الذي قال على التو:

- "طب الحمد لله إنك عرفت إنت رايح فين، بدل ما احنا كنا عمالين بنلف بقالنا ساعة".

أخرجت رأسي من النافذة، وتركت قطرات المطر تلفح وجهي مع الهواء البارد، والتاكسي المتهالك يزأر بقوة منطلقًا نحو ضاحيةٍ خارج القاهرة، والسائق يدندن لحنًا شجيًا ما.. لا أستبين منه غير "مكتوب علينا".

الحلم

أنام ملء جفوني، ويتمدد جسدي في أفقه كأنه طيف مستكين، أحلم بأنني في مدينة مهيبة الأبنية ممتدة الطرقات وشبه خاوية، أمضي وحدي فلا أجد سوى دكاكين مغلقة ونواصي فارغة من البشر. شرفات لا يطل منها أحد وشوارع طويلة كأنها كانت تنتظرني، أنا الزائر. في الحلم دومًا نبحث عن شيءٍ ما، في المدينة الهادئة كنت أبحث عن بنسيون، نزل صغير أشعر وكأني أعرف شكله وواجهته من الخارج، ولكنني لم أكن أعرف العنوان فظللت أجوب الطرقات، أطالع البنايات حتى وجدته: وكان هناك بأحد طوابق مبنى قديم. صعدت الدرج المظلم، ودلفتَ من الباب الذي لم يكن مُوصدًا إلى داخل البنسيون.

في الحلم دائمًا تسأل نفسك أسئلة كثيرة وكأنك شخص آخر يتابع نفسه وهو يمضي، فيسأل ولا يجيب. ما الذي كنت أبحث عنه في هذا

المكان؟ وكيف كنت هكذا على يقينٍ من وجوده رغم أنه لا يشبه أي نزل ارتدته من قبل؟ وجدت الصالة مظلمة وضوءًا خافتًا يطل من أقصى الطرقة الطويلة الممتدة بين الغرف، يبدو أن أهل المكان نائمون. تنبع من المكان رائحة حميمة دافئة، تشبه رائحة غرفة جدتي في البيت القديم أيام كان مبنيًا بالحجر وأسقفه من خشب. طالعت المكان وكأنني أتلصص أو أتحسّس شيئًا ما أحاول أن أستعيده. لم يمنحني الحلم كثيرًا من الوقت في المكان، وسرعان ما وجدت نفسي في طرقات المدينة مرة ثانية سائرًا على مهل.

لم أرَ مثيلاً لهذه المدينة في حياتي من قبل، ولا مررت بشوارع أو بنايات مثل تلك التي أمر بها. لسببٍ ما كانت شوارعها تبعث في نفسي شعورًا صادقًا أصيلاً، شعورًا بحنينٍ ما ينبع من أعماقي. الأرصفة منخفضة كأنها تمضي بك في انحدارٍ هادئ يعرف وقع أقدامك. الشرفات وكأنها تميل لتقترب من الأشجار. الأغصان تتشابك فوقي والظلال الناعمة تغطيني. البيوت المتراصّة في أفق الشارع مائلة الزوايا للداخل وكأنها تحن إلى بعضها البعض على جانبي الطريق الطويل. كل شيء يكاد يحفني أو يلامسني. كل شيء يهفو نحوي حتى نسمات آخر النهار. بلاط الطرقات يحملني معه وقلائل من البشر تقابلني كلما مضيت، يطالعوني بابتساماتٍ وكأنهم اعتادوا عليَّ منذ زمن، وكأنهم يعرفونني.

مررت فيما مررت بمحل حلواني كبير. تأملت واجهته، وراودتني رغبة في شراء علبة حلوى وأنا عائد لأهلي. ولكني فكرت لبرهة، وقلت لنفسي: كيف وأنا كنت بالفعل قد عدت؟!!

أمام بوابة ذات قضبان حديدية تكمن ما بين بنايتين توقفت دون أن أعرف لماذا، توقفت وطالعت الممر الطويل من بين القضبان وكأنني في انتظار شيءٍ ما سيأتي.

أتى يتمسّح في جدار الممر قلقًا، يمضي خطوتين نحوي، ثم يطرق برأسه لأسفل ويقف صامتًا في مكانه لا يتحرك. أمسكت بقضبان البوابة وأبرزت وجهي له حتى يراني فطالعني لوهلة، ولكن ما لبث أن أشاح برأسه بعيدًا.

حزنت بشدة لتردده وعزوفه عني. هل لم يعد يعرفني؟ ظللت أحدق فيه فعاد، ونظر نحوي بعينه البنية الطيبة المحفورة في ذاكرة طفولتي، وبحاجبيه الأشيبين، وشعر ظهره الأسود الطويل المشوب بالشعر الأبيض. الكلب العجوز يطالعني كالغريب.

ناديته بلهفة وحنين "جاك... جاك".

لم يتحرك وظل على بعاده، يقف في منتصف الممر ولا يقترب. "جاك" العجوز كان كلب أبي وصديقه. صاحبه طيلة خمسة عشر عامًا ممتدة قبل ميلادي وحتى صرت في العاشرة، كان أبي يحدثه طوال الوقت وكأنه الشخص الوحيد الذي يفهم تمامًا كل ما يود أن يقوله. كان هذا العجوز الوفي كاتم أسرار أبي.

أتى "جاك" في الممر ولكنه لم يكن يقترب، أتى يطالعني بعيون تائهة. ناديته ثانية برجاء شديد، ولوَّحت بيدي من بين القضبان بلهفة وكأنني أريد أن أصل إليهً، ولكنه أطرق بعيدًا ثانية.

ظل "جاك" العجوز يرمقني كأن به شيئًا يود أن يقوله، ولكنه لا يقوله.

عندما تنام تذهب إلى عالمٍ آخر لا تسيطر عليه بل هو الذي يقودك، تنفصل عن ذهنك وعينيك وأذنيك، وتغفو في فاصلٍ مظلم يفصل ما بين زمنك الحاضر وزمنك المستتر الكامن. يصنع النوم فاصلاً لابد منه، فاصلاً يُجدِّد الزمن. ستارة تنزلها لتبدأ فصلاً آخر غدًا. لا بد من ذلك التعتيم التام بين المشاهد، لابد من السكون حتى يجد الخيال مُتَّسعه.

بين المشاهد لابد من فاصل، تخفت فيه الصورة لتتحول إلى ماضٍ وتنتظر ما هو قادم، والقادم ماهو إلا سؤال دائم.

أتمشَّى بين الغرف وهم نائمون على ضوءٍ خافت يأتي من النافذة، أمي نائمة وإلى جوراها ابن أختي الرضيع مغمض العينين كملاك رقيق، الكل يقول إنه يشبهني كثيرًا عندما كنت في مثل سنه فأبتسم، لا أستطيع أن أصدق بأنني كنت ذات يوم صورةً نقية هكذا.

أختي في سريرها في الغرفة المجاورة، وزوجها في نوبة عمل الليلة بالمستشفى وهي تغُطُّ في نوم عميق، بعد أن أفرغت طاقتها مع الطفل ومجادلاتها مع أمي وزوجها. لا أعرف متى يتوقفون عن الجدال. الصالة مظلمة، والأريكة باردة، والسجائر نفذت فمددت ساقي على الطاولة، وطالعت الظلام كأنني أريد أن أسكنه.

أتمدد في الظلام ويتمدد فيّ، تبتعد أصوات السيارات الراكدة بجنون في شوارع دبي، تخفت صور ناطحات السحاب خلف ضباب كثيف، يتوارى صخب الطائرات المقلعة التي قفزت على متنها. يهدأ زحام

المطارات والمحطات والمولات. تصمت أصوات محادثات اللغة الإنجليزية في الاجتماعات وكأنى أطالعها من خلف زجاج سميك. تغادرني صور وجوه زملائي في المكتب برابطات عنقهم، وأقداح قهوتهم، وتحديقهم المستمر في بعضهم البعض. أشياء تلو أشياء وصور متسارعة تغادر ذاكرتي وكأنني أقوم بعملية إخلاء واسعة.

أمضي مبتعدًا ويزوي رنين محمول تركته خلفى وأنا راحل في ذاك المساء، المشبع بغيوم عاصفة رملية قانية، ورطوبة خانقة.

الزائـر

عند الغياب تفقد الحيز الذي كنت تشغله، تتحول إلى غريب يظهر لبضعة أيام في السنة كزائر.

لم يتبقَّ لي سرير أمتلكه فأمضي الليل متجولاً بين الأسرَّة التي تبدو جميعها غريبة عني، اختفى مكتبى الداكن، كوبي المفضل خُصِّص لوضع فرش الأسنان، أريكتي التي شهدت غفوات التأمل، والمقرأة صارت قطعة أثاث مهملة تكسوها طبقات الأتربة في شرفة المسكن الجديد. كل أشيائي صارت مختلفة ومهملة، و لم يتبقَّ منها شيء على حاله.

لم ينجُ من معركة التغيير والانتقال سوى أكداس من الكتب، تلك التي جمعتها في سنوات المراهقة، بالإضافة لمكتبة أبي التي تحتوي على كتب الجغرافيا وكلاسيكيات الأدب. جمعتهم أمي في صناديق وخزنتهم تحت الأسرَّة، وظلت دومًا تشتكي من رائحتهم العتيقة المزكمة.

أنت في الغربة ستظل دومًا غريبًا، ولكن لم يكن في الحسبان أنك حين العودة وحتى في وطنك ستتحول أيضًا لغريب، اكتسبت الصفة مرتين من هنا ومن هناك. تمت التسمية واعتادها الآخرون. لا تُحكى لك المصائب عند بلوغها فأنت لست موجودًا على أي حال، وعندما تحضر تُخفى عنك؛ لأنك زائر، على أية حال تشعر بأن الكثير يدور حولك وأنت لا تعرف ماذا يدور، فأنت لم تعد شريكًا في الأحداث. أنت مجرد زائر يمر مرور الكرام.

تتهامس أمي كثيرًا مع أختي، لعلهما يتساءلان إذا ما كنت سوف أرحل قريبًا؟ أو ربما يتساءلان عن أسباب صمتي المحكم؟ أما ابن أختي فقد كان يرحب بي دومًا، فأمضي الصباح أمارس معه جميع أنواع اللعب. أشعر بأنه يمنحني طاقة استرخاء غير طبيعية، كانه يمتص مني كل متاعبي، فيذيبها بكل بساطة.

يجتذبني من الصالة للمطبخ، للحمام، للغرف، للشرفة. لا يمل الحبْو أو اللعب فأسرح خلفه مندمجًا معه في عالمه. كأنه يخلّصني من كل ما أحمله ثقيلاً على كتفي. يحررني بالدخول إلى عالمه الطفولي البدائي النقي، حيث لا تحليلات أو تعقيدات، هو فقط عا لم اللعب فأمضي خلفه بكل ما فيَّ من نزق فيطير الوقت كأنه فراشات، فراشات.

أعتقد أن الطفولة هي مرحلة وسطى ما بين الملائكة والبشر. مرحلة يمكنك أن تتأملها، ولكن من الصعب أن تعود لشاكلتها كلما مضيت سائرًا قدمًا بين الأعوام، عكر الرواسب يظلل لون الماء طبقات فوق

طبقات. بعد الغياب تعود كزائر مُحمَّل بما لم يعاصره أحد غيرك. أنت وحدك الذي عايشت نفسك في البعاد عندما لم تكن هناك أعين تراك. تعود زائرًا يراقب عن كثب ما كان. هم تغيروا وأنت تغيرت. هكذا هي الحياة، لكل حين حال.

القاهرة الصفراء

أنت لست هنا بل هناك، أنت البعيد تطالع ما حولك وكأنه أرض من فراغٍ آخر.

تصفر الرياح مُعربدة بين البلوكات في الليل، وتدق النوافذ الألمونيوم وكأنها تعلن عن نفسها مالكة لهذه المقاطعة من أرض الصحراء.

تترك غطاءً أصفر من الأتربة على السيارات الرابضة وحيدة في الساحات الواسعة ما بين البنايات المطلية بلونٍ أصفر باهت، فيبدو كل شيء في هذه المدينة بلون الصحراء.

القاهرة الجديدة، ملحق جانبي للمدينة العجوز حيث يبحث البعض عن ملاذ أكثر هدوءًا، أو عن مخرج من متاهة العاصمة القاسية.

لم أستطع التعايش مع واقع البلوكات الخرسانية الهادئة، أو مع خرطوم

الجنينة التي أقوم برشها بعد الظهيرة لعل بعض النجيل يبسق هنا أو هناك فيخفف من جفاء الصحراء الجاف. كيف أعيش هذا الهدوء اليومي المتشابه؟ حتى الصبية القليلون الذين يلعبون الكرة في الشوارع لعبهم هادئ دون مشاحنات، ويمضون معظم الوقت في ملاحقة الكرة الهاربة في امتداد الطرقات الواسعة، لا يشبهون أيام طفولتنا عندما كنا نبذل جهودًا جمَّة في ترويض الشارع وأصحاب المحلات حتى نلعب مباراة من نصف دستة، و لم تكن أبدًا لتكتمل دون خسائر، كم روَّضنا الشارع المزدحم فعلمنا الشارع مواجهة الحياة. ماذا يفعل هؤلاء هنا سوى مطاردة الفراغ؟!! هذه ليست القاهرة التي أبحث عنها، هذه ليست المدينة التي عدت أبحث عنها.

أجوب متسكعًا بملابس البيت الأحياء المتجاورة، والمرقّمة بأرقام وكأنها عنابر معسكرات إيواء، أشعر وكأنها تمثل خريطة، خريطة مربعات وأرقام وليست خريطة بشرية لمدينة سكانية. في الجوار تطل المنتجعات الفخمة بأسمائها البارزة على أبوابها، أسماء كلها أجنبية تعكس ثقافة تسويقية هدفها إرضاء غرور الأثرياء الزاحفين لرحابة الأطراف، ومروج الجولف، ووجاهة البحيرات الصناعية، وطن اصطناعي داخل الوطن، وطن استيطاني كبؤر الاستيطان هناك في الضفة، وطن أصحاب النفوذ والمصالح والعلاقات!!

التفاوت في كل مكان في مصر، متلاصق دائمًا وقريب في المسافة ببعضه البعض حتى في المدينة الجديدة تقف بنايات إسكان الشباب المدعَّمة قبالة المنتجعات الفخمة على الطرف الآخر من الشارع. هم قطعًا لم يخططوا

لهذا سوى لتكون فراغات صغيرة تضفي شرعية على الخريطة.

أتأمل كثيرًا الوجوه في المسجد القريب فأشعر أنَّ هناك فيما بينهم قاسمًا مشتركًا، الوجوه هنا أكثر هدوءًا وأقل في التفاصيل. مزيج من القاهريين الشباب حديثي الزواج، وطلبة البعثات الأسيويين، والأفارقة وحتى بعض الأوروبيين. الأحاديث قليلة وكل فئة تتجمع مع بعضها كأنهم جميعهم هنا مغتربون. تستشف إحساس الغربة من الوجوه. تتشابه مع وجوه العمالة الفقيرة في دبي. من هناك إلى هنا لم تختلف الوجوه كثيرًا من حولي.

مجتمع جديد يحبو مازال في طورٍ بدائي، تتشكل في صورة مجموعات لم تندمج بعد لتشكل نسيجًا حقيقيًا واضح المعالم.

أنا لم أعد من أجل هذا. الحنين الدفين يناديني لوسط المدينة، أصوات المقاهى من طقطقات الشيشة ورميات الزهر. ونداءات باعة الجرائد والروبابيكيا، والشاي بالحليب، وعربة الفول وأرغفة الخبز السمراء، وصوت "أم كلثوم" الصادر من الراديو في الأمسيات، وحركة الشوارع الصاخبة الممتدة من الميادين في كل اتجاه، ومحلات الكتب، وسينمات وسط البلد، وفتارين المحلات، وعلب الكشري، والأصدقاء والحكايات، والتيارات السياسية والصحفيين، والأدباء والشعراء، والموسيقيين والمهمَّشين، وصياحات باعة الأرصفة، وملاحقات المتسولين والمتشردين. وسط البلد يمثل بؤرة الأحداث وعالم التحولات.

صخب المدينة وهدير الحياة يناديني، وسط المدينة القديم، وطن الأحداث يناديني كهتاف بعيد صار يعلو ويقترب، فينتشى جزء أصيل مني يهفو للهتاف كلّما علا، كلّما اقترب.

شقة وسط البلد

في الصباح الباكر كنت أهبط من الحافلة مترجلاً نحو وسط البلد. ها أنا أعود مرة ثانية بعد طول غياب. جُبت الشوارع على امتدادها في عجالة، مطالعًا بنايات وسط البلد والمحلات وكأني أود التأكد من أن كل شيء مازال في مكانه و لم يبارحه. بعد بضع سنوات تطالعني الأبنية والمحلات كأنها تعرفني كما أعرفها، ويغمرني شعور بالنشوة وإحساس دافئ وكأن شيئًا فيَّ عاد إلى موضعه. يدب فيَّ نشاط عجيب، وأسير مُهرولاً في الشوارع مع نسمات الصباح الباكر الندية، وأكاد أقفز في الهواء.

دونما تفكير قصدت مكاني الأثير وأنا أكاد أشتم رائحة الأسبرسو في أنفي، وأشعر بطعمه القوي على طرف لساني. أصل ناصية شارع عدلي فلا أجد مقهى البن البرازيلي في مكانه بجوار سينما ميامي. كل المحلات هنا كما هي، ولكن أين ذهب المقهى؟

تجمَّدت في مكاني، وغمرني لدقائق إحساس عارم بخيبة الأمل. ماذا يحدث لك أيها الحي العريق؟ إلى أين تذهب ملامحك العريقة؟ تحول مقهى البن البرازيلي إلى محل ملابس تطل من واجهته بناطيل جينز وقمصان مشجرة.

تحركت من موضعي، ودلفت إلى محل الملابس سائلاً عن مقهى البن البرازيلي، الذي كان يحتل هذا العنوان قبل خمس سنوات فأشاروا لي داخل الممر المجاور بعمارة يعقوبيان، فقد انزوى المقهى بالداخل. عمَّني الارتياح، ومضيت داخل الممر في لهفة أبحث عن مقهاي القديم.

تهللت أسارير العاملين بالمقهى عندما رأوني، هم لم يتغيروا. نفس العاملين يقبعون في البن البرازيلي منذ عقود، هرموا مع المكان، وصاروا جزءًا منه وهو جزء منهم، كلهم أشيبوا الشعر، عجائز.. أنا أحدثهم عهدًا أمضي بين جنبات المقهى ثلاثين عامًا.

انزوى المقهى في آخر الممر الداخلي. وبِيع المحل القديم العريق لأصحاب المد التجاري الذي أصاب قلب المدينة الراقي. انزوى المقهى الذي يُعد أفضل فنجان إسبرسو وكابتشينو شربتهما في حياتي. المقهى الذي رأَيت بين جنباته الكثير من النخبة والفنانين، ووجهاء الزمن القديم.

شربت فنجان القهوة الساخن مع الباتيه، ومضى الصباح وأنا أطالع الصحف، أمر بقلمي بين السطور بحثًا عن شقة للإيجار في وسط البلد، المعروض قليل جدًا وغالي الثمن، وليس متاحًا للسكن بل للمكاتب والأنشطة التجارية. لم يعد وسط البلد فيما يبدو متاحًا، فقد خرج من الخدمة. الوصول إلى شقة فيه يبدو شيئًا صعبًا ويرد عليك المؤجرون دائمًا

بسؤالٍ واحد "مصريون ولا أجانب؟" ويغالون في الأسعار بشكل مستفز، وعندما استفسرت عرفت أن تلك الأسعار يدفعها الأجانبُ والعرب الوافدون من العراق وفلسطين؛ لوقوع وسط البلد في قلب المدينة. كما أن قلة المعروض من شقق تصلح للسكن أدى إلى ارتفاع أسعارها عاليًا، ولكنَّ الوافدين يدفعون ولا يمانعون، كانت هذه فئة قليلة، أما أكثرية الشقق فقد تركها أصحابها، لتتحول لأنشطة تجارية ومكاتب إدارية، تركوها أو أجروها ورحلوا.

هل تُؤجَّر البلد لغير المصريين فقط؟ أين يذهب سكان المدينة؟ للقاهرة الجديدة؟ يبدو أنني أقوم برحلة عكسية حيث يمضي الكل في الاتجاه المقابل من الطريق، وأنا ذاهب إلى ما كانوا منه يرحلون.

يغادر الناس مما أنا ذاهب إليه. يرحلون عن وسط المدينة، ويرحلون عن البلد كلها وأنا الوحيد العائد فيما يبدو، ربما أنا صاحب عقل مقلوب- كما تقول أمي!

المهمة كانت شاقة، وتطلّبت عدة أيام من اللف على البوابين والسماسرة، بعد أن اكتشفت أن الحصول على شقة في وسط البلد لا يتم عبر وسائط التكنولوجيا كالإنترنت وإعلانات الصحف المبوبة، فكان لابد من التنقيب بالطرق القديمة والمرهقة. المصادفة قادتني إلى سمسار عجوز ضعيف النظر، ويعاني من خطأ في الاتجاهات كلما وجه حديثه لي، ولكنه على الرغم من ذلك كانت ضربته صائبة تمامًا. فعندما تفحّصني أول مرة غمغم، ثم أشار لي في اتجاه شارع يبدو هادئًا وعلى ناصيته مقهى قديم

بعض الكراسي المتهالكة، وقال:

- "أستناني هنا، في شقة في الشارع ده".

عَبْر وسيط لسمسار يعمل شريكًا لسمسار تجمعه مصالح عمل مع سمسارى حصلت على الشقة، ولكن مع تكلفة باهظة في العمولات كادت أن تنتهي بخناقة على المقهى، ولكنَّ الله سلم وتراضى كل الأطراف وخرجت بعقد إيجار لسنتين ومعلومات شيقة عن عصابات السماسرة، المتداخلة العلاقات كعائلات المافيا في شيكاغو إبّان حقبة الثلاثينيات. ولكن السؤال الذي لم أجد له إجابة شافية هو، كيف تحول الرجل الوسيط لسمساري ضعيف النظر من مدرس علم النفس بمدرسة ثانوية لسمسار شقق مفروشة وعقارات؟!! ما الخلل العجيب الذي حول الشعب المصري إلى درجاتٍ متفاوتة من السماسرة؟

يوميات الغريب

- "أنت يابني غريب قوي".

هكذا قالت أمي وهي تقف على باب الشقة تتابعني وأنا أحمل حقائبي ومتعلقاتي، وارتسمت على وجهها علامات الدهشة، أما ابن أختي الصغير فأخذ يحبو حول متعلقاتي، متحسسًا إياها وعابثًا بها. كنت أنقلها إلى السيارة بمساعدة أخي الذي بدا هو الآخر مستنكرًا للأمر. من تحت يديّ ابن أختي كنت أسحب متعلقاتي الواحدة تلو الأخرى حتى انتهيت من نقلها كلها، وعندما لم يجد شيئًا يعبث به طالعني هو أيضًا بدهشة ونكران!

حملت الكتب وبعض الأوراق والبراويز، وما تبقّى من تسجيلات "فيروز" و"أم كلثوم"، ونقلني أخي إلى شقتي الصغيرة في وسط البلد. ها أنا ذا أواصل رحلة العودة إلى أشياء أفهمها.

طالع أخي الشقة شبه المهجورة، التي كانت مغلقة منذ عدة سنوات، متنقلاً بين الغرف قبل أن يهمهم قائلاً:

– "مش فاهم!".

شمَّر عن ساقيه، وأطلق خرطوم الماء في الشقة ورغاوي المنظفات، ومضى يزيل ما بها من غبار السنوات المنسية. مضيت أنا في رحلة تنقل في الذكريات متفحصًا متعلقاتي، وما بين طياتها من الذكريات التي لسببٍ ما كنت أشعر أن دهرًا مر ما بيني وبين ذكرياتي، كيف تصير بضع سنوات قليلة دهرًا؟!! كم هو غريب فعل الأيام، تشعر بأنها ترمح بك سريعًا ولكنك عندما تتذكر ما فات تشعر بأنه مضى في دهليز طويل.

أمرني أخي أن لا أعترض طريقه فقد كان مندفعًا بتيارات الماء في كل أنحاء الشقة كأنه غاضب من سوء حالتها أو من شيءٍ ما آخر. قلبت أصيص زرع كبير فارغ، وجلست عليه في الشرفة مطالعًا الشارع والمقهى القائم هناك على الناصية.

أنتبه فجأة على هتاف أخي، قبل أن يقترب وهو يقول:

– "إيه.. بنادي عليك مبتردش"..

فدلفت للداخل أطالع الشقة بعد أن نظفها كلها، فبدت مفهومة أكثر من ذي قبل.

قال أخي:

– "أنا ماشي.. علشان عندي محاضرات بكرة الصبح بدري.. ابقى شغَّل في الشقة دي قرآن، وكلم حد من صحابك ييجي يبيت معاك..".

لم أعلق فتابع متسائلاً:

- "أنت بقيت هادي قوي كده؟ أنت بقيت أجنبي؟"

فابتسمت وأنا أرد عليه قائلاً:

- "وأنت بقيت تتكلم بنفس طريقة أمك بالظبط".

طالعني متعجبًا قبل أن يعانقني مودعًا، وتابعته من الشرفة وهو يمضي في طريقة بخطواتٍ سريعة.

رصصت الكتب كالتلال في أحد الأركان، وفردت قطعة من الكليم على الأرضية، وتمددت على ظهري أنظر للسقف وأفكر في الأحداث التي تدور من حولي، طيور تحوم حولي من الأفكار التي لا تهدأ ولا تستكين، كم مرت عليَّ السنوات متلاحقة صاخبة، مفعمة بالأحداث والمتناقضات؟.. كم أود لو أستعيد نغمة السكينة ثانية. أين تهت؟ ومتى سأعود إلى نفس النقطة الساكنة في عمقٍ بعيد لا أعرف كيف أسير إليه ثانية؟

تركت القطار ونزلت في محطتي القديمة، نعم هي محطتي ولكن لسببٍ ما كان الإحساس مختلفًا، لم يعد كما كان عليه عند الرحيل، تبدلت الأشياء حتى صارت غير مفهومة، فلم أدرِ هل هو القطار الذي ترنَّح بي حتى دوخني؟ أم الصورة التي تبدلت؟!!

قمت من غفوتي، واعتدلت جالسًا وتناولت اللاب توب المغلق منذ ذلك اليوم الذي عدت فيه. هل عليَّ إعادة الاتصال بالعالم؟ تردد في رأسي السؤال وأنا أطالع شاشة اللاب توب وهي تضيء.

فجأة رن صوت في رأسي "حاتم"، اللعنة أنا لم أتصل به منذ عودتي، ولم أتحدث إليه عبر الإنترنت. سيسبني إذا اتصلت به الآن. ليس معي محمول، على أي حال لقد تركته هناك في دبي على الرصيف وبه كل الأرقام. لم أعرف لماذا تركته هناك ولكني كنت متأكدًا من أنني تخلصت من حملٍ ثقيل. ربما الآن أستطيع أن أنتقي من كل فات ما أريده.

"حاتم طوقان" صديقى القديم والأبدي يلوح في الأفق الآن كعلامة تدل على العنوان المؤدي لسكة ما في نفسي.

"حاتم" صديق الطفولة والمراهقة، الذي يعرف عنِّي كل ما قلته، وكل ما لم أقله بعد!!

الصديق الذي لازمني مع مرور السنوات وتقلبات الشخصية والأفكار. هو الصديق الذي يعرف عنى أكثر من أمي أو أخي، هو الذي يعرف قصص الحب الفاشلة التي مررت بها، ومغامرات المراهقة وأحلامها.

ذلك الصديق الذي يُكون ركنًا أساسيًا في تركيبتك، وهو الشخص الذي مهما ابتعدت عنه لابد من أن يُحكى له تفاصيل ما فات.

عندما رحلت فقدت الاتصال بكل أصدقائي، وبقي "حاتم" هو الوحيد الذي أتحدث إليه على الدوام بالهاتف أو الإنترنت، وقد زارنى مرة وأنا في دبي عندما ساءت حالتي الصحية، وظل معي أسبوعين لم نفعل فيهما شيئًا سوى الاستلقاء على الأريكة طيلة اليوم، نثرثر ثم نلعب البلاي ستيشن، ونطلب أكلاً من المطعم التايلاندي المجاور.

"حاتم" صاخب وضاحك، ومستفز ولحوح، ومرهق وكأنه نقيضي.

ينتمي للطبقة الأرستقراطية التي لا أميل للاختلاط بها. هو زملكاوي متعصِّب وأنا أهلاوى عنيد. ليس له أي ميول فنية وأنا عاشق للفن بكل أشكاله. لا نتلاقى في الذوق الفني للموسيقى أو الأفلام إلا نادرًا حتى ذوقنا في النساء كان مختلفًا!

في سن العاشرة التقيت بـ"حاتم" لأول مرة، عندما تشاجرنا في ملعب كرة السلة على أسبقية اللعب، وأصاب بعضنا البعض بكدمات وخدوش في شجارٍ عنيف، ومنذ ذلك اليوم لم نفترق.

جربنا الكثير من الهويات سويًا بدءًا من تربية الطيور والحمام، مرورًا بجمع الطوابع وصيد السمك، وركوب الدرجات والموتوسيكلات. سافرنا سويًا، وقفزنا من القطارات سويًا، وجُبنا طرقات وسط البلد ليل نهار سويًا.

أمي كانت تُؤنّبني أحيانًا قائلة "حرام عليك، الواد كان ابن ناس.. حولته لمتشرد زيك"!

في ركن بالشقة تليفون قديم على الأرض رمادي اللون بقرص. حاولت مع قرص الأرقام الذي كان شبه متحجر من الرطوبة وعدم الاستعمال. رقم الهاتف الأرضي في منزل "حاتم" كنت أحفظه عن ظهر قلب. هو أحد أربعة أرقام هواتف مازلت أحفظها في طيات الذاكرة، رقم "حاتم"، ورقم منزل فتاتي السابقة، ورقم أمي الذي من النادر أن يرد. أما الرقم الرابع فكان لفتاة عذبة الصوت تُدعى "....."، لم يكن لها اسم أعرفه رغم أني داومت على الاتصال بها لسنوات!

كان في الحقيقة رقمًا خاطئًا.. ذات يوم كنت أحاول الوصول لشخصٍ ما فأخطأت الرقم،كانت تلك الفتاة على الطرف الآخر تجيبني بصوتٍ هادئ ذي بحة مميزة "أيوه"، لسببٍ ما كنت كل ليلة أعاود الاتصال، وأغلق الخط بعد أن تجيبني بردها المعهود. انقطعتُ لفترة طويلة عن فعل هذا العمل الصبياني، ولكن ذات ليلة حدثت مفاجأة. رن هاتفنا وقبل أن أقول أي شيء كانت هي على الطرف الآخر تقول كعادتها "أيوه"، لم تكن تجيب عن أية أسئلة، و لم أكن أعرف أن رقمي كان يظهر لديها.

في الأمسيات عندما كنت مُتَّخمًا بهمومي وأفكاري، وقصة حبي ومشكلاتي مع أهلي كنت أهاتفها، وأظل أحكي. وكانت هي تستمع طيلة الوقت ولا تعلق، فقط تصغى حتى أنها أحيانًا عندما أتوقف عن الكلام تحثُّني على المواصلة قائلة "كمل كلامك".

كيف كان الرقم الذي أهاتفه وأبوح له، ويستمع لي حتى النهاية في الأساس مجرد رقمٍ خاطئ؟!

بعد أن كررتُ المحاولة كثيرًا مع القرص العنيد أتاني رنين على الطرف الآخر، وما إن أجابني صوت أعرفه جيدًا حتى هتفت بسعادة:

- "توووووومه!"

رد "حاتم" على الطرف مغتاظًا:

- "وحياة أمك؟!!!"

فاصل ولن نعود

أن تقوم بخلق عالمك الخاص بك لابد من مقدارٍ ما من الحلم، حلم قادر على شحن الواقع بالطاقة الدافعة. الحلم يضع علامات في المستقبل تمضي إليها. الحلم يُسهِّل عليك انتظار المستقبل، فبدون الحلم أنت لا تستطيع تخيّل القادم من الأيام، الواقع دائمًا يحتاج للحلم حتى يكسر جموده، ويحد من مشقته.

الحلم بأن الوطن مازال هو الملجأ الأخير، وهو النفس الأخير مهما اختنقت.

الفاصل ما بين عهدين كان يزيد عن الخمس سنوات قليلاً، أمضيتهم متنقلاً بين البلدان. هذا الابتعاد صنع فاصلاً ما لم يكن موجودًا من قبل. الآن لعلني أستطيع العودة إلى نفس الشخص الذي تركته منذ عدة

سنوات. رحلة عودة لشخصٍ ما كان يسكن هنا، وكان لديه قدرة كبيرة على الحلم.

كانت كلها أحلامًا ذاتية غارقة في عالم يصعب فيه الحلم. شاب يعلم أن أحلامه لا يتسع لها هذا الوطن. ولكنَّ شيئًا ما في هذه الأحلام كان له معنى عميق وأصيل.

الآن كدت أشعر بأنني تخلصت من هاجسين كبيرين كانا يسيطران عليَّ من قبل: هاجسي الأول كان البحث عن الذات وتحقيق طموحاتها، أما الهاجس الآخر فكان السفر والرحيل من الأرض الضيقة، والانطلاق نحو رحابة العالم المتسع.

لم أكن أفعل شيئًا طيلة السنوات الماضية سوى العمل والسفر في رحلات عمل وأحيانًا كانت زيارات سياحية، زرت البلاد التي رغبت في زيارتها، وجُبت العواصم الكبيرة والشهيرة، وأقمت صداقات وطيدة في أماكن شتى. الوظيفة التي كنت أرغب فيها حصلت عليها بعد فترة من العمل المضني. أشعر أحيانًا بأنني ربما كنت حققت أكثر مما كنت أحلم به عندما بدأت رحلتي من صالة مطار القاهرة القديم.

كان توافد عروض العمل على بريدي الشخصي طيلة السنة الماضية شيئًا يجعلني أشعر بالارتياح تجاه نفسي.

لم تعد دوافعي القديمة تُؤرِّقني الآن. فأنا أشعر بأنني قد وصلت أعلى قمة، ولكن هناك توقف بي الزمن، ولسببٍ ما أحسست بأنَّ هناك أشياء كثيرة متداخلة فيَّ لم أفهمها بعد. ربما كانت لديَّ قدرات واسعة في مجال

التكنولوجيا، وخبرة جيدة في الإدارة وبناء العلاقات، وفهم العقلية البرجماتية الغربية والعمل معها، وتحقيق النجاح. قد أكون اكتسبت القدرة على تنظيم عقلي وتحريكه بكامل كفاءته في الطريق الصحيح. قد أكون قد تخلصت من سيطرة العواطف عليَّ، وصرت أكثر عقلانية وواقعية.

لكني لم أعرف لماذا كان يتملَّكني شعور بأن هناك شيئًا ما كبيرًا ناقص، شيئًا لم أستطع أن أحدد ملامحه. وكأن هناك مساحة من الفراغ داخلي لا أرى أبعادها، ولكنها تؤرقني على الدوام.

روحي تمضي في هذا الفراغ فتتوه، وأناديها فتعود لي مُتعبة، ولا أعلم ماذا حدث لها هناك في أبعاد هذا الفراغ؟

في الغربة عندما كنت أستلقي على ظهري ببدلة العمل على الأريكة في شقتي، محاولاً الاسترخاء بعد يوم مضنٍ أشعر بأن فيَّ خللاً ما. كأنك صنعت بيتًا كبيرًا بتصميم مُحكم، وفجأة عندما جلست لتستمتع بالسكنى فيه شعرت بأن هناك فتحةً ما يتسرب لك منها هواء بارد وضوضاء. تبحث عن مكان الخلل فلا تجده، ولكنه لا يدعك تستكين. يواصل عبثه.

كنت أشعر أحيانًا وكأنني أبحث عن سِياقي الذي انتُزعت منه، وكأنني عثرت على جزء من كتاب لم أجد مقدمته. كانت جنسيتي التي أحملها تشكل لي ركنًا في حياتي لم أستطع التعامل معه. كلما سألني أحد عن بلدي كنت لا أجد في صدري شيئًا أقوله. وكأنه شيء لم أعد أجد له في نفسي تعبيرًا أو وصفًا أو إحساسًا وثيقًا. بلدي كانت من أشياء عدة توارت في الفاصل. يسألني الناس في سفرياتي عن بلدي فلا أعلق.. يتجاذب معي

أصدقائي في العمل الحديث عن بلدي، فأشير إلى موقع "ويكيبيديا" فهو يعرف عنها أكثر مني الآن!

وأنا في الخارج، وأنا في الفاصل، وأنا خارج السياق، لم تعد بلدي تشكل في داخلي سوى صمت. أو ربما كان وجعًا تحول مع الأيام إلى صمت.

أعود الآن وأنا أشعر بأن فاصل الغياب الذي صنعته تلك السنوات سيتيح لي ما لم يكن متاحًا من قبل في هذا البلد، لعلّني أستطيع الآن فهم ما ابتعدت عنه.

ربما سأستطيع أن أجيب على الأسئلة المرهقة، أسئلة الفاصل، وربما سأجد السياق.

هناك أشياء كانت تجرني في طرقاتها قبل عدة أعوام لعلها الآن ذهبت بلا رجعة. صراعات أسرية مع عائلة أبي ومطامعهم في الإرث، علاقات متشابكة تجارية، وعقارية وعائلية فيما يشبه تكوين شجرة عائلة المافيا، ومفهوم السيطرة والقواعد التي لا يجب الخروج عنها. كان أبي يمثل قمة هذه الشجرة. أبي كان الأب الروحي، رب العائلة المتشعِّبة الكبيرة ومصدر إلهامها، والمؤسس لقيمها ونظامها.

إرث أدبي وأخلاقي صعب ومتشعِّب ومعقَّد. هو "الدون كورليوني" المؤسس لتجارة العائلة والمهيمن على شؤونها. هو ركن القيم وعصا الحكمة. إرث الأب الروحي أخذني في طيات صراع المال وفرض النفوذ، حرب مهلكة لإرث متداعٍ متشابك.

كلما احتدم الصراع ابتعدت، لم أكن أشعر بأن هذا قدري. شخصيتي المتأملة لم تكن تنتمي لمافيا الصراعات والنفوذ. قدري كان أرضًا مُلبَّدة بالفساد.

أفكاري السياسية وتوجهاتي التي سيطرت عليَّ في فترة الجامعة كانت تزوى مع الوقت، عندما لم تجد في البلد مناخًا قد يصنع ذات يوم تغييرًا. أفكار مغرقة في المثالية داستها أقدام الواقع، لعلها ذهبت بلا رجعة هي الأخرى.

قصة الحب الوحيدة في حياتي انتهت قبل رحيلي بأشهر. قصة حب كانت لابد يومًا أن تنتهي، هناك أشياء ليس لها بعد زمني طويل. تنتهي عندما يخبرها الواقع بأن عليها أن تتوقف. ثلاث سنوات في قصة حب قررت في لحظة أن تنتهي. ودونما مقدمات أفقت يومًا على نهايةٍ فاصلة.

بعض الأشخاص الذين كنت أعرفهم، وبعضٍ الأصدقاء القدامى كانوا مصدر إجهادٍ دائم لي، وكان من الصعب التخلّص منهم إلا بأن أخرج من الصورة ذات يوم فأصير في حياتهم مجرد ذكرى.

بعد العودة، السير في الطريق قدمًا يتطلب خلق عالمٍ جديد مختلف، عالم مختلف التفاصيل.

ربما كل شيء لابد أن يسير دائمًا هكذا، خطوة على الأرض وأخرى في الهواء.

غدًا آخر أيام السنة، يجب البدء الآن.

حصلت في اليوم التالي على خط الإنترنت بالمنزل، وانطلق سيل على

شاشة اللاب توب من رسائل البريد الإلكترونى وتحديثات الأخبار، وتنبيهات وأنشطة. السيل اليومي توقفت عنه منذ أسبوعين فاحتشد بغزارة منتظرًا عودتي.

أول رسالة كتبتها كانت لمديري في دبي الذي كان يرسل ما يشبه استغاثات يومية هو ومعظم فريق العمل، كان ردي:

"عزيزي، تحياتي من القاهرة، الجو هنا شتوي رائع. أرسل أمنياتي بالتوفيق لكل أفراد المكتب ورأس سنة سعيدة، وإلى اللقاء في عالمٍ أفضل".

ثاني رسالة أرسلتها كانت لصديق أمريكي يُدعى "شون"، كنت قد التقيته في مدينة سياتل خلال مؤتمر للأعمال الإلكترونية منذ بضعة أشهر. كان "شون" ذكيًا وطموحًا، ويمتلك شركة صغيرة لتقديم الاستشارات في مجال التكنولوجيا. أخبرته في رسالتي بأنني سأنضم له كباحث ومحلل عن بعد، وكما هو متعارف عليه سيقوم بتحديد مهمات محددة أسبوعية، وسيتم احتساب الأجر بناء على عدد الساعات. كان كل ما يهمني أن هذا العمل سيشغل عددًا من الساعات يوميًا. صعب أن أمضى أيامي دون عمل. راسلت "شون" دون أن أحسب حسابات المقابل المادي؛ نظرًا لأنني بالفعل كان لديّ رصيد جيد في البنك، وإن كنت لا أعرف الرقم بالتحديد. أمي ربما كانت تعرف، فالحساب باسمها هي. حسب ما فهمته من كلامها أنه غير كاف لشراء شقة في وسط البلد، ولكنه كاف لشراء شقه في القاهرة الجديدة. كنت أشكُ في كلامها فأنا أعرف أنها تريدني أن أقيم

بجوارها هي وأختي، ولكن كان هذا أمرًا صعب التخيل بالنسبة لي، فأنا لم أكن لأطيق تلك الضاحية الصامتة التي كانت ترى فيها أسرتي واحة هادئة خلابة.

أمي تلاعبني كالعادة، فهي في البداية كانت ضد فكرة عودتي لمصر، وبدا عليها الغضب المكتوم في كل أقوالها وتصرفاتها، ثم الآن تمارس ضغطها حتى لا أقيم في وسط البلد، لم أبغِ الصدام معها أو الدخول في جدالات لن تجدي، ستتفهَّم الأمر وستعتاده مع مرور الوقت.

هذه طبيعة الأبوين في الأسرة المصرية، يريدان أن يختارا لك الكلية التي ستدرس بها، والوظيفة التي ستمتهنها، والفتاة التي ستتزوجها وكأنك تعيش على ظلك أو حافة نفسك، كأنهما مكتب تنسيق ملازم لك طيلة حياتك. كنت دومًا بالنسبة لأبويَّ متمردًا عنيدًا، فلم أشركهما كثيرًا في حياتي، ولكني الآن وبعد هذا الفاصل الطويل، وبعد أن مات أبي وبدأ بعض الزهايمر يظهر على أمي لم أعد أستطيع أن أمارس تمردي. لعلّني يجب أن ألين قليلاً فهل سأستطيع؟

بعد تردُّد طويل قررت أن أشتري (موبايل) جديدًا ربما كان السبب الوحيد هو أن أهاتف أمي. بعد أن حصلت على الموبايل حاولت الاتصال بها، ولكنها لا تجيب كالعادة، ما هذا؟ لم أكن أعرف!

ليلة رأس السنة

31 ديسمبر آخر يوم في العام. العام يفر راحلاً بعد أن قدت في نهايته أحد أهم انقلابات حياتي. الصباح كان هادئًا حتى هاتفني "حاتم"، ومضى يصنع ضجيجه المعتاد. ألح "حاتم" في طلبه حتى كاد صبري ينفذ. يريدني أن أصاحبه الليلة لحفل رأس السنة المقام في فيلا لإحدى السفارات. لم تكن بي رغبة مطلقة في أن أقضي ليلة رأس السنة بحفلٍ كهذا، فأنا لم أكن لأطيق تلك الحفلات وأحاديثها.

تركته يتحدث عبر مكبر الصوت، وانشغلت بإعداد قهوتي الصباحية والتجول في الشقة الفارغة، حتى أصابه الانفعال وبدأ صوته يرتفع، ويهتف مغتاظًا؛ لأني لا أرد على أسئلته وصوتي يبتعد، ولا أبدي أيَّ اهتمام بالأمر.

انفعاله جعلني أرضخ، وأقبل الدعوة على مضض. أخبرته بأني لن

أنتهي من بعض الأمور الملحة قبل التاسعة مساءً. ذعن لي وهدأ انفعاله، ثم أخبرني بأنه سوف يكون في الانتظار أمام منزله بالزمالك.

ذهبت لأبتاع بعض الكتب من مكتبات وسط البلد، وفي طريقي لمقهى البن البرازيلي رأيت طرقات وسط البلد مكدسة بعربات الأمن المركزي، فقد خرجت عدة مظاهرات هذا الصباح. كان عبور وسط البلد يشبه المرور بثكنة عسكرية، متخمة بالمتاريس ومُدجَّجة برجال الأمن.

عندما حل المساء واقترب الموعد خرجت أطالع المدينة المزدحمة الباردة ليلة رأس السنة، وأدركت أن التاكسي لن يجدي في الشوارع المكبلة بالزحام، فقررت التوجه إلى الزمالك سيرًا على الأقدام، فلكم افتقدت النيل في الليل. قطعت ميدان التحرير وكوبري قصر النيل المزدحم بالشباب الذين يحتفلون برأس السنة على الطريقة المجانية بالتجمهر على الكورنيش، والتنزه على الكباري، والتقاط الصور بالموبايلات، كما كانوا أيضًا يمضون الوقت في المعاكسات والمشاغبات هنا وهناك. ليلة رأس السنة تبدو مختلفة في الليل عما كانت عليه خلال النهار.

دخنت سيجارة وأنا غارق في مطالعة صفحة ماء النيل وأضواء الليل المنعكسة، والهواء البارد يلفحني. أمضيت دقائق متوقفًا قبل أن أواصل المضي قدمًا فانحرفت في اتجاه كورنيش الزمالك، ثم نظرت في ساعتي فقد كنت قد تأخرت بالفعل، وتخيلت وجه "حاتم" وهو منفعل. ابتسمت وأسرعت الخُطى وبدأت أصفر لحن أغنية خطرت على بالي فجأة من مكانٍ ما في سماء ذاكرتي، فانشغلت بالغناء.

"تمرق عليّ.. تمرق

ما بتمرق.. ما تمرق

مش فارقه معايا..

مش فارقة..

تسأل عليّ.. تسأل

ما بتسأل ... ما تسأل

مش قصة هيك.."

على كورنيش الزمالك أمام مداخل المراكب السياحية كان المشهد جديرًا بالمشاهدة. الساعة العاشرة والسيارات الفاخرة تتراص في صفوف طويلة لا تتحرك، وعلى النواصي وأمام مداخل المطاعم النيلية تقف زمرة من الضباط ورجال الأمن من ذوي النجوم والنسور والحلات السوداء، يتحدثون في أجهزتهم اللاسلكية في مشهدٍ بوليسيّ يشبه الأفلام السينمائية الأمريكية، عندما تأتي قوات الأمن لتأمين المنطقة المعرضة لهجوم كائنات فضائية أو هجومٍ نوويّ!

جمع غير مسبوق من الرتب الرفيعة المبجلة، كل همهم وشغلهم الشاغل هو صفُّ السيارات في صف ثانٍ طويل – الذي هو في الأساس مخالف لقانون المرور – صف كان يمتد حتى أعلى كوبري أكتوبر. كانوا ينظمون المرور للسيارات الفارهة التي تتوقف أمام مداخل المراكب السياحية؛ لتفرغ ما فيها من قوم رفيعي المستوى، ولذا كان حتمًا ولابد من تسهيل الحركة لهم واستثناء قوانين المرور، وجمع هذا العدد الغفير

من الرتب، لعلهم هم أنفسهم الذين رأيتهم هذا الصباح في وسط البلد يسدون الشوارع، ويعطلون المرور ليصفّون قوات الأمن كستارة رادعة؛ لحجب وتفريق المظاهرات التي كانت تنادي بحرية الصحافة. ما هذا الوضع المقلوب؟ ها هي أشياء كدت أن أنساها عادت تطالعني.

"حاتم" كان يرتدي حُلّة جميلة سوداء، ويحمل مِعطفه على ذراعه، يتلفت في قلق، وعندما رآني اقترب صائحًا:

- "الله يخرب بيتك".

- "الله يعمر بيتك".

- "وبعدين إيه دااااااه يا بني آدم... أنت هتيجي معايا كده؟"

قالها وهو ينظر إلى ملابسي باستنكار، فرددت ببرود:

- "ماله كده؟"

- "جاكت جلد وجينز؟! يابني دي حفلة كلها دبلوماسيون وسياسيون ورجال أعمال.."

فقاطعته بلهجةٍ غير مبالية:

- "إن شالله يكون فيها الحاج بركات أوباما"!

فابتسم ثم ما لبث أن ضحك بصوتٍ عال، وتخلًى عن تململه وسرنا على الأقدام في شوارع الزمالك باتجاه الفيلا المقام فيها الحفل.

سيارات الليموزين السوداء والمرسيدس، ولوحات أرقام جمارك ودبلوماسية تصطفُّ أمام باب منزل السفير، وتنفتح الأبواب فتمتد

خارجة منها أحذية طويلة فاخرة، وجوارب شانيل، وتنورات، وفساتين قصيرة فوق الركبة، تغطيها معاطف سوداء أو من الفرو الفخم، ويتبعها رجال في حلات فاخرة ومعاطف طويلة أوروبية، فتعجبت من كم المعاطف، وسألت "حاتم":

- "إيه ياعم هيَّ الحفلة دي في موسكو ولاّ إيه؟!"

فضحك وقال:

- "يا عم سيبهم يتبسطوا بكسوة الشتا... أنت جاي من دبي تتريق علينا؟!"

سرنا في الصف باتجاه مدخل الفيلا، سائرين مع المدعوين الذين كنت أعرف بعضهم من مشاهير السلطة ورجالِ الأعمال، يتأبطون أذرع الحسناوات، ويبتسم الجميع في مشهد سعادة رائع لمظاهرةٍ من النفاق الاجتماعي الدبلوماسي السياسي، المختلط برجال الأعمال والسلطة.

"حاتم" انشغل بمصافحة زملائه بالخارجية ومعارفهم، أما أنا فرمقني الأمن بنظرةٍ متفحصة وهم يطالعون الدعوة الخاصة بي، ولاحظت استنكارهم لملابسي فابتسمت ابتسامة عريضة سعيدة لإغاظتهم، ودلفت إلى الداخل، وعندما حاول أحد الخدم أخذ معطفي رفضت، وقلت بسخرية:

- "لأ معلش أصله فيه فلوس..."

في الداخل يهب عليك كوكتيل من العطور الفرنسية والإيطالية النفَّاذة الخانقة، وترى طاولات مستديرة يتجمع حولها أشخاص لطفاء كلهم مبتسمون سعداء، وحجم الابتسامة دومًا يصنف الأشخاص؛ فصاحب

الابتسامة العريضة هو من أصحاب الحفل، وصاحب الابتسامة المتقطعة هو أحد الكبار الساسة فكان لابد من رسم بعض الوقار، وأصحاب الضحكات العالية هم أصحاب الصف الثاني، الراغبين في الظهور والحضور، أما رجال الحزب فكانوا يأكلون على كل الموائد. مشهد تستطيع أن تراه في أي فيلم، مشهد تقليدي ليس فيه أي جديد، يطفح بالنفاق والصفقات، والمصالح المشبوهة ما بين الجميع.

باند غربي يعزف، وموائد طعام فاخرة، وكؤوس ملونة بأفخم الخمور الفرنسية، وفتاة شقراء تصطدم بي، ثم تلتفت معتذرة وتسألني عن مكان التواليت فأهز كتفي ورأسي نافيًا.

عاد "حاتم" وهو يرتدي غطاء رأس "بابا نويل" الأحمر، ويلوك في فمه طعامًا. مد يده مصافحًا وكأنه لا يعرفني ثم قال:

– "يا أهلاً بحضرتك .. عجبتك الحفلة؟"

– "أكيد حضرتك.. بس فيه استفسار مزنوق فيه؟"

– "اتفضل".

– "إنت جيبتلي دعوة إزاي؟"

– "ااااه.. دا أنا عملت أكروبات علشان أجيبها".

– "طيب سؤال تاني... هو إحنا هنا بنعمل إيه؟"

– "اممم.... مش عارف!"

– "وحياة أمك؟؟؟!!!"

ضحك "حاتم" ضحكته الصاخبة، ثم بدأ يرقص على أنغام الموسيقى حتى يمتص تململي، ثم قال وهو يتمايل:

– "وحشتني شتيمتك.. هوّ الحقيقة كان في سبب، بس للأسف يا صاحبي طلع نوك أوت".

– "اللي هوه؟!!"

– "نيرمين كانت مفروض جاية، بس للأسف ماجتش"

فضحكت بصوت عالٍ، فقد عرفت للتو ما سر اهتمام "حاتم" بحضوري وأنا أستحضر في مخيلتي صورة "نيرمين" بشعرها الأسود الناعم وعينيها الصغيرتين. "نيرمين" فتاة هادئة ولها صلة قرابة بعائلتي، وكنا غالبًا ما نتلاقى في الصيف عندما تتجمَّع العائلة في المصيف، كما كانت "نيرمين" صديقة مقربة لأختي وكانت تزورنا كثيرًا. "نيرمين" تعمل مع "حاتم" بالخارجية تحت التدريب، وتثيره بهدوئها. "حاتم" المهرج الذي كان ذا ذوق سيء في النساء يميل لـ"نيرمين" ابنة السفير، الفتاة الهادئة؟ لم يتغير "حاتم" أبدًا فمازالت النساء تحرك عقله أكثر من أيِّ شيء آخر. في البداية عندما عرف بقرابتها مني حاول أن يضفي على طريقته معها بعض الوقار، ولكنه لم يفلح في إثارة اهتمامها. أدركت من أحاديثنا عبر الهاتف والإنترنت أنه شبه متيم بها، ولكنها كانت دومًا تتعامل معه بطريقةٍ رسمية.

قلت له وأنا مبتسم ابتسامة واسعة:

– "طيب وأنا كنت هعملك إيه؟"

- "هتظبطني!"

- "أه.. أكيد.. خسارة إنها مجتش.. دا أنا كنت هطلعكوا في البلكونة، وتقولها الجو حلو وشايفة القمر!"

- "هاهاهاهاها.. يا عم يالاً نرقص، أنا جاييك تتبسط"

- "طيب لو كده بقى هخرج أجيب سجاير وأرجع".

- "متتأخرش.. البوفيه مليان خيرات مستنيانا "

تركته وخرجت من الفيلا، لأتنفس هواء آخر ليالي ديسمبر البارد، ملأت صدري بدفعات من برودة كنت أفتقدها منذ عدة سنوات، وأشعلت سيجارة وسرحت مفكرًا في هؤلاء القوم المحتفلين في الداخل. لم أكن يومًا من هُواة هذه الحفلات ولا هذا الجو، و لم تكن بي رغبة في قضاء ليلة كهذه في حفلة كتلك التي بالداخل، فعلى الرغم من صخبها كان هواء المدينة البارد أكثر ألفة لي وإثارة. تذكرت لبعض الوقت مشاهد مظاهرات الصباح التي كانت تعتصر وسط البلد.

فجأة قاطعني صوت فتاة كانت تحاول المرور إلى الحفل فتحولت إليّ، وسألتني:

- "أنت حضرتك مدعو؟"

- "أه".

- "طيب لو مفيش فيها إحراج ممكن تخلّي بابا يبعتلي حد يدخلني، أصلي نسيت الدعوة وجيت متأخرة، وبحاول أكلمهم على الموبايل مش بيردوا، بابا اسمه.. "

فقاطعتها:

- "عاوزه تدخلي؟"

- " أه ".

فأخرجت الدعوة الخاصة بي، وقبلت الدعوة برفق ووضعتها في يدها مبتسمًا، فالتقطتها بلهفة دون إبداء أي رد فعل هكذا ومضت. مددت يدي في جيوبي، و قررت العودة إلى منزلي في وسط المدينة سيرًا على الأقدام، وأنا أفكر في لقاء صباح الغد فأنتشي سعيدًا.

في طريقي بشارع الجامعة الأمريكية، متجهًا إلى بيتي رأيت امرأة عجوزًا جالسة على الرصيف، وبجوارها رجل نائم على الأرض تحاول أن تغطيه ببعض الأغطية وبجوارهما كرسي متحرك، فقررت أن أساعدهما ببعض المال. مددت يدي بالمال للمرأة فنظرت لي نظرة يملؤها الطيبة والحرج، ثم قالت:

- "لأ يابني، أنا معايا فلوس".

اندهشت وتأملت ملابسهما التي تدل على أنهما قرويان، ثم فكرت لبرهة متحيرًا ولكنها أنهت حيرتي عندما تابعت:

- "أصل احنا كنا جايين للدكتور "محمد منصور"، بس مجاش والوقت اتأخر علينا.. تاخد أكل؟"

رفعت يدها بنصف رغيف كان في يدها مع برتقالة كانت في حجرها، تسللت الأمومة من عينيها الطيبتين حتى توغلت فيَّ، فشعرت أنها كجدتي أو أحد ما أصيل وأعرفه دومًا. أم مصرية بكل ما يحمله المعنى من دفء في

هذا الليل القاسي البرودة. وضعت المال في يدها فأخذته بحياء، ودعت لي بالرزق. أبت المرأة أن أمضي دون أن آخذ شيئًا من العشاء فأخذت منها البرتقالة، وسرت أفكر في رأس السنة وكيف يقضيه الناس هنا، وكيف يقضونه هناك على الجانب الآخر وانتهيت عند مدخل منزلي حيث وجدت عم "عبدالله" البواب جالسًا، فسألته:

- "عامل إيه يا عم عبدالله؟"

- "عم بعمل شاي... اتفضل".

- "وأنا معاي برتقال".

اقتسمنا البرتقالة وارتشفنا الشاي، ونظرت في الساعة فوجدتها الثانية عشرة بالتمام، ها قد انتهى العام وبدأ عام جديد، الآن في تلك اللحظة وأنا جالس على دكة عم "عبدالله"، استندت بظهري للحائط وثنيت ركبتيَّ وضممتهما لصدري، وأحسست بالقادم يأتي، يراودني وكأنه موج عاتٍ يتشكَّل في لحظات الصمت.

اللقاء الأول

تمشي شبه مسرعة في خطوات قصيرة، فتارة توحي بالثقة المفرطة، وتارة توحي بنزق طفولي بريء. تقفز من رصيف إلى آخر بعفوية وتتخطّى الناس لتقترب. تلف رأسها بحجابٍ ألوانه زاهية، وترتدي ملابس ذات زخارف رقيقة، وحقيبتها القماش المصنوعة في الخيامية بتطريزات إسلامية تبدو دومًا منتفخة بالكتب والمجلات وألوان الرسم. وجهها الجميل المستدير يبتسم دومًا ابتسامات راقية أقرب إلى الملائكية الآثرة، أما عيناها فدومًا مُعلّقتان بفضاءٍ بعيد.

كانت هناك علامات تنبئ بأن هناك أشياء تسري في داخلي تجاه تلك الفتاة التي كانت تقترب من باب المقهى وأنا أطالعها من خلف الزجاج، وأمامي باقة من الورد الأحمر القاني محاط بدائرة من ورد أبيض.

أول مرة أراها في الحقيقة، ولكني ميزتها وهي قادمة من آخر الشارع

وكأني رأيتها مرات كثيرة. دارت بعينيها تبحث عني فرفعت باقة الورد محييا بها، أحمر وجهها خجلا واقتربت ثم أخذت الورد بلهفة وجلست وهي تشكرني بالفرنسية.

فتحت حقيبتها وأهدتني اسكتش رسمته في الساعات الأولى من الصباح كما أتفقنا، الاسكتش مرسوم فيه رجل من ظهره، ويرتدي معطفًا وقبعة، وفي يده حقيبة سفر مع عبارة مكتوبة بالأسفل "حمد لله على السلامة" ثم إمضاؤها.

أسعدني الاسكتش فابتسمت ابتسامة عريضة، وسحبت منها دفترها وقلمًا رصاصًا، ثم كتبت في الدفتر بعض سطور من الشعر دارت في خاطري وأنا أطالعها وهي تعبر الشارع قادمةً نحو المقهى.

هدوؤها الذي طالعتني به كان أثيرًا، وفي رسوماتها وكلامها نزق طفولي أكثر رونقًا عما كنت أتخيله من قبل. كل الصور التي رسمتها في ذهني تبدو الآن باهتة في حضورها الحقيقي. مهما كان لديّ من قدرة على التخيل لم أكن لأستطيع تخيل "فريدة" التخيل التام. حضورها طاغ حتى وهي صامتة، شيء في وجهها لا يستطيع أحد رسمه بوصفٍ ما. وجهها شيء لابد أن يُرى. هناك دائمًا أشياء لا يستطيع عابر أن يرويها بل هي وحدها التي تفسر نفسها، وتترك سحرها.

استغرقت وقتًا حتى أطلب لقاءها، مفكرًا في سببٍ ما أو فكرة ما تجعل اللقاء مميزًا. واتتني فكرة بأن يكون هذا اللقاء في صباح اليوم الأول من السنة، وأن يهدي كل منا الآخر أول شيء تخطه أيدينا. أعجبتها الفكرة

وأتت تعبر الشارع في هذا الصباح الجميل. ما إن رأيتها حتى عرفتها، كأن شيئًا ما أشار نحوها ودعاني لأرى. هاجس الشعر تملكني فجأة وأنا الذي لم أكتب شعرًا منذ سنوات طويلة مضت. كل ما كتبته في الغربة كان هواجس على ورق مبعثر، أخفيه في حقيبة سفر سوداء.

اكتسى وجهها بالخجل، وظلت مبتسمة محدقة لوهلة في الفراغ وكأنها سرحت مفكرة في شيء ما. كان هناك دائمًا بالنسبة لي سحر ما في الفتاة التي تجيد الرسم. هناك هالة ما تحيطهنَّ. منذ أن كنتُ في المدرسة كنت أختلس النظر لكل دفاتر الرسم لفتيات الفصل. كنت أُكِنُّ إعجابًا لزميلة كانت ترسم رسومات جميلة، كنت أشعر بأنها الوحيدةَ من كل الفتيات التي بها شيء مميز..

رسم "فريدة" وخجلها، وغموضها ونبرة صوتها المميزة، ومفردات أخرى كثيرة تجذبني أكثر نحوها. قد تكون أشياءً بسيطة، ولكنها تصنع حالةً ما طاغية.

حكيت لها تفاصيل الليلة الماضية، وكيف تركت الحفل فكانت تضحك على المفارقات، وتتابع بشغفٍ حديثي، وما إن انتهيت حتى علّقت قائلة:

- "شكلك بتحب تبقى مع نفسك كتير".

فرددت ضاحكًا:

- "أه.. بِحُكم السكن والعشرة بقى.. أصل أنا وأنا ساكنين مع بعض من زمان!"

غابت في ضحكة طويلة، مغطية وجهها بيديها خجلاً، وما إن هدأت حتى نطق وجهها بابتسامةٍ ذكية، ورمقتني بجانب عينيها وكأنها ترقب شيئًا ما غريبًا.

سألتني عن برجي فلم أجب، وبقيت جامدًا. النساء دائمًا تسأل الرجل عن برجه، ربما لأنه تحليل جاهز للشخصية دون إجهاد في فهمها، أو ربما هو محاولة للفهم ولكن بطريقة نمطية. على أي حال لم يسألني رجل في حياتي من قبل عن برجي، النساء وحدهنَّ هنَّ المبادرات بهذا السؤال. قلت لها بأني غير مؤمن بالأبراج؛ لأن البشر كلهم مختلفون، ولايصح أن يكونوا متوافقين، لأن برجًا ما يجمعهم فبدا عليها الاعتراض، ولكنها لم تعلق.

غيرت الموضوع ومضينا نتحدث في موضوعات عدة مختلفة، ولكن فجأة ودون مقدمات باغتُّها قائلاً:

- "أنا برج العقرب".

اكتسى وجهها بالدهشة، وحدقت فيَّ كأن شيئًا ما أصابها. سألتني عن تاريخ ميلادي بالتحديد، وما إن أخبرتها حتى شهقت ووضعت يدها على فمها، ثم ما لبثت أن ضحكت بسعادة وأنا أتساءل عمّا يحدث مُتعجِّبًا. أخرجت لها بطاقتي الشخصية حتى تتأكد، فحدقت في الصورة وتاريخ الميلاد، ثم التقطت حافظة نقودها، وأخرجت منها بطاقتها الشخصية. لما طالعت بطاقتها الشخصية كانت المفاجأة!!

تواريخ ميلادنا متطابقة، نفس اليوم ونفس الشهر مع اختلاف السنة!

هي كانت تصغرني بعامين. ضحكنا سويًا من غرابة المصادفة. علامة أخرى تنضم للعلامات المحيرة التي تقربني من تلك الفتاة، وتستثير حيرتي وتساؤلاتي.

كانت تضم لصدرها باقة الورد الأبيض والأحمر، التي أتيت بها هذا الصباح وهي تعبر الطريق نحو الميدان مبتعدة وأنا أتابعها، وبي خدر ما ونشوة تهزني مع النسمات التي هبت ندية باردة، ظللت واقفًا في مكاني على رصيف المقهى أرقبها حتى تلاشت في زحام المدينة، التي تستقبل العام الجديد بشبورة ضباب صباحية. تساقطت بعض قطرات المطر الخفيف فتحسست ورقة الاسكتش المتوارية في جيب المعطف الطويل. مضيت في طريقي عائدًا لمنزلي، وتبقَّى لديَّ إحساس عجيب يراودني، وتساؤل واحد يسيطر عليَّ، هل هناك قدر مرسوم لما يحدث أم أنني أحلق في سماء من الخيالات؟

السكان المزيّفون

البيوت الساكنة تطل من هياكلها العتيقة كأنها في حضرة ماض مقدس صار لزاما عليه أن يصاحب الحاضر المشوَّه، وكأنهما في رحلةً إجبارية وزمن معقد، عليهما أن يقطعاه سويًا.

أطل من نافذتي على المقهى الصغير الكائن بناصية الشارع، على جداره الجانبي وتحت مصباح باهت الإضاءة تتراص كراسي متهالكة خشبية، لونها بني قاتم وكأنها في الانتظار.. هناك على الناصية ركية نار يبدو فيها احمرار الفحم متواريًا تحت بياض الرماد. من نوافذ المقهى الزجاجية ألمح رؤوس العجائز وهم يلعبون النرد ويقهقهون، وكأنهما يقامرون الزمن على ما تبقَّى من لحظات.

أسمع أنغام "أم كلثوم" تنبعث من راديو في المقهى، مازالت "أم كلثوم" تعيش بين هؤلاء، كأنها زمن لا يريدون فراقه، بل يستعيدونه كل يوم عندما

يأتي ميعاده عبر الأثير. تتخلل "أم كلثوم" المشهد، وينبع صوتها من قرارٍ بعيد قائلة "من كتر شوقي سبقت عمري... ".

الشارع يمتد في الليل بأضوائه القانية وظلال أشجاره كأنه ممر طويل نحو الخيال. أشتمُّ عبق المدينة في هواء الليل البارد، وأحن للطرقات في المساء.

يجتاحني شوقي نحو مدينتي فأضع عليَّ معطفي، وأهبط سلم العمارة الغارق في ظلام قديم، يشوبه خيط ضوء قان يتسلل من أحد الطوابق بأعلى... هذه العمارة تُذكِّرني بمنزل جدي القَديم، السلم كان يشبه هذا السلم، أبواب الشقق الخشبية العالية بشراعاتها الزجاجية المستطيلة بعضها يسرب ضوءًا وبعضها مظلم. الأبواب مهيبة الصوت عندما تفتح وعندما تغلق، وعندما تسك مزلاجها. الدرابزين مصنوع من حديد مشغول يرسم أشكالاً نباتية مقوسة، وينحرف مع كل دور في سلاسة، وتعلوه حافة من خشب ونحاس مصقول أملس من أثر مرور الأيدي عليه صعودًا ونزولاً. الدرج الرخامي الإيطالي منخفض في درجاته، يتقوس عند منتصفه من أثر وطء الأقدام. مدخلِ العمارة ذو الممر الطويل وصناديق البريد الخشبية القديمة تتراص في صفٍّ طويل على حائط المدخل ورائحة عبقة تلف المكان. رائحة الجدران القديمة وأخشاب الأسقف، والأبواب تسكن السلم والممرات لا تبارحها.

أمضي في الشارع متأملاً ضبابه الشتويّ الذي بدأ يهبط مع اقتراب منتصف الليل. أمضي صوب عمق المدينة التي أعرفها وتعرفني، المدينة

التي تفهم لغتي، وأمتطي أرصفتها، وتحتويني مقاهيها. المدينة التي قذفتني بعيدًا ابتلعتني حينًا، وأثقلتني وطيرتني.

وحدها تلك المدينة تصنعني وتصرعني بتناقضاتها. ولسبب ما كنت لا أفهم هل نحن حقيقة السكان الأصليون أبناء هذه الأركان، أم نحن مجرد زوار مارُّون على قارعة الطرقات خلال حقبة من الزمن؟!

أعود إلى الشوارع التي أختزنها دومًا في صندوق الذاكرة كعنوان لطفولتي ومراهقتي، وعربدتي وتمردي، وثقافتي وذكرياتي. قصر النيل يأخذني من شارع شريف، أما طلعت حرب فلازال باقيًا في ميدانه تدور حوله السيارات. أمضي دون هدف مخترقًا سكون ليل طويل في نفسي، أحاول أن أحييه بحركة وسط البلد التي تدورمن حولي.

أستعيد ريتم الحركة، دقات الإيقاع، أشياء كانت قد جفَّت في داخلي أحاول إعادتها للحياة. أعبر ضفاف نفسي من ضفة إلى أخرى وكأني أتجاوز نهرًا فرَق ما بين زمنين. كأن بي مَسًّا من الماضي ترتجف له أعماقي كلما مضى بي الزمن نحو القادم من أيام.

يظل ليل وسط البلد بخصوصيته مَـمْشًا يمتد للقادمين من أجل مساحة من الزمن مفهومة الملامح. تلك البنايات القديمة ترسم النسق الوحيد المفهوم الجذور، النسق المحفور في الواجهات، وشكل الشرفات، وبراويز النوافذ. وسط البلد عنوان قرن من الزمان وممر طويل في ذاكرة المدينة.

كم أنت حاضر أيها التاريخ مهما راودتك الأيام، تقذف بك بعيدًا في الماضي ولكنك تجاهد لتبقى حاضرًا. أمضي في الشوارع محفوفًا بطرز

العمارات الباقية من عصورٍ كانت فيها المدينة ذات أبهة ونسق.

تلك المباني لا تبارح بصمود عناوينها، يقسو عليها الحاضر، ولكنها تقاومه بأحجارها الصلدة لتبقى علامة فارقة في عمر هذه المدينة.

وسط المدينة ذو الأبهة والشموخ، مبانيه القديمة مازالت تحتل نواصيها وتعلو في ظلام المساء مهيبة وكأنك في حضرة زمانها الأصلي.. مباني العصر الكوزموبليتاني الذي جمع روادًا حفروا في ذاكرة الوطن تاريخ المائة عام. المباني المعروفة بأسمائها الشهيرة نجوم متلألئة جار عليها الزمان العنيد، فبقيت وحيدة غريبة تعاني إهمال الذاكرة التي أصابها خلل ما أعمى. تم امتهان الزمن الحضاري بيد المد التجاري فقفز السكان المزيفون محل السكان الأصليين، واحتلوا الأبنية، وشوَّهوا واجهاتها. النقوش ترسم على الواجهات علاماتٍ لها دلالات. العمارات معروفة بأسمائها وكأنَّ لكل منها خصوصية وبصمة مميزة.

هل كان عليَّ أن أشرح لأمي أو لأي أحدٍ آخر أنني لا أفهم عنابر المدن الجديدة المرقمة، ولا أفهم بلوكات الخرسانة القبيحة المكدسة في مدينة نصر أو المهندسين؟، كيف كان من الصعب أن أشرح بأنني لا أفهم سوى بنايات وسط البلد؟

لماذا لم يقرأ أحد هذه الشواهد التي بقيت لا تبارح مكانها كعلامات واضحة تشير لنا على الدوام بما فقدناه؟

جهينة يعود

كان على وسامته المعهودة ونظرته الطويلة المتأملة نحو شيءٍ ما في مكانٍ ما حوله، شاخصًا عينيه كأنه هو الوحيد الذي يراه. قامته الرشيقة ومشيته العجيبة، وكوفيته الملفوفة وقميصه الأبيض لاتخطؤهم عيني أبدًا، عندما رأيته ذاهبًا ليرتكن على سورٍ حديدي لساحة المسجد الجانبية. يقضم ساندويتش الحلاوة بالقشطة المفضل لديه فتسيل القشطة على جانب فمه، فيُخرج منديله القماش ويمسح فمه بأناقة وهو يحدق نحو امتداد الشارع الطويل الذي بدا غير مزدحم هذا الصباح.

ابتسمت بسعادة، ووقفت أتأمّله مليًا وأستعيد الذكريات القديمة، ثم تواريت و لم أشأ أن أظهر نفسي بعد، مازال كما هو لم تغيره السنوات التي مضت، لم تتغير هيأته، ولا عادته في الإفطار، ولا مِشيته العجيبة. وما إن انتهى من الأكل والتحديق في الشارع الطويل حتى قمت بالتقاط حجر

صغير، وألقيته نحوه فما كان منه إلا أن تلفت بهدوء، بينما تواريت أنا مستندًا بظهري خلف إحدى السيارات أضحك وأختلس النظر. عندما قرر أن يمضي في طريقه ألقيت عليه بحجرٍ آخر صغير، فتلفت وأطال النظر خلفه برزانته المعتادة واضعًا يديه في جيوبه، لم يفقد هدوءه بعد رغم ما مضى من سنوات، تعبيراته المتأملة ويداه في جيوبه، يطل برأسه على الأشياء وكأن ما قد يثير دهشته في تلك الدنيا قد تلاشى يومًا ما. نظر لأعلى لبرهة، ثم مال يمينًا قليلاً نحو صف السيارات، وأطال مليًا لكنه لم يرني في مكمني فهز كتفيه متعجبًا ومضى. مضيت خلفه مستمتعًا بمراقبته متنقلاً خلف السيارات الراكنة كطفلٍ وجد ضالته في مطاردةٍ ممتعة.

"جهينة" لا يثير فضول شخص، بل جيش من البشر إن راقبته عن كثب.

وصل إلى المقهى القديم، وعندما جلس وطلب الشاي كنت أنا على الجانب الآخر من الشارع مختبئًا بين سيارات ساحة الانتظار بالميدان، أفكر في شيء أثير به فضوله، وأخرجه من هدوئه هذا. عندما مرت أمامي فتاة صغيرة تبيع المناديل واتتني الفكرة التي كنت أبحث عنها فناديت الفتاة بصوت خافت، وأعطيتها جنيهين وأشرت نحوه وأنا أمليها عدة مرات ما عليها أن تقوله، وبعد أن حفظت الجملة جيدًا تركتها تعبر الطريق نحوه.

عرضت عليه المناديل في البداية فرفض، وعندها سردت عليه تلك الجملة التي لقنتها إياها. عندها قفز من فوق كرسيه واقفًا متلفتًا حوله بشغف وهو يبتسم ابتسامة عريضة، والفرح بادٍ على قسماته.

ها هو أخيرًا خرج عن هدوئه المعهود واندفع يتلفّت حوله بلهفة، وعندما مل من التلفُّت يمينًا ويسارًا حاول أن يجد الفتاة، ولكنها فرت على التو كما أخبرتها أن تفعل. توقعت أن يهدأ قليلاً ويجلس يترقب، ولكنه لم يفعل، وظل يتلفت حتى يئس، فتقدم نحو الشارع وزعق بصوته عاليًا:

- "اظهر يا مولانا".

ها هو يصفني بمولانا. ضحكت من قلبى على هذا اللقب، كم هو ذكي وظريف. خرجت له من خلف صف السيارات على الجانب الآخر وأنا أبتسم، فأتاني مهرولاً وهو يضحك مجلجلاً فاتحًا ذراعيه.

كان عناق "جهينة" لي حارًا أكثر مما تخيلت، وكانت مفاجأة لي أن ألقاه بعد تلك السنوات التي مرت كما هو يتسكّع في وسط البلد، و لم تتغير حركاته ولا هيأته، و لم أتخيل قط أنه قد يتذكر نكات وقفشات الزمن الجميل.

قال لي ونحن نحتسي الشاي على ناصية المقهى المعتاد –كما كنا نفعل– منذ بضع سنوات

- "يااااه.. لسة فاكر!!"

- "أنا قلت أنت مش هتفتكر".

- "إن لم تكن لي والزمان شرم برم، فلا خير فيك والزمان ترللي"!

قالها وهو يهز رأسه بسعادة كالبندول، ثم تابع كأنه يستعيد قرارًا بعيدًا:

- "هوا أنا أقدر أنسى؟.. أول ما البنت قالتها وأنا قلت هوا مفيش غيره".

ضحكنا وظللنا نتذكر اللازمة الطريفة لـ"نجيب الريحاني" التي كنت أنا وهو نتخذها كمثل نلوكه طيلة سنواتٍ مضت.

لم يسألني "جهينة" أي شيء، لم يسألني أين كنت، أو ماذا فعلت طيلة هذا الوقت الذي مضى؟ كان فقط سعيدًا وتحسسني كأنه لا يصدق أنه يراني، ومع الوقت بدأت استعادة خطوط الرجل الذي كنت أفتقده كثيرًا طيلة تلك السنوات.

"جهينة" لا يسأل، ولا يجتاحه أي نوع من أنواع الفضول، ولا يلح، ولا يطلب شيئًا إلا نادرًا، كانت له صفاته المميزة التي تميزه عن أيٍّ شخص آخر قد تقابله في حياتك. "جهينة" يفتح معك المساحات التي تفتحها، ويقفل معك الأبواب التي توصدها. كان دومًا به عمق بعيد وفي وجهه ابتسامة هادئة لا تنطفئ، أما عيناه السوداء فتختزن سرًا ما لا يعلمه إلا اللـه.

فريدة شمس الدين

كانت تبتسم بعينيها وكأن عينيها تتطلع للأشياء بحرية. تقول أشياء لا تتشابه فأصغي لها مستمتعًا كأنها تيار هواء متقلب يجرفني في السماء فأترك نفسي له كريشة ملّت الجاذبية، وجنحت صوب الأفق.

أهواؤها متقلبة تلك الأنثى وكأنها تقفز قفزاتٍ متباعدة الخطوات دون اتساق. كنت أشاهد الصورة مستمتعًا وكأني أشاهد رقصة عفوية ارتجالية مرحة.

تبدو في الحقيقة عندما قابلتها مختلفة عما عرفته عنها على الإنترنت. "فريدة" صادفتني في فضاء العالم الافتراضي حيث يتسكع الجميع.. في هذا الفضاء تبادلنا أحاديث دردشة متقطعة، يمتد بينها مقطوعات موسيقية وأغانٍ كانت ترسلها لي بين الحين والحين. كنت أترك موسيقاتها تعزف لتسليني في ليالي الغربة البعيدة. كان ذوقها في الموسيقى يستهويني بشدة،

وكانت معظم أحاديثنا تدور حول الفن والكتب، وفي الأحيان مقتطفات قصيرة من حياتنا اليومية.

كانت لا تسألني عن أي شيء متعلق بتفاصيل حياتي، وكان هذا شيء يجتذبني أكثر إليها. لم أعهد من قبل بامرأة قليلة الأسئلة أو غير مندفعة الفضول إلا فيما ندر. اجتذبتني "فريدة" بهدوء حواراتها فرأيت فيها فتاة من طرازٍ مختلف. كانت بالنسبة لي ركنًا هادئًا بعد ساعات العمل المرهق. ركنًا ناعمًا للارتكان أو وسادة ليلية مريحة.

أعود إلى شقتي، أطفئ الأنوار وأفتح اللاب توب، وأترك الموسيقى تعزف ونتحدث وأنا مستلقٍ على الأريكة في حالةٍ ما بين الصحو والنوم حديثًا هادئًا، فقط بضع كلماتٍ كل نصف ساعة نتراسل خلالها الموسيقى أو مقاطع الفيديو.

في البداية كان لا يبدو عليها أي اهتمام، وكان كلامها قليلاً ولكن بعد بضعة أسابيع حدث بيننا تقارب ما فزادت مساحة الأحاديث بالتدريج.

"فريدة" ظهرت في مرحلة ما كنت فيها غير مكترث بالنساء، ولا أعيرهنَّ كثيرًا من الاهتمام، ولكن بعد عدة أحاديث تسللت إليَّ "فريدة" بذكائها الفطري وموضوعاتها المختلفة فشعرت بميلٍ نحو استكشافها.

عندما كنت أشعر بالملل في دبي أو أية مدينة أوروبية أو أسيوية أذهب إليها في رحلة عمل، كنت دائمًا أخرج في المساء مرتديًا ملابس النوم: شورت وتي شيرت، ويدي في جيوبي متسكعًا بملل، متنقلاً بين أقسام الهايبر ماركت الضخم وثلاجاته الممتدة في صفوفٍ طويلة، ثم أنتقي من

المشروبات مشروبًا غريبًا قد يكون عصيرًا لإحدى فواكه الغابة، أو مشروب طاقة أو شيئًا من هذا القبيل. شرطي الوحيد أن لا أكون قد جربته من قبل، ثم أقطع المسافة إلى الفندق أو البيت سيرًا على الأقدام وأنا أحتسيه.

كنت أبحث عن شيء ما لا أعرفه لأجربه، وذات ليلة من هذه الليالي تعرفت على "فريدة" بموقع للفن التشكيلي فأعجبتني لوحاتها، وبدأنا التحدث. استهواني فيها موضوعاتها المختلفة وكلامها القليل، فتاة مختلفة بكل المقاييس.

أفتح اللاب توب بعد رحلة عمل شاقة فتظهر أمامي "فريدة"، وتبدأ بجملة فرنسية لا أفهمها، فأنا لا أعرف الفرنسية جيدًا وهي تعلم ذلك. أرد عليها بعلامة تعجب فترسل إليَّ عبارة أخرى بالفرنسية، ثم ضحكة طويلة.

أبتسم رغم أنني لا أفهم، هي تلعب كعادتها. تسألني إذا كنت أشرب البايب، فأقول لها "لا"، فترسل لي صورة لها وهي تضع قدمًا على قدم وفي فمها بايب من النوع الكبير، كانت قد رأته اليوم في محل للتبغ والهدايا فقررت أن تشتريه، لتحتفظ به.

لم تكن "فريدة" ترهقني بأية أسئلة أو تخوض معي في أية تفاصيل، كنا فقط نقفز من موضوع لآخر ببساطة فأمضي معها منساقًا فيما يشبه لعبة من خيال فنتازي. لعبةً تبعث على الاسترخاء، وتطلق الخيال نحو أرض أخرى ناعمة، بعيدًا عن أرضي الوعرة المرهقة بالعمل.

عندما عدت والتقيت "فريدة" شعرت باختلافٍ ما. العالم الافتراضي

يختلف عن الواقع بعض الشيء. تم إضافة بعض الرتوش لخطوط الصورة فبدت "فريدة" بعينين قويتين، تختلسان النظر لي كأنهما يتحسسان الطريق نحو شخصي.

ربما لم تكن "فريدة" مختلفة في الواقع، ولكنها أكثر سطوعًا وأوضح خطوطًا عما كان وجهها يبدو في خيالي. الخيال جامح دومًا، أما الحقيقة فمحددة الخطوط.

لقاؤنا الأول كان قصيرًا، ولكننا تحدثنا فيه كثيرًا على عكس عادتنا السابقة، ربما كنا نستكشف بعضنا عندما تحولنا إلى لحم ودم، بعد أن ظللنا شهورًا عبارة عن سطور تخرج على الشاشة وبعض صور وملفاتٍ للموسيقى.

الليلة أتت "فريدة" بقفزةٍ مفاجئة، وهاتفتني قائلة:

- "أنا لسة مخلصة ورشة رسم، واختنقت من الأشكال اللّي كنت شغالة معاهم، انزل يالاّ اعزمني على أيس كريم شكولاتة وفانيليا وفستق من عند قويدر.. متتأخرش لأني مش هينفع أروح متأخر النهاردة".

تسير وهي تتحدث فتشعر حينًا بأنها ستقفز لأعلى، وحينًا بأنها ستنحني لأسفل وأنا أسير إلى جوراها يداي في جيوبي، مصغيًا دون أن أتحدث، أعلق أحيانًا بكلماتٍ قليلة، وأترك لها المجال لتحكي عما حدث بالورشة، تلتهم الأيس كريم بنهم، وتبتسم بجانب شفتيها عندما أقول شيئًا مضحكًا، ثم تطالعني بجانب عينيها بلمحاتٍ ذكية.

تقفز بين الموضوعات الواحد تلو الآخر، وتحتار وتضحك في نفس

الوقت، تدندن بكلمات أغنية ثم تقطعها بسؤال، وقبل أن أجيب تعاود الغناء فلا أفهم هل هي تريد إجابة؟ أم أنها فقط تتحرك في محيطها الواسع؟

قطعنا الزحام الليلي حتى وصلنا ميدان طلعت حرب. قفزت "فريدة" في التاكسي في لمحة وكأن لديها قدرة العطر على التطاير. جلست أنا على الحاجز المعدني أرقب الميدان الدائري، المتداخل الاتجاهات بأضوائه وسياراته المتدافعة في مساراتٍ متعرجة دون أن أفهم له سياقًا.

لو سألتني الليلة عن اسم لهذا الميدان الذي تصب فيه شوارع عدة، وتتفرق فيه الاتجاهات لسميته ميدان "فريدة".

شباك قديم

عادة لا تُحصى الأيام عندما تكون مُحمَّلة بتفاصيلها فتتوه فيها كأنك تسبح في بحرٍ متلاطم الأمواج، ولا ترى شاطئًا معروف الملامح.

الغربة تصنع من الأيام تشابهًا مكررًا، ومع الوقت يصنع التشابه فراغه.

الفراغ حالة دفينة تتوغل في نفسك، عندما تخفت ارتباطاتك بالأشياء، عندما تكبر المسافات بينك وبين الأحاسيس التي تتولد كل يوم فتخفت معدلات الحركة داخلك، وتبدأ الأصوات بداخلك ترن وحدها في صدى بعيد.

ها أنا أعود من فراغ الغربة المرير أحاول أن أستعيد خطوط وملامح الأشياء التي كنت أعرفها من قبل، وأحاول فهم شكلها الجديد، أحاول أن

أعيد ملء الفراغات داخل جدار الوجدان المثقوب في جوفه، كان لابد من زخم يأتي طبيعيًا وأصيلاً دون افتعال ودون منطق مرسوم، لابد من خلق عالم يعرفني وحده مجتازًا تحليلات ذهني المجهدة التي لم تكن تستكين، تلكَ التحليلات التي تطغى عليَّ كلما مضيت في تأمل الواقع الجديد من حولي. لا أبتغي أية تحليلات الآن، فكفاني إجهادًا أنا في غنى عنه، أنا فقط أريد التنفس وليأتِ الضوء وحده. أريد أن أرى دون أن أعلق فتتشكل الأشياء دون أسباب. أريد أن أُحلِّق كريشة في الهواء دون عناء، ولتصنع بي الريح رحلتها. أريد أن أصير كرة خفيفة مملوءة بالهواء ليحملني الماء فأطفو بخفة متأرجحًا أدور حول محيطي بلا ثقل ليعيد التيار لي قانون طبيعتي البسيط.

تيار الهواء أتى من ضلفتي الشباك باردًا عندما فتحتهما، فارتعش جسدي من البرد.

هتف "حاتم":

- " اقفل الشباك، هتجبلنا برد يا عبيط انت!"

تجاهلته وتركت الهواء يتسلل للمكان متلصصًا. فتح صندوقًا، وأحضر رصة من الكتب وجلس عليها ثم قال:

- "موش ناوي تجيب عفش يا أخينا؟ ولا أنت عاجبك الفراغ اللِّي أنت فيه ده؟"

قلت مُتهكِّمًا وأنا أميل مطالعًا عناوين الكتب التي جلس عليها:

- "وأجيب عفش ليه؟... بقى بذمتك فيه كرسي في الدنيا هيبقى

بقيمة وعراقة "أنطوان تشيكوف" اللي أنت قاعد عليه دلوقتي؟"

- "الصراحه لأ.."

- "شفت بقى؟..."

بعد لحظات صمت، قال وهو يبتسم:

- "عملت إيه مع اسمها إيه دي؟"

- "قصدك "فريدة"؟....الحقيقة مش عارف.. يوم تتصل تلات مرات ويوم تختفى.. غريبة وغامضة".

فما كان من "حاتم" إلا أن قام يتمشى في الشقة وهو يمصمص شفتيه ويقول:

- "والله ما في حد غامض زيك.. وبعدين تشيكوف بتاعك ده مش مريح خالص.. ناشف كده.. متبقاش تشتري الهارد كوفر!"

صمت لفترة ثم تابع:

- "جو قالي إنكم اتقابلتوا، وقالي إنه جاي النهاردة.. هوَّ ماكلمكش؟"

فهززت رأسي نافيًا، ثم تذكرت الهاتف فأمسكته وارتكنت بظهري على الحائط، وأخذت أحاول عبثًا الاتصال بأمي ولكنها كالعادة لا ترد. مازالت أمي لا تجيب على الهاتف، ورنات الهاتف تتوالى على أذني من السماعة كأنها تصدر من زمن آخر يتشابه عليَّ.

قلت وأنا أتململ:

- "فريدة ما اتصلتش و"جو" مختفي.. وأمي بقالي أسبوع مش عارف أوصلها".

قهقه "حاتم" حتى رن صوته في المكان، ثم مضى يطالع أبواب الغرف الواحد تلو الآخر قبل أن يقول متعجبًا:

- "هما الناس بتوع زمان دول كانوا إيه؟.. سداح مداح؟ .. أوض النوم أبوابها نصها زجاج؟ طب واللِّي يغير هدومه جوا الناس تشوفه؟.. هوّ صحيح مصنفر بس برضه بيبين شوية!.. والسقف ليه عالي.. والحوض ده في الطرقة كده؟!! ليه مش في الحمام؟ والشبابيك دي لونها بني من الزمن ولا ده لون الدهان؟.. بص، أنت ناقصك كام شمعدان مصدى على نجفه متربة، وصالون من الكهنة بتوع محلات "هدى شعرواى"، وتمثال روماني نحاس يكون عريان، وصورة ببرواز كبير لجدك عظمهم باشا.. ولا أنت صحيح مالكش جد باشا .. خلاص أجيبلك صورة جدي مش خسارة فيك .. أهو يونسك برضه!!"

أخرج سيجارتين ألقى واحدة لي، وأشعل الأخرى وواصل كلامه:

- "من قمة التكنولوجيا وناطحات السحاب لشقة قديمة في القاهرة الخديوية؟.. والله ما أنا فاهم إيه رجعك البلد دي؟.. دا أنا نفسي أهج!"

اقترب وجلس إلى جوراي، وأراح ظهره للحائط مثلي وقال:

- "بس كويس .. والله ليك وحشة".

ابتسمت له فمضى يصفر بفمه قبل أن يدندن مغنيًا أغنيتنا الأثيرة لـ"سيد درويش" باللكنة الخواجاتي، فمضيت أغني معه:

"سيبتوا الخمارة.. سكنتوا في خارة.. مفيش ولا واخد بارة.. علشان نروخ كلنا نسوف ونيجي منفوخ.. إيه إيه.. أمان أمان .. فين المصر بتاع زمان.. والمدام فامولاكيبي.. والله يا خرلمبو كانت أيام..."

أغلق الهواء ضلفتيّ الشباك فجأة فأحدث صوتًا رن في المكان، فقطع غناءنا قبل أن أقول:

- "شفت فيه إثارة أهو بس لسة جاية في السكة.."

ضحكنا وسرحت أنظر نحو النافذة، وأرتقب وأنا أردد كالصدى:

- "والله يا خرلمبو كانت أيام... آآه!!"

ثم أطلقت زفرة طويلة.

ترتيب البيت

لكل فكرة شكوى، أحيانًا معترضة وأحيانًا منبثقة.

ترتيب البيت من الداخل يشبه رسم "شمس" بقلم طفل يتعلم الرسم، دائرة وبعض خطوط الضوء حولها. ترتيب البيت من الداخل أيضًا يشبه فك طلاسم خريطة الجينات. لكل حقيقة عدة أبعاد ووجوه لن تستطيع أن تراها إلا إذا دارت حول نفسها أو تقلبت بأحداثها.

الإنسان تصنعه حقيقة ما، وللحقيقة أبعاد نسبية ووجوه مختلفة فما يُرى من هذا الجانب يُحتمل أن يكون له أيضًا جانب آخر في الجهة المقابلة.

أما أنا فكل جوانبي كانت تدور أمامي ولكنها ومضات ومضات، فكأني أراها ولكنها لا تثبت أمامي بل تظل على الدوام لمحة ثم لمحة. كأني أعرف جانبي الداخلي المظلم كما أعرف وجهي ذا اللحية النابتة في المرآة.

إعادة ترتيب هذا البيت من الداخل ليست صعبة بل هي فراغات صنعتها لأعيد ملأها. زحزحة للجدران لخلق مساحات رحبة استعدادًا لما هو آت، وأنا على يقين بأن الآتي زخم كثيف. ترتيب البيت يحتاج هدمًا لبعض الثوابت حتى تنفتح نوافذ ضوء ومساقط هواء متجدد. ترتيب البيت من الداخل لم يكن لي محوًا للذاكرة، بل كان إعادة تجميع ما فات وتحويله لأساس يتحمّل بناءً شاهقًا.

أعيد بناء نفسي من الداخل، أنا الغريب وأنا المسافر، وأنا العائد وأنا المستمر مع نفسي حتى النهاية.

أنا العائد بحقيبة اللاب توب وأجهزة التكنولوجيا، وملابس ذات ماركات أوروبية وعطر إيطالي، وكتب الأدب الأمريكي الحديث، وأنا أيضًا المولود هنا نتاج الأرض وقرآن راديو الصباح، وعبق أبي الحميمي في الجلباب وكستور أمي الدافئ الملمس في الشتاء.

أنا البعيد وأنا القريب، أنا المتمرد على الوطن، أنا المقدس له. أنا المنفك من قيود الجذور، أنا المرابط تحت ظله. أنا المظلوم في الوطن لأنه لم يكن فيه شيء ملكي، وأنا الظالم لهذا الوطن بهروبي وصمتي.

أنا صنعت ما مضيت فيه وذهبت إليه، وأنا ملح الأرض التي صنعتني، أنا الاثنان شئت أم أبيت.

رآني أبي أرحل فبكى، ورآني أعود فبكى. أبي الذي مات قبل أن يراني أرحل أو أعود لازلت أشعر به كلما بكى، وكلما شرد، وكلما سألته ولم يجب.

الإنسان تصنعه حقيقته وعليه أن يجدها، عليه أن يتذكّر أنها تصنعه عندما يصنعها، عليه أن يتذكّر أنها تكمن فيه وتظهر حوله. يفتش عنها في رحلته، في الدروب الطويلة، ويبحث عنها في ذاته اللانهائية.

ترتيب البيت من الداخل خطوات مدروسة، كل ركن لابد أن يحتوي على متعلقاته، كل ركن لابد أن يمتلئ بالتدريج، تدرج من الفراغ إلى الأساسيات ثم يتم الإدراج.

اشتريت سريرًا ودولابًا ومكتبة لرص الكتب المبعثرة، كل بضعة أيام أشترى شيئًا مع الحرص أن تبقى المساحات متسعة، فقط الأساسيات ثم قدر قليل من الرتوش حتى يبقى المكان رحبًا.

قطعتا مطبخ من أمي، وكرسيان بامبو ومنضدة إهداء من "حاتم"، وسبرتاية وكنكة وأكواب أحضرها "جهينة" ذات مساء.

ستلا الحرية

تمددت على قطعة الكليم المفروشة على الأرض، وغفوت لبعض الوقت. حلمت بأني أطالع نفسي، جالسًا على كرسٍ خشبي من كراسي المقاهي القديمة على شاطئ البحر في لحظات الغروب القرمزية، كنت أرى نفسي من الخلف وكأني شخص آخر أو كاميرا تراقب. كنت آراني وحدي على الشاطئ ولا أحد غيري، فاقتربت مني حتى صرت أقف بجواري ولكنيِّ أيضًا كنت أشعر بنفسى وأنا جالس. كنت مُشبكًا ذراعيَّ أمام صدري، مرتديًا كنزة شتوية من التريكو حمراء داكنة، وسروالاً قطيفة رماديًا داكنًا أطول من ساقي يغطي قدمي حتى الأصابع.

كانت ملابسي مبللة وكأني خرجت لتوي من البحر، والكنزة مثقلة بالماء وأنا أرتعد من البلل والبرد، وتغيب الشمس القرمزية وتزوي في الأفق البعيد.

أفقت على صوت الهاتف يرن رنينًا متواصلاً فتحسست طريقي في الظلام متلهفًا، فربما تكون أمي قد قررت أخيرًا أن تتصل بي، ولكنه كان "جهينة" على الطرف الآخر يقول وهو يلوك شيئًا في فمه كالعادة:

– "السهرة في الحرية.. مستنيك".

– "هي الساعة كام دلوقتي؟"

– "عشرة وربع".

– "حداشر كده".

في الحادية عشرة بالضبط كان جسدي يرتجف ارتجافات خفيفة من أثر برودة الهواء القارصة، وكانت يداي في جيوبي، ماضيًا في اتجاه الميدان. ناداني "جهينة"، عندما لمحني اقترب من المقهى وقد كان يتحدث مع رجل في كشك السجائر القائم على الناصية، فقد كانت تجمعهما صداقة منذ سنواتٍ طوال. طالعني وهو يبتسم قائلاً:

– "جاكيت حلو".

فأجبت باقتضاب

– "بردان!"

مضينا نحو الحرية، والطرقات بدأت تفقد مرتاديها رويدًا مع جنوح ليل القاهرة نحو منتصفه. قصصت على "جهينة" الحلم باقتضاب، فهَمَّ أن يقول شيئًا معلقًا على ما قلته، ولكننا كنا قد وصلنا بالفعل لمدخل المقهى. أطللت برأسي في المقهى فهبّ من الداخل دخان السجائر ورائحة البيرة، وضجيج الرواد المتكدسين في ساحة المقهى الكبير.

لم يتغير المكان فلا يزال كما كان منذ سنوات بجوه العتيق وجدرانه الباهتة، وموائده الرخامية القديمة.

عودة إلى الحرية بعد خمس سنوات من الغياب. ما كلُّ هذا الزحام! المقهى يعجُّ بالرواد فلا موضع لقدم في الداخل، لم أرَ مقهى الحرية بهذا الازدحام من قبل!!

ذكرياتي مع الحريةِ ترجع لسنوات المراهقة وقت أن كنت متمردًا من طرازٍ عنيد، محبًا للتسكع في الأماكن التي تتيح لي مساحة ما من التحرر. أيامًا وليالي طويلة قضيتها على هذا المقهى. أشخاص غريبة وفريدة صادقتها بين جنباته وحول طاولاته. أول فتاة اقتربت مني وطلبت التعرف، وكسرت حاجز الخوف من الجنس الآخر كان هنا على الطاولة التي على يمين الباب، كانت أول نصيبي من الفتيات المتحررات، الباحثات عن مأوى وتمويل. أول شاب أجنبيٍ أصادقه كان على هذا المقهى. مقهى الحرية كان لي ساحة من الحرية وعالمًا غريبًا قادرًا على احتواء أي قدر من الاختلاف كان يظهر عليَّ أو يعتريني.

أول مرة رأيت "جهينة" كان على هذا المقهى، وأمضينا عدة أيام يطالع كلٌّ منا الآخر حتى تطورت الأمور بيننا بغرابة، وصرنا صديقين من هذا الحين. لكن مع مرور الوقت كنا قد تركنا الحرية، وانتقلنا إلى مقاهي أخرى. لماذا أتى بي "جهينة" هنا هذه الليلة؟ يبدو أنه كان يريد أن يسترجع معي ذكرياتٍ بعيدة.

نقّب "جهينة" عن مقعدين فانتهينا عند الركن، واندسسنا بين

مجموعات الأجانب وكأننا اثنان من الغرباء. غالبية الرؤوس حولنا شقراء وبنية الشعر، والوجوه بيضاء مصابة ببعض الحُمرة من جراء البرد.

لم يكن ليحتوي المكان قديمًا على كل هذا القدر من الأجانب. المقهى الآن مكتظ بهم وبالمصريين وبعض النوبيين متفرقون في الخضم كقلائل ضائعة.

ما إن جلسنا حتى انفتحت زجاجات البيرة أمامنا فهززت رأسي نافيًا. أشار "جهينة" للنادل أن يذهب بالبيرة، ويأتي بفنجانين من القهوة ثم أشعلنا سيجارتين من نفس عود الثقاب الذي أشعله، ودسسنا أيدينا في جيوبنا، وظللنا نرقب المكان والناس من حولنا.

قلت متعجبًا وأنا أطالع علبة الكبريت التي كان يدسها ببطء في جيب قميصه:

– "تصدق أن أنت تقريبًا الشخص الوحيد اللّي لسة بيستخدم الكبريت".

لم يعلق وفكرت في تفاصيله لبرهة، مازال يحتفظ بنفسه كما هو و لم يتغير قط.

تركته لحين ومضيت في الزحام بعيني مفكرًا. ما بين هؤلاء وهؤلاء لا أحد ينتمي سوى لنفسه ولزجاجة البيرة، وسهرة قاهرية لها طعم شعير محليّ الصنع، سهرة غرباء حول طاولات قديمة وجدران باهتة اللون وسقف عالٍ له امتداده المختلف. هكذا هي الحرية عالم متسع يندمج فيه الكل دون سببٍ. رؤوس مختلفة الألوان والأشكال، ولغات متعددة وكأنك في صالة ترانزيت بمطار للغرباء.

كوزموبليتان كبير متعدد الاتجاهات ومختلف الثقافات استقر في ساحة مقهى بوسط البلد كنقطة التقاء ما بين القادمين من الشمال للدراسة، والمارين في رحلات سياحية، والمقيمين بصفة دائمة يحيط بهم من هنا ومن هناك بعض المصريين المنتمين لعالم وسطً البلد، أو المنتمين لعالمهم بمعنى أدق.

كان أول أجنبي صادقته هنا على الحرية يُدعى "يوخان" ألماني وشعره طويل مجدول كشعر "بوب مارلي". لم يغسله أو يقصه أو يُصفِّفه قط طيلة سنوات شبابه وعبثه البوهيمي. يرتدي ثيابًا فضفاضة مُتسّخة ونعلاً فرعونيًا. يحمل حقيبته ويدور على مقاهي القاهرة والأقاليم، ويقصد الموالد وحلقات الدراويش والطرق الصوفية، ولا يفعل شيئًا آخر سوى أنه يرسم بقلم رصاص قصير، ويدون مذكراته في دفترٍ مهترئ. كنت أدفع له ثمن الشاي، ويقترض مني السجائر الكليوباترا طيلة الوقت. لكني كنت سعيدًا بمصادقته فقد كان تجربة حياة متنقلة وشخصًا مختلفًا عن كل من عرفتهم. مليئًا بالقصص والحكايات والشعر. يتحدث العربية أحيانًا بركاكة، وفي منتصف الحديث قد يغمض عينيه ولا يجيب، ويظل في شبه إغماءة قد تمتد لنصف الساعة أحيانًا أو أقل. على الرغم من أنه كان عربيدًا مُتسكعًا من الطراز الأول ورأسه مليئة بخرافات وقوى خفية لكنه كان على دراية تامة بتاريخ المدينة وبأزقّتها وحواريها القديمة أكثر من أيِّ شخص عرفته يسكن المدينة. استفدت منه معلومات كثيرة عن عالم المريدين والصوفيين، وساكني الأضرحة والمشعوذين، كما رافقته في بعض رحلاته بالموالد وفي تسكّعاته بأزقّة القاهرة القديمة. كان عِربيدًا متجولاً

دون هدى، وكنت أنا أيضًا في سنوات المراهقة متسكعًا مثله تمامًا أجوب الطرقات. من هنا، توطدت علاقتنا وفي يوم من الأيام اختفى وانقطع عن المقهى وعن وسط البلد، و لم أعثر له على أثر.

ظهرت ذات يوم إشاعة في المقاهي تقول بأنه انتحر في غرفته بأحد بنسيونات وسط البلد الرخيصة، بعد أن رسم على الجدران رموزًا غريبة وطلاسم، ولكني لم أكن لأصدق هذا فعادةً الأشخاص الغامضين تُثار حولهم الأقاويل، ويرسم الناس حولهم (أقاصيص) غامضة إذا اختفوا فجأة، حتى اسم البنسيون لم يستدل عليه.

انتبهت على هزة من "جهينة" وهو يقول:

- "كمل".

فقلت وكأني أفيق من حلم:

- "أكمل إيه؟"

- "الحلم".

- "مفيش تكمله.. هوّ كده بس".

سرحت مجددًا لبعض الوقت أتأمل الجالسين حول الطاولات الرخامية القديمة، تحوطهم مرايا باهتة أو مكسورة، ونوافذ طولية بعضها مغطى بالزجاج، وبعضها مسدود حتى المنتصف بألواح خشبية. يتشاركون أحاديث متداخلة ولغاتٍ شتى، ولكنهم في النهاية يعرفون لغة وحيدة. البيرة هي اللغة التي يتحدثها الجميع هنا، وأنا و"جهينة" نحتسى القهوة فهمست له:

- "تفتكر لو فكروا يوم يجددوا المكان ويدهنوه، ويركبوا قزاز للشبابيك.. الناس دي كلها هتفضل تيجي؟"

فطالع السقف والحوائط بتمعنٍ، ثم هز رأسه بهدوء نافيًا. فقلت وأنا أسترسل متأملاً المكان:

- "هما بيحبوه كده .. أنتيكة.. أنا عرفت مرة زمان أنه ملك أكتر من خمسين وريثًا".

- "لو اتباع كل واحد فيهم هيطلع بشوية فكة...."

- "باقي على حاله زيه زي وسط البلد.. واقفة في النص لا هي جاية كده ولا رايحة كده".

ضحك "جهينه"، وبعد لحظات صمتٍ نظر في الفراغ أمامه، وعلّق:

- "لسة زي ما انت ماتغيرتش".

تساءلت وأنا أحدق فيه متعجبًا:

- "إزاي؟"

فقال وهو يجوب المكان بعينيه:

- "عندك دايمًا تعليق في الخلفية.. زى صوت الراوي في الأفلام".

لم يصب المكان أيُّ تغييرٍ يُذكر سوى تلك الثلاجات الطولية التي تم إضافتها في المدخل، أما الحوائط والمقاعد والجناح الداخلي لم يطرأ عليهم أي تغيير أو تجديد. هناك على الطرف الأقصى من المقهى مازالت طاولات الشطرنج مرصوصة وحولها بعض الأشخاص غارقون في اللعب.

أشرت نحو طاولات الشطرنج هناك وأنا أهز بأصبعي، وأوشك أن أقول شيئًا، ولكن كل الذكريات داهمتني مُتجمِّعة فلم أقل شيئًا. قطع "جهينة" الصمت وكأنه يحاول أن يستشفَّ ما في رأسي من كلمات فقال:

- "فاكر أول مرة اتعرفنا؟"

ابتسمت ابتسامة واسعة، ثم مالبثت أن ضحكت ضحكة طويلة وخبطت بكفي على الطاولة فأصدرت صوتًا، فتلفت الجالسون حولنا نحوي يطالعوني وأنا مندمج في ضحكتي الطويلة.

أشرت بيدي في الهواء دلالة على التعجب، ثم مالبثت أن عدت إلى صمتي. يطالعني "جهينة" ووجهه به نصف ابتسامة ونصف تعجب.

مرر يده على شعره الناعم ليساويه، ثم قال:

- "إيه؟ ضحَّكتك قوي؟"

نظرت في عينيه لوهلة قبل أن أعاود النظر نحو طاولات الشطرنج، ثم قلت:

- "أصلي أول مرة أفكر في القصة دي.. تصدق أنا عمري ما افتكرتها إلا دلوقتي؟.. تصدق أنا فاكر أني ساعتها ما سألتكش حتى أنت اسمك إيه؟، ولا حتى بتشتغل إيه؟.. بس أنت كنت صاحب "حاتم".. صح؟"

فهز رأسه نافيًا فأصابتني الحيرة، وقلت:

- "إزاي؟ دا أنت وهو كنتم دايمًا بتتودودوا".

فضحك "جهينة" ثم قال:

- "ما هوّ أصله سر.. أنا أعرفه بعد ما عرفتك.. بس وطدنا العلاقة بسرعة".

أظهرت التعجب على وجهي فصمت لبعض الوقت، ثم مالبث أن ابتسم قائلاً:

- "أصل احنا كنا بنسهر سوا.. أنا أول مرة عرفته اديته قرش ومن يومها بقينا صحاب".

هتفت:

- "ياولاد الـ...."

فقال "جهينة" مقاطعًا وهو يرسم علي وجهه ابتسامته الواثقة:

- "ما لروما لروما، وما لقيصر لقيصر.. مزعل نفسك ليه.. أنت مبتشربش.. احنا بنشرب".

تذكرت فجأة أني تركت "حاتم" في البيت عندي نائمًا، فأخرجت هاتفي وطلبته. أخبرته أني مع "جهينة" ننتظره على مقهى الحرية.

أول تعارف بيني وبين "جهينة" كان صامتًا. كنت قد اعتدت رؤيته بالحرية وبعض مقاهي وسط البلد، وفي ذات يوم كنت أجلس وأمامي الشطرنج مرصوص في انتظار دور جديد. كنت سارحًا في انتظار "تهامي" الذي لم يظهر يومها. مرخيًا رأسي على ذراعي أحملق في رقعة الشطرنج وما عليها من قطع بيضاء وسوداء حتى قطعت أصابع شخص ما السكون، وحركت إحدى القطع من الجهة المقابلة فرفعت بصري لأعلى فإذا به "جهينة" قرر أن يلاعبني. حركت أنا بدوري إحدى قطعي فرد

عليَّ بلعبة، ودخلنا في غمار مباراة صعبة ومعقدة فقد كان "جهينة" لاعب شطرنج من طرازٍ محترف. هزمني بعد مباراةٍ استمرت ساعة ونصف لم نتبادل فيها الكلام. لعبنا كخصمين متمرسين منغمسين، ولا مجال لديهم لأحاديث عابرة. عندما أتذكر ما حدث أبتسم وأتساءل: لماذا لم نتحدث يومها أو نتبادل أية كلمات؟

سألته وأنا أفكر:

– "فاكر أول دور شطرنج لعبناه؟.. هو احنا ليه يومها متكلمناش؟"

– "أنت نسيت؟"

ففتشت في رأسى حائرًا، أحاول التذكر ولكن كل شيء تداخل، فلم أتذكر تحديدًا أسباب الصمت فقلت له:

– "نسيت إيه؟.. أنا مش فاكر".

– "مش أنت كنت فاكرني أخرس علشان كنت دايمًا بستخدم لغة الإشارة مع الواد "حسني" بتاع القهوة لمَّا آجي أطلب حاجة؟"

ضحكت وأنا أغوص في الذكريات. نعم كان "جهينة" دائمًا يشير بيده عندما كان يطلب شيئًا، كانت لعبة يمارسها طوال الوقت مع كل الناس، كان يشير لسائق التاكسي، وفتى المقهى، ونادل المطعم، وبائع السجائر. أضحكنى "جهينة" عندما طفقت أتذكر ما كان يحدث في هذه الأيام من أحداث طريفة، فقلت معقبًا:

– "منك لله أنت اللي علمتني حكاية الإشارات دي لما بقيت شبه أخرس أنا كمان!"

ضحك "جهينة" حتى اهتز شعر رأسه، وخبط كفًا بكف.

داهمنا "حاتم" ونحن نضحك و لم تكن آثار النوم قد فارقت عينيه بعد، فبدا شبه نائم. توقف أمامنا وأخذ يطالعنا ونحن نضحك، ثم مالبث أن عدل على أنفه نظارته وهو يقول:

– "يااااا مساء الفرفشة.. طب ضحكوني معاكوا".

نظرت له أنا و"جهينة" ولم نرد، ثم أشرنا ببعض الإشارات بأصابعنا في حديث مُختلق لا يعني أي شيء على الإطلاق. أشير له بأصابعي في حركات لولبية ثم لأعلى وأسفل، فيرسم علامة اندهاش على وجهه ثم مالبث أن يرد عليّ بإشارةٍ ما فأستنكر، وهكذا حتى جُنَّ جنون "حاتم" فزعق بصوتٍ عالٍ:

– " أه ياولاد المجنونة... مصحيني من النوم ومنزليني نص الليل في البرد.. وقالبة معاكوا بخرس زي أيام العتة بتاعت زمان.. بس أنا الحق عليَّ.. في حد يصاحب أغرب كائنين على كوكب الأرض؟..... أيوه اتراسلوا بالموجات الكهرومغناطسية يا كائنات بلوتو!"

ضحكت أنا و"جهينة" أما "حاتم"، فاستدار نحو صحن المقهى وزعق بصوتٍ عالٍ:

– "واحدة ستلا ساقعة يابني بسرعة".

تلفت حوله فلم يجد كرسيًا فأزاح فناجنين القهوة، وجلس على الطاولة التي بيننا. ناوله النادل زجاجة بيرة فرفعها على فمه، وأخذ جرعة كبيرة قبل أن يتلفت يمينًا نحوي ويسارًا نحو "جهينة"، ثم رفع الزجاجة

في الهواء أمامه، ونظر لها وهو يقول:

- "إيه قطعت عنكم الإرسال؟.. شكلوكم هتهبلوني زي ما عملتوا في الدكتور شفيق".

انفجرت ضاحكًا، وسمعت "جهينة" على الطرف الآخر يضحك هو الآخر بشدة. أصابتنا نوبة ضحك استمرت لدقائق. أستعيد صورة الدكتور "شفيق" فأفقد السيطرة على نفسي، وأستمر في الضحك. قطع "جهينة" الضحك، وسمعته يحدثني ببعض الكلمات الألمانية:

- "إيش نايجين أوخت ران".

فرددت على التو:

- "نيييييي .. شاينين فاخت".

انضم "حاتم" لنا، وضحك هو الآخر ثم قال:

- "أم الألماني المضروب ده.. الراجل صدقكم ياعيني لحد ما موتوه!"

فقال "جهينة":

- "لأ وساعات كنا بنتكلم روسي كمان!"

فرددت عليه موافقًا:

- "خروشوا".

كان الدكتور "شفيق" رجلاً فضوليًا ثرثارًا، يحب التطفّل وإصغاء السمع لحواراتنا. كان شخصية عجيبة، رجل بالمعاش يرتدي معطفًا طويلاً وقبعة ونظارة سميكة، وتشعر كلما رأيته بأنه رجل مخابرات من

حقبة الحرب الباردة. فضوله وتجسسه علينا كان يؤرقنا، حتى ذات مساء وأنا غارق في الحديث مع "جهينة" شعرت بأن أذن الدكتور "شفيق" تكاد تبتلع كل ما يصدر عنا من أحاديث. واتتني فكرة وبينما كنا في منتصف الحديث ودون أية مقدمات طفقت أنطق بكلمات سريعة عشوائية على نفس وزن اللغة الألمانية وكأني أنفث غضبًا مكتومًا، فما كان من "جهينة" إلا أن رد عليَّ بنفس الصيغة اللغوية الهزلية التي تشبه في أصوات مخارجها الألمانية. اندمجنا نمثل وكأننا نتحدث في موضوع هام، ونرسم تعبيرات على وجوهنا متنوعة. حملق فينا الرجل بذهول فلم يفهم ماذا يحدث، وتراجع بكرسيه للخلف، وبدا كأن شيئًا ما صعقه.

مارسنا معه اللعبة كلما هبط علينا في المقهى. نتحدث حديثًا عابرًا بالعربية، ثم فجأة ننقلب متحدثين الألمانية العشوائية، ثم فجأة ننقلب للعربية دون أية مقدمات، فأيقن الرجل أنه مصاب بتهيؤات ما وكأن أصابع خفية كانت تبدل محطات راديو كان ينصت له بتركيز. سألنا فجأة بعد أن تمكن منه الفضول:

- "ألماني؟"

فأومأنا برؤوسنا دلالة على الإيجاب. لم يدم الأمر طويلاً، فبعد أن أعتاد تخاريفنا الألمانية التي كانت على وزن "ين.. إِخت.. أيش" قمنا بتغيير اللغة، واستخدمنا الروسية حتى أن الرجل أصابته حيرة شديدة، وتوجس منا ريبة، وصرنا بالنسبة له لغزًا عجيبًا. فتبدل الأمر وكلما رآنا ندلف ابتعد عنا بكرسيه منهمكًا في قهوته أو جريدته، وطبقًا لتحليلاته المخابراتية وتهيؤاته أشاع في المقهى بأننا جواسيس، فكنا نمارس حركات

وإشارات مريبة بالاتفاق مع رواد المقهى لنؤكد له نظريته.

- "ها ضحكتكم أهو.. يالّا نطلع نلف بقى زي زمان، علشان أنا مش عاوز أقعد هنا".

قالها "حاتم" وهو يقفز في الهواء ليقف على قدميه. نظر لي "جهينة" نظرة استفسار، فقلت له:

- "خروشواااااا".

تلفتت نحونا فتاتان شقراونان فمال عليَّ "جهينة"، وهمس وهو يشير بعينيه للفتاتين:

- "الروسي بتاعك لسة كويس؟"

فضحكت قائلاً:

- "لأ دول شكلهم روسي أصلي من بتاع موسكو مش مضروب.. اقلب إشارات بسرعة".

أشرنا للفتاتين بإشارات الوداع فابتسمتا، وخرجنا لهواء المدينة الشتوي القارص البرودة نضحك.

ما بين عالم المقاهى الصاخب المزدحم وعالم الشارع الخاوي البارد، عالمان مختلفان يفصلهما باب من أربع ضلفات مفتوحة على الدوام.

ضحكات ممر بهلر

الضحك أحيانًا يصنع نفسه من تلقاء ذاته.

في ممر "بهلر" الطويل الهادئ كنا نسير نحن الثلاثة نرسم خيالاً طويلاً على الأرض أمامنا. ترسم قباب الممر المزخرفة فوقنا فضاءً أرستقراطيًا أنيقًا. أضواء البواكي الخافتة هالة من الخيال حولنا فيها نمضي. نتلفّع بالكوفيات من لسعات الهواء وأيدينا مخبأة في طيات الثياب. نوزع السجائر بيننا بين الحين والآخر. أردت أن أمشي من هذا الممر الذى كان لي معه عهد وله معي ذكريات تسكّع ليلية. كنت أنا والرفاق نتبادل أحاديث قصيرة عن أشياء حدثت خلال الفترة التي غبت فيها حتى قال "جهينة":

– "خدودك حلوة يا "حاتم" وهيَّ حمرا من البرد!"

فقلت أنا مازحًا:

- "طول عمره ابن ناس ورقيق!"

هنا هتف "حاتم" مازحًا:

- "لأ.. طول عمرها حمرا من البوس!!"

هنا توقف "جهينة" عن المشي وهو ينظر لـ"حاتم" بجانبه ونصف وجهه مختبيء في ياقة الجاكت، ثم علق بسخرية لاذعة:

- "لو من البوس يبقى أكيد قصدك على بوسة "شكرية" في ميدان الفلكي على مرأى ومسمعٍ الجميع".

وأعقبها بضحكة طويلةٍ رنانة. تذكرت الواقعة فانطلقت أضحك من قلبي دون توقف، أما "حاتم" فبقي ينظر نحونا شزرًا، وأصابته مسحة من الخجل ممزوجة بالغيظ.

قلت ونحن نواصل الضحك:

- "كان تنك قوي وراجع من برة ومطول شعره، ولبسه كله ماركات وبرفانات وعايش الدور علينا، ومعلقلنا الأيبود في رقبته. فاتخنقت منه وأول ما شفت "شكرية" وهيّ قاعدة على الرصيف بتهرش كالعادة في شعرها الهايش رحت خبطها الخمسة جنيه، وقلتلها شايفة الواد الأبيضاني ده متسيبهوش إلا لما تبوسيه في بقه".

ضحكنا حتى إن "حاتم" ضحك هو أيضًا مستسلمًا، وقال:

- "طول عمرك بتاع مقالب، دا أنا يومها لما روحت البيت مليت البانيو ديتول، وقعدت أستحمى يجي ساعتين!"

قال "جهينة" وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه من الضحك:

- "كان بينط ويصرخ و"شكرية" متشعبطة فيه".

فقلت:

- "يمكن لو كنت اديتها خمسة جنيه كمان كانت جابت منه عيال في الشارع!!"

انفجر "حاتم" هو الآخر ضاحكًا، فضحكنا حتى أدمعت أعيننا، وتهدجت أنفاسنا، واستندت على "جهينة" الذي كان ممسكًا بأحد عواميد النور في ميدان "طلعت حرب" حتى لا يسقط من الضحك.

مرت دقائق التقطنا فيها أنفاسنا. جلسنا على سياج الميدان الحديدي، ثم قال "حاتم":

- "طول عمرك ملعون وخصوصًا لما تتلم على الوزير بتاعك، أبقى أنا الضحية".

لم أضحك هكذا منذ زمن بعيد، كان طقس الصديقين يُفجِّر فيَّ سعادة ما فيأتي الضحك من داخلي كأنه استفاق وعاد يعرف بمفرده طريقه بعد طول غياب.

تابع "حاتم" قائلاً:

- "فاكرين سوسن؟"

وما إن نطقها "حاتم" حتى انطلقنا في نوبة ضحك جديدة.

قال "جهينة" متسائلاً وهو يلتقط أنفاسه:

- "صحيح راحت فين؟"

فقال "حاتم":

- "شفتها شايلة عيل من كام يوم، ومعاها واحد شكله سواق ميكروباص، تلاقيه جوزها!"

فقال "جهينة" مندهشًا:

- "سوسن دي كانت فتاة ليل؟؟"

فقاطعته قائلاً:

- "هي مكانتش فتاة ليل قوي، يمكن ساعتين في الليل بس..."

مال "جهينة" للخلف حتى كاد يسقط أرضًا من الضحك، أما أنا فمسحت عيني اللتين أدمعتا من كثرة الضحك وأنا أستعيد صورة "سوسن" من الذاكرة، تلك الفتاة ذات الملابس غير المتناسقة والمشية البلهاء التي أوقعت "حاتم" في غرامها لشهور طوال، وأقنعته أنها فتاة مغتربة تدرس بالجامعة ليساعدها بالمال، ثم اكتشف ذات يوم بالمصادفة أنها ممثلة درجة ثالثة تتنقل بين حانات وسط البلد الرخيصة طوال الليل، وكانت تبتزه بهوية مصطنعة وقصص ملفقة كان يصدقها المسكين.

تبادلنا السجائر وقلت:

- "طول عمر "حاتم" نقطة ضعفه البنات الشعبي.. مكانش يعاكس غير بنات شبرا، والوايلي في المترو وقدام الجامعة".

فقال "حاتم":

- "ولحد دلوقتي بموت في العبايات، والبنات اللي لسانها طويل وبتردح.. اللي تشتمني وتمرمطني أقع في غرامها.. أجمل أيام لما كنا نروح وكالة "عوف" صاحبنا اللي في الموسكي.. ونقف معاه نبيع عبايات وقمصان نوم، والستات تفاصل وتتخانق.. كانت أيام جامدة التنين!!"

نظر إليه "جهينة" نظرة خبث متفحصة قبل أن يسأل:

- "أنت ياد متأكد أنك ابن "شهيرة" هانم اللي كل لما تشوفنى تبصلي من فوق لتحت، وتسلم عليَّ بطرف صباعها وكأنها عاوزة تقول إيه الكائنات البكتيرية، البيئة اللي ابني بيعرفها دي؟.... أنا شاكك أنك تكون أصلاً جاي من غلطة لأبوك مع واحده من الخادمات!!"

واصلت الضحك وأنا أشاهد الاثنين يستعيدان مفارقات عديدة كانت تفجر فينا سيلاً من الضحك لا ينقطع.

كان البرد يزداد كما تزداد ضحكاتنا مجلجلة في فضاء ميدان "طلعت حرب". ننفخ في أيدينا ونضحك وكأننا اتفقنا على أن نضحك حتى النهاية. سألت "حاتم" فجأة:

- "مش "سوسن" دي أنت كنت قررت تتجوزها، واتخانقت مع سيادة السفير؟"

هنا انفجر "جهينة" ضحكًا، بينما هرش "حاتم" في رأسه متحاشيًا النظر إلينا.

عدنا ثانية لبهلر، ووقفنا على ناصية الممر نضحك ونفتش في جيوبنا عن سيجارة باقية لنتشاركها، فلم أجد في جيوبي سوى الهاتف فأخرجته

ولا شعوريًا عبثت بأزراره محاولا الاتصال بأمي، ولكنها لم ترد فقلت متهكمًا على نفسي:

- "أمي تقريبًا يا هاجرت .. يا اتبرت مني".

مضينا في ممر بهلر متسكعين ما بين شارع قصر النيل وشارع طلعت حرب، والساعة تجاوزت الثالثة صباحًا ونحن منتشون من الضحك في ليلةٍ شتوية قارصة البرودة.

أول يمين من قصر النيل

عندما أبلغ ميدان "مصطفى كامل" ينتابني شعور بالأبيض والأسود وكأن هذا الميدان الهادئ مازال عالقًا في زمنه القديم، ربما أصابته بعض الخدوش كبعض المحلات الجديدة أو البنوك، ولكن ها هو بوتشلاتي مازال قائمًا على الناصية يبيع البراويز، وها هي صالة المزادات في مكانها، وبائع الأيس كريم، لازال قابعًا في مكانه.

البنايات القديمة قائمة كما هي ترسم أقواسها حول الميدان الدائري رغم أن حركة المرور تسير فيه بشكلٍ متعامد فيبدو التمثال في المنتصف كأنه عائق غير محدد الموقف مما يدور حوله.

اتجهت نحو بداية قصر النيل عند طرفه من ميدان الأوبرا القديم وجامع الكيخيا، وما إن وصلت حتى درت ووقفت للحظات متأملاً الشارع

على امتداده من طرف البداية، أول يمين من قصر النيل كان به ميعاد قديم تأخرت عليه طويلاً.

عرجت نحو أول يمين، وتساءلت في داخلي هل سأجد العجوز في مكانه؟ هل تقاعد وباع أولاده المكان؟ هل مات؟ وإن كان مازال حيًا فماذا سيفعل عندما يراني؟ صورته ظهرت واضحة المعالم حية في ذاكرتي كأنما كنت قد رأيته بالأمس. اليافطة في الخارج كما هي، والنافذة الكبيرة مفتوحة. وقفت لبرهة على بعد بضع خطوات في انتظار علامةٍ ما مُنصتًا وقلبي يخفق بقوة كعاشق عاوده الحنين.

أتاني صوت "أم كلثوم" شجيًا من الداخل فابتسمت سعيدًا. العجوز مازال هناك في مكانه. دلفت للمدخل ذي الخمس درجات الرخامية المنحولة عند منتصفها بفعل الزمن، ثم ملت يمينًا نحو الباب الكبير الداخلي فمنذ سنوات بعيدة قد تم إغلاق المحل الأرضي الصغير لخلافات مع ملاك العقار العتيق، ولكن بقي العجوز يحتل نصف الدور من الداخل وبعضًا من الواجهة الجانبية بنوافذها الكبيرة القديمة المرتفعة عن الأرض بما يقارب ثلاثة أمتار.

اليافطة النحاسية بجوار الباب كانت صدئة ويعلوها التراب، فأخرجت منديلاً وأخذت ألمع فيها بهمة حتى لمعت الحروف السوداء المنقوشة في النحاس (شاهين حسن قنصوة - سجاد عجمي وتحف) فلتلمع قليلاً أيها العجوز.

وقفت مستندًا على الباب، مطلاً على الداخل، متأملاً العجوز وهو

يرتدي نظارته ذات السلسلة المعلقة على ياقته، منكبًا على قطعة سجاد عجمي كبيرة يرفها بإبرته.

الأزرق السماوى للجدران كما هو لازال باهتًا وتشوبه آثار الرطوبة، الرائحة كما هي تفوح من زمن بعيد متراكم في أركان المكان حيث تكمن صفوف من السجاد الإيراني وصالة داخلية متّخمة بقطع الأثاث والأنتيكات، ومكتب العجوز المصنوع من خشب الصندل وخلفه دولاب كبير تتراص فيه أطقم الصيني الأثرية وبعض الفضيات والنياشين والتحف، الطاولة الأرابيسك كما هي في الركن وعليها الصينية النحاس وعدة القهوة، وفوقها رف يعلوه راديو قديم كبير وبعض الكراكيب الأخرى.

أشعة الشمس الشتوية تتسلل للداخل عبر أغصان الشجرة الكبيرة المظللة للنافذة فترسم شعاعًا رقيقًا على رأس العجوز المستغرق. تقدمت للداخل وقلت:

- "السلام عليكم يا عم شاهين".

فرفع بصره نحوي وأنزل نظارته عن عينيه، ثم بدا عليه التأثر وكأنه لا يصدق، ثم ابتسم قائلاً بنبرة صوته المبحوحة المألوفة:

- "شوف الواد الواطي.. لسة فاكر يا قليل الأصل؟"

ضحكت ومضيت نحوه فضمّني وقبلني بقوة، فأدمعت عيناي تأثرًا بعد أن أحسست بوهن جسده. لقد هرم العجوز كثيرًا عما كان.

أشار إلى جواره وقال:

- "هات كرسي من جوه، وتعالَ جنبي هنا".

أحضرت كرسيًا وجلست بجواره فوضع نظارته مجددًا، وقال معاتبًا:

- "خمس سنين متسألش على عملك شاهين؟"

فقلت مازحًا:

- "أنا قلت زمانه نسيني".

نظر لي بتعجب، وقال مندهشًا:

- "لا حول ولا قوة إلا بالله.. هما في بلاد بره ضربوك على نفوخك؟"

فضحكت حتى أدمعت عيناي. ها هو العجوز لم يتغير. سألته عن أحواله ثم عن أولاده فتغيرت ملامحه، وقال شاردًا:

- "دول ولاد كلب كلهم.. متفكّرنيش".

فقلت متسائلاً:

- "لسة في مشاكل؟"

أطرق حزينًا ثم قال:

- "عاوزين يورثوني على حياة عيني".

فربتّ على كتفه، وسألته:

- "ولاد الخواجاية ولا المصرية؟"

- "كلهم!"

أتت كحة من الداخل مما بين قطع الأثاث المكدس في الضوء الخافت

فالتفت، فإذا به "حسنين النوبي" مساعد عم "شاهين"، يبدو أنه قد صحى لتوه من غفوة العصاري، وقال دون أن ينظر إليَّ وهو متوجه نحو الباب

– "حمدلله على السلامة يا بيه".

ألقاها ببرود كأنه رآني منذ أسبوع فقط. عم "حسنين" مازال كما هو "مزاجي"، ومازال قريب الشبه من الممثل "مورجان فريمان" ولكن بجلباب. ابتسمت دون أن أجيب، فناداه عم "شاهين" سائلاً:

– "رايح فين؟"

فقال "حسنين" ببروده المعتاد:

– "عاوز إيه؟ رايح أجيب غداء.. جعنا".

– "هتجيب لنا إيه؟"

فالتفت "حسنين" العجوز، وقال متهكمًا:

– "هيكون إيه.. كشري".

فقال عم "شاهين" وهو يمد يده في جيب قميصه من تحت السديري:

– "فشر.. دا احنا عندنا ضيف عزيز.. النهارده جمبري.. وعدي على "عبد المعبود" جيب ربع بن محوج مخصوص؛ علشان أسهر أنا والواد ده للصبح".

امتد بنا الليل الشتوي نحكي، والعجوز لا يمل الحكي. يحدثني عن ذكرياته مع جدي الذي كان صديقه الوحيد وذكرياتهما سويًا في وسط البلد، ويتذكر أيام كنت أفر من المدرسة ويخبئني في الدواليب القديمة عندما

يأتي خالي ليبحث عني. مضى يذكرني بأيام الجامعة عندما كنت أمضي معه الساعات هو يعمل وأنا أقرأ. حكى لي عن أولاده وما صار معهم باقتضابٍ وحزن. تواردت عليَّ صور من الذاكرة لجدي، هذا العجوز الطيب وهو يجرني خلفه في شارع قصر النيل طفلاً صغيرًا، ثم صور أخرى لأيام المراهقة والجامعة كنت آتي لأجالس عم "شاهين" فيحكي لي قصصه مع خواجات وسط البلد وعصر الخمسينيات والستينيات الذي كان دومًا يستهويني، كان يحكي لي تاريخ العمارات والشوارع والمتاجر، كان هذا العالم جزءًا من تاريخي المعرفي، شكّله لي عم "شاهين" بحكاياته الأثيرة وتجاربه العميقة وسخريته التي اقتبستها منه فيما بعد، الآن وأنا أراقب العجوز أيقنت أن هناك بعض الخطوط في شخصيتي كانت من صنع هذا العجوز الذي يرفو السجاد منذ سنين ومازال يرفو. عندما انتصف الليل حان وقت الإغلاق. ترك لي مهمة إوصاد القفل الكبير –كما كنت أفعل منذ سنوات– ثم قال لي مبتسمًا ونحن نفترق:

– "أم كلثوم بتقول .. يا حبيبي كل شيء بقضاء، ما بأيدينا خلقنا تعساء، ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عزّ اللقاء".

مضيت محاولاً تذكر باقي كلمات الأغنية الشهيرة فقد كانت هناك تكملة لهذا المقطع، ولكن لسببٍ ما لم أستطع تذكر تكملة ما قاله العجوز.

وسط البلد الرومانسي

عندما تندمج في الحكي كانت تتجاوزني بخطوتين وأنا أسير إلى جوارها ثم تنتبه فتتوقف. تلتفت مبتسمة باحثة بعينيها عني في الزحام الليلي فأتوقف مكانى دون حِراك، مراقبًا إياها كمن يحدق في شيء خلاب يأثره.

تنظر لي بحيرة عندما تجدني، وبابتسامة وجلة لا تفارق وجهها الدائري تسألني مستفسرة "إيه؟" فأمضي إليها وأنا بلا كلمات ولكن مشاعر فياضة تتملكني في هذه اللحظات. نعاود السير سويًا ونتبادل الأحاديث وكأننا نُبحر في عالم ممتد وحدنا. كأن الطرقات بلا بشر، والأرصفة بلا ضجيج، والتقاطعات بلا إشارات.

اشتد هواء الليل البارد فاقتربت مني أكثر، وتعلقت بذراعي بعفوية وبراءة. مضت تخبرني عن ذكريات طفولتها في مدرسة الراهبات. عندما

تنطلق في السرد كانت تستحوذ عليَّ بشكلٍ عجيب. فأشعر بأن إيقاع كلماتها يسيطر على دقات قلبي، فإن تحمستْ شعرت بأنفاسي تلهث، وإن تحدثت برهفة هدأت. لم يكن في حديثها عن ذكرياتها قصة ملهمة ولكن كل ما كانت تنطق به كان يلفني ويدوخني وكأني أدور في ترنيمة مقدسة. تنطق الحروف بمد ودلال وكأنها ستغنيها. تشكل العبارات بطريقة خاصة، وتطلق على نفسها ضمير المذكر. تسرد لفترة ثم تتوقف، وتعلق على ما قالته بجملة فرنسية. تفصل بين العبارات بهمهمات وحليات صوتية كأنها تتحدث لنفسها في ديالوج أحادي.

أفتح لها أفق الكلام فكلما صمتت ألهمتها بسؤالٍ أو بتعليق، فتتابع حديثها الذي ينساب في داخلي كأنها تسكبه في الأعماق. تسرد دون تحليل كلامًا أحيانًا مسترسلاً دون اتجاه، وأحيانًا وصفيًا معبرًا. تتفتح أمامي "فريدة" فأدخل عالمها مستكشفًا، ورغم أنه عالم بسيط كوجهها المستدير إلا أنني كنت أتوه فيه.

سألتها عن أكثر قصة تحبها، فأجابتني دون تفكير "أليس في بلاد العجائب". كانت تعشق عالم "أليس". في طفولتها كانت دائمًا تتخيل نفسها "أليس"، وتخلق عالمها الخاص وتعيش أحداثه. ممثلها المفضل كان "جوني ديب" تحب بشرته البرونزية وشعره الطويل وأدواره الغريبة.

فيلمها المفضل "صوت الموسيقى" فهي تعشق كل أغانيه وقصته و"جولي أندروز" بشعرها القصير. فهي تحب أن تقص شعرها "ألاجرسون".

قالت فجأة "نفسي أروح فرنسا.. رحت فرنسا؟"

فأشهرت أصبعين في وجهها وأنا أغيظها بابتسامة واسعة، فقرصت ذراعي. توجعت وأنا أضحك وأقول "ياحقودة"، فقالت بأسى "يا بختك".

واصلنا السير وتساقطت بعض قطرات المطر الخفيف، تعلقت بذراعي وقالت بعفويتها الرائقة "أنا بحب كل حاجة فرنسية، الأدب والموسيقى والأكل والجبنة.. اللبس.. بموت في البرفانات الفرنسية.. احكيلي عن باريس.. عملت إيه هناك؟"

نسير وكأننا وحدنا في الطرقات وكأن المدينة فرغت من كل ما يشغلها وأبقت علينا وحدنا. تنساب أضواء طرقات وسط البلد في ليل شتويّ رائع، وتطل علينا البنايات ذات الطرز الأوروبية وأنا أحكي لـ"فريدة" كيف أن بنايات باريس القديمة تتشابه مع تلك البنايات في طرازها، ولكنها في باريس مازالت تبرق وتلمع وهي عندنا انطفأت وأهملت. مضيت أحدثها عن مقاهي باريس الصباحية ومتاحف باريس، وجمال النساء ورقي البشر، وعراقة المطاعم وإبهار الأزياء، وأضواء الشانزليزيه في المساء.

أحكي فتلتمع عيناها وكأنها ترى أمامها باريس بشوارعها ومعالمها. يشتد هواء الليل، وتتعلق بذراعي أكثر فأشعر بدفء يتسرب لقلبي، وأكاد أشتم رائحة عطرها ينساب في الهواء العابر.

أضمها بإحساسي وكأني أستوعب كل ما فيها، وكل ما يخرج منها حتى أقصى مداه. أضمها كلما تحدثت أو تساءلت أو دقت قدماها على الرصيف.

أود لو نمضي سويًا دون أن نتوقف. لا أود لهذه اللحظات أن تذوي. لو كان لزامًا للقاء أن ينتهي، فلابد أن يكون ذلك على أمل في لقاءٍ قادم أجمل.

أحلم بأن تكون هناك لحظات أجمل قادمة، هذا ما يجعلك تصافح يدها الناعمة مودعًا. أحلم بأن هناك موعدًا قادمًا سيكون أجمل وهذا ما يخفف ألم الفراق على نفسي، يجعل الحاضر أخف من وقعه وأعمق من حدوده.

شرفة ستراند

جزيرة منفصلة في وسط البلد لها خصائصها فلا تعربد فيها كائنات وسط البلد، ولا تصل إليها إلا فيما ندر. كان للمقهى رواده فلم تكن به أية أنواع من الاختلاط المفتوح أو الشللية التي تجتذب هوام وسط البلد الباحثين عن مجموعات يندسون فيها، ويمارسون من خلالها هواية إظهار الذات.

المقهى كان له طقسه الهادئ، ومعظم مرتاديه من عجائز فئات الموظفين والأطباء والمحامين الذين ينتمون للجيل السابق، أصواتهم خفيضة وهم قليلو الاختلاط، واتساع المقهى يحافظ على الخصوصية وبعض الهدوء.

كنت دائمًا أحب هذا المقهى؛ لأنه كان به دومًا ركن هادئ أستطيع أن ألتجئ إليه، وكانت تجاوره وعلى بعد بضعة أمتار محطة أتوبيس كانت تجتذبني. كنت أحب أن أراقب حركة الناس في المحطة من موقعي بشرفة

المقهى الصغيرة التي تحتل جزءًا صغيرًا من الرصيف.

المقهى الأنيق الممتد للداخل بجوار ممر العمارة، يطل على الشارع بواجهة زجاجية أمامها سياج حديدي قصير، في الشرفة الصغيرة وبواجهة المقهى الأمامية يوضع دائمًا مقعدان بينهما منضدة صغيرة دائرية. الطاولات والكراسي دائمًا ملمعة نظيفة ومرصوصة في نظام، والعاملون يرتدون قمصانًا بيضاء -كما جرت عليه العادة- منذ زمنٍ بعيد في المقاهي.

محطة الأتوبيس التي لا تفرغ من المنتظرين كانت تمثل لي مشهد الانتظار ثم الحراك ثم الانتظار. كنت أرنو للمحطة طويلاً مراقبًا حركة الناس، وكيف يُمضون الوقت في الانتظار وتمر عليهم الأتوبيسات الذاهبة في اتجاه مصر القديمة الواحد تلو الآخر. الأتوبيسات تأتي ممتلئة عن آخرها فتلقي ببعض الناس كأنهم سقطوا سهوًا، وتلتقط آخرين على الرغم من امتلائها. يندسّون فيها ولا أعرف كيف يفعلون هذا؟ وكأنهم في سباق لا يعبؤون بقسوته، بل فقط يريدون لحاقه. وجوه الناس على المحطة تبدو كلقطات ثابتة تتوالى متقطعة ما بين جالس وقائم، وطفل يصرخ، وشاب مع خطيبته، وطالبات يرتدين زي المدرسة، وموظف مهموم سارح، وعجوز يغالب نومه.

مشهد الانتظار كان من أكثر المشاهد التي أستغرق فيها. خلال تجوالي بين البلاد كنت دائمًا أحب مراقبة الناس والمسافرين وهم في حالة الانتظار في محطات القطار والمترو. في أسيا وأوروبا كنت أجلس لساعات لا أفعل شيئًا سوى مراقبة الناس وهي تنتظر.

تعلمت من المنتظرين فن الانتظار. ففي الانتظار تتعلم الكثير فأنت لا تترجل خلف الزمن بل تنتبه له. ربما أيضًا تمتصه امتصاصًا.

داهمني "جهينة" بمشيته العجيبة وقد أحضر لنا بعض سندويتشات الإفطار. تمامًا مثلما كنا نفعل منذ بضع سنوات. قال بعد أن ارتشف شفطة من الشاي بالحليب:

- "والله زمان يا سعادة البيه.. بكره بقى كروسان وكابتشينو في البن البرازيلي".

ضحكت وأنا ممتن لهذا الإفطار ولصحبة "جهينة"، وقلت:

- "أنا رحت البن أول ما نزلت وسط البلد".

فصاح قائلاً:

- "أكيييد أول حاجة كانت هتبقى البن... كل لما أروح كانت شلة البن تسألني عليك".

انتهيت من الإفطار ثم مضيت أطلب رقم أمي، معتقدًا أنها ربما قد صحت من النوم، ولكن الهاتف كان مغلقًا فأيقنت أنها مازالت تغط في سباتها العميق، أطلقت زفرة يأس. هزني "جهينة" وهو يشير للخارج فنظرت فلم أرَ شيئًا أفهمه، ولكن لم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى قفز داخل المقهى رجل قصير وكأنه خرج من باطن الأرض فجأة. أصلع الرأس تمامًا إلا من بعض الشعر المشعّث على الجانبين. يرتدي قميصًا كاروهات مكرمشًا وطويلاً يقترب من ركبتيه. القميص ياقته تشكل زاوية قائمة على جانبي رقبته، وكأنها لم تصبها حرارة مكواة من قبل!!. الياقة القائمة

على الجانبين تتوازى مع شكل شعره. نظارته الطبية تمثل اختلافًا جليًا في مظهره، فقد كانت أنيقة بعض الشيء بإطارها الأحمر الداكن.

لم أصدق عيني لوهلة، ولكن ما لبثت أن ابتسمت بسعادة وهتفت:

- "توفيق!"

لم يعرني انتباهًا، ثم قفز إحدى قفزاته الفجائية فصار قبالة "جهينة". مال عليه، ثم قال بنبرة جادة:

- "هوَّ أصلا مكانش هوَّ؟"

فاتسعت ابتسامتي مستعيدًا ملامح شخصيته وتعليقاته قبل أن أصيح فيه ضاحكًا:

- "إيه يا تيفه؟ مش فاكرني؟"

فنظر لي نظرة تأمل من خلف نظارته كأنه عالم جليل يُحلل شيئًا عظيمًا، ثم مط شفتيه وقال:

- "معاك قرص ريد بتاع الناموس؟"

فضحكت وأنا أخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات فانتزعها من يدي، وقفز قفزاته ليشق الزحام متجهًا للخارج -دون أن ينبس بكلمة- وكأنه فاز للتو بورقة يانصيب رابحة!

نظرت إلى "جهينة" فقال على التو وهو يبتسم:

- "فاكرك ابن اللذينه"

- "فاكر ايه؟.. هو مبيفتكرش غير الفلوس".

– "النفي عنده إثبات"

– "تقصد لما سألك هوَّ أصلاً مكانش هوا؟"

فهز "جهينة" رأسه موافقًا وهو يمضغ طعامه، فقلت مستغربًا:

– "إيه ده هوا أنت بدأت تفهم كلام توفيق؟ دانا أعرفه من وأنا عيل صغير، وعمره ما قال جملة واحدة وفهمتها!"

– "هوا الوحيد اللي فاهم".

فضحكت وقلت:

– "طول عمره مفاجأة.. عمره ما قال أكتر من جملة.. ومتعرفش بيظهر امتى، وبيختفي امتى.. فجأة تلقيه وفجأة يختفي".

صمت "جهينة" قليلاً قبل أن يقول وهو يبتسم:

– "طول عمر "توفيق" صاحب حيثية".

ضحكت وأنا أزن كلام "جهينة". لم يتغير هذا الرجل بعد، مازال يستخدم في تعبيراته مصطلحات اللغة العربية البلاغية. كانت لديه القدرة دائمًا على مفاجأتك بمصطلح بلاغي من اللغة غاب عن اللغة.

ظل على ابتسامته، ثم واصل:

– "وكنت دومًا أنت ملجأه".

– "أه كان "تهامي" يقول لي أنت الوحيد القادر على استئناس توفيق"

فجأة قفز لذهني "تهامي" كأن ذهني ارتطم بشيء صلد، فنظرت لـ"جهينة" لوهلة قبل أن أتساءل:

- "شهدي التهامي فين؟"

تحولت ملامح "جهينة" فجأة، ومسح وجهه بيده. وكنت إن سألت "جهينة" عن شيء لا يريد الخوض فيه يمسح وجهه بكف يده من أعلى لأسفل ببطء، ويرنو نحو الفراغ.

السؤال معلق في رأسي كالبندول متأرجحًا. دوى من ضجيج الذكريات والأحداث، انتابني عندما طالعتني صورة "شهدي التهامي". هرب "جهينة" من الإجابة وكأنه يريد أن يغلق أبواب الضجيج.

كما تشاء يا صديقي فآجلا أو عاجلاً سيظهر "تهامي".

عجوز الشرفة

نبات متسلق يبس على الجدار منذ دهر، أوراقه رسمت كل درجات اللون البني، والأغصان صارت حطبًا مصلوبًا حتى أعلى قضبان النافذة، أما الشرفة المجاورة فتجلس بها العجوز ذات الكنزة الزرقاء والتنورة القصيرة، وقط رمادي كسول يتمطى عند قدميها، يظهر ويختفي خلف قضبان سور الشرفة.

الشرفة محمولة على كتفين من الخشب العتيق، محفور بهما عند الطرفين أشكال نباتية دقيقة رائعة كأنهما ذراعان لكرسي صالون فخم الطراز، أما قضبان الشرفة فمن الحديد المشغول بعبقرية فنية فريدة.

مشهد المرأة والشرفة يبدو كأنه مشهد فني عريق من إنتاج زمنٍ ما كان يقيم هنا، وترك آثاره كلوحاتٍ رمزية منقوشة هنا وهناك.

أقضي الساعات مطلاً على ما حولي، متنقلاً ما بين النافذة والشرفة. في الشارع بالأسفل تتحرك أمواج متوالية من فتيات ترتدين زي المدرسة منتشرات في الشارع، قاصدات المدرسة الثانوية الكامنة على بعد بعض بنايات وقد كانت في يوم ما قصرًا رائع المعمار، تمضي الفتيات نحو المدرسة وهنَّ يتبادلن الضحكاتٍ ورنات المحمول.

تلتهم العجوز في الشرفة سيجارتها التهامًا، وتنادي على باعة الصباح الجائلين، تعرفهم جميعًا بالاسم ويعرفونها حق المعرفة.

كل صباح تطالعني العجوز بشعرها الأبيض الخفيف وسلتها المتدلية ولكنتها، فتبدو لي كطقس صباحي ينتمي لقاهرة الأربعينيات.

أحيانًا في الليل كانت العجوز ترتدي باروكة شعر مستعار بيضاء كلون شعرها الحقيقي، ولكن الفارق أن الباروكة كانت كثيفة الشعر أنيقة. لم تكن العجوز تطالعني في المساء أو تنظر ناحيتي على عكس ما كانت تفعل في الصباح، ربما كانت رؤيتها الليلية ضبابية.

ألفت العجوز بعد عدة أيام بنشاطها الصباحي وابتسامتها لي كلما التقيت عينانا. قررت أن أحييها هذا الصباح قائلاً:

- "بونجور مدام".

فردت عليَّ التحية بود:

- "صباح النور".

العجوز ذات الأصول الفرنسية كانت مصرية التحية!

يظل سؤالي كما هو وأنا أجوب بعيني تفاصيل البنايات من حولي بنسقها الأوروبي العريق، هل وسط البلد كان مصريًا أم كان أجنبيًا؟ هذا السؤال لم يكن له إجابة محددة.

كان يرتدي كامل حُلَّته ورابطة عنق اليوم، فسألته:

- "إيه متأنتك قوي النهاردة يعني؟"

رد بخبث وهو يتفحص بعض الفضيات، وفازة من الصيني الباهظ الثمن:

- "طول عمري أليط.. إيش عرفك انت؟!"

ابتسمت، وقلت مواصلاً مداعباتي:

- "ياعم روح.. أنت راحت عليك خلاص".

فتح أزرار الجاكت، ونظر إليَّ وكأنه يستعد لمعركة قائلاً:

- "يا دهول دا أنا كنت باكل كافيار من أيام ما كان بتلاتة صاغ".

فضحكت من القافية حتى كاد يطوح بي الكرسى الخيرزان ويسقطني.

دق هاتفي، وكانت "فريدة" على الطرف الآخر، فسألت "أين أنا؟"، فقلت لها بصوت مسموع:

– "أنا عند الأليط!"

فضحكت ولكنها لم تفهم ما أعنيه، أما هو فابتسم دون أن يرفع عينيه عن القطعة التي كان يقلبها. سألتني "فريدة" عما سأفعله فدعوتها أن تأتي إليَّ في متجر الأنتيكات؛ حتى أعرفها على "الرجل الأليط". استثار الموضوع فضولها فوصفت لها العنوان.

مدت "فريدة" يدها لتصافح الرجل العجوز فأخذ بيدها لأعلى، ثم أدارها دورة كاملة وكأنه سيبدأ رقصة معها. ابتسمت "فريدة" ابتسامة عريضة، وكسى وجهها الخجل قبل أن يقول العجوز بجدية متسائلاً:

– "الملكة فريدة؟؟"

فضحكت قائلاً:

– "ياراجل بطّل بكش".

فقاطعني معترضًا:

– "اسكت يا دهول.. ثواني جلالة الملكة، راجعلك حالاً".

غاب في الداخل يفتش في بعض البراويز الكبيرة المتراكمة خلف قطع الأثاث، فسألتني "فريدة":

– "هوَّ بيعمل إيه؟"

فأملت رأسي ورفعت كفي دلالة على التعجب وعدم المعرفة.

أتى ببرواز كبير، ومسحه بعناية بقطعة قماش ووضعه أمامها، فطالعناه متفحصينه. كان شيئًا مثيرًا للدهشة فقد كانت صورة لملكة بتاج من الجواهر وفستان رائع يبرق. الصورة خلابة مهيبة والملكة تبدو فاتنة الجمال، ولكن كل هذا لم يكن السبب الذي جعلنا نحدق في الصورة ثم ننظر لبعضنا البعض بتعجب. الملكة التي في الصورة تشبه إلى حدٍ بعيد "فريدة"، تقاسيم الوجه ورسمة الحاجبين ودقة الأنف.

قال العم "شاهين" وهو يمسح يديه وبدلته من آثار الغبار:

– "الملكة فريدة، اتجوزت الملك فاروق في يناير سنة 38.. كان عندي وقتها 10 سنين بس لسة فاكر الاحتفالات الشعبية اللي كانت في الشوارع، والمواكب اللي لفت القاهرة والزينة والأعلام.. الناس كانت بتحب "فريدة" قوي، ولما طلقها في 48، شعبية الملك قلت قوي.. على فكرة "فريدة" كانت فنانة زيك بترسم وبتعمل معارض.. عندي ليها بورتريه هي راسماه اشتريته من تاجر صاحبي.. البورتريه هديه مني بس بشرط... تقبلي عزومتي على العشاء".

اكتسى وجه "فريدة" بالخجل الممزوج بالسعادة الطاغية أما أنا فضحكت، كم هذا العجوز مدهش.

قلت له:

– "أنت هتعلق مني الجو بتاعي ولا إيه؟"

فرد عليَّ بسرعة بديهية وثقة:

- "طبعًا!"

نظرت نحو "فريدة" التي كانت موجهة عينيها نحوه تطالعه بإعجاب، وابتسمت ابتسامة واسعة، لقد أسرها العجوز المكير.

ظلت "فريدة" تتابع مناوشاتى مع العم "شاهين" وحديثنا، والابتسامة لا تفارق شفتيها وبريق يومض في عينيها، حكى العم "شاهين" قصصًا عن طفولتي ونوادري، كما حكى لها عن جدى الذي كان صديق عمره. كان الفضول يتملك "فريدة" بشكلٍ غريب، فكانت تهمس في أذني بتعليقاتها على ما يرويه العجوز فأناوشه أنا حتى يُخرج المزيد.

همست لي "فريدة" بأنها تريد أن تتفحص الأنتيكات والبراويز المكدسة، فأشرت لها أن تفعل ما تشاء ولكنها اعتراها الخجل فلم تتحرك، وعندها قلت للعم "شاهين":

- "الملكة "فريدة" عاوزة تتفرج على المكان.. ممكن؟"

فنظر لها قائلاً:

- "الواد عامل مؤدب وبيستأذني.. اللِّي بيتكلم ده ياما كسرلي حاجات.. دا ماكنش بينام إلا جوا نيش كلاسيك إيطالي.. كان يفتح الضلفة، ويفرش فيها وينام".

فقاطعته:

- "ما أنت بعته".

فضحك ضحكة طويلة قبل أن يقول:

– "دا أنت حدفتني يومها بكل اللِّي كان في المحل.. فاكر؟"

ضحكنا طويلاً قبل أن يقول العم "شاهين" لـ"فريدة" وهو يفتح لها كفه مشيرًا نحو ممتلكاته:

– "كل اللِّي هنا بتاعه وبتاعك أنتِ كمان.. اللي يعجبك خديه هدية من عمك شاهين".

أمضت "فريدة" وقتًا طويلاً تقلب في الأشياء وأنا أساعدها، وتستشيرني فيما يمكن أن تأخذه، وتعجبت "فريدة" من معرفتي بالقطع والأطرزة المختلفة للأنتيكات. انتقت "فريدة" قلادة من الفضة وحجر الفيروز وفانوسًا من النحاس المزخرف، ثم أهداها العجوز صورة الملكة "فريدة" وأحد بورتريهاتها.

ما إن خرجنا إلى شارع قصر النيل حتى قفزت "فريدة" في الهواء، وهتفت:

– "الراجل ده وهميييي.. أنا عاوزة أتجوزه!"

الرجل الغامض

قلت له:

- "شاي بحليب الصبح في استراند.."

فرد مبتسمًا:

- "يبقى بالليل فنجان الأسبرسو في البن البرازيلي".

بين الصمت والكلام يمر الوقت مع "جهينة" وكأننا نطالع شيئًا ما لا يراه أحد سوانا. نتحدث لنصمت، ونصمت لنتحدث. وكأننا نتحدث لغة واحدة، ولكننا مختلفون في المرادفات.

الشيء الوحيد الذي كنت أتوقف دومًا عنه، و لم أستطع يومًا أن أُقدم عليه كانت تلك الأسئلة البديهية عن حياته الشخصية. لم أتجاوز يومًا هذا الحاجز القائم. الباب دائمًا موصد ولا أحد يستطيع الولوج.

كنت في قرارة نفسي متيقنًا بأني إذا عدت ذات يوم لن أجده، ولكنه خيب توقعاتي وظل باقيًا في موقعه و لم يتزحزح ولو خطوة. نفس الهيئة ونفس الشخصية ونفس الفلسفة. يصغى إليَّ وأنا منطلق في حديث مسترسل، ويعلق أو يبتسم، ثم أكمل وكأننا نمضي بمركب لا تتوقف.

هذا الخط الوهمى الغير مرئي الذي يجمعنا كان مرسومًا بناءً على فهم متبادل، "جهينة" كان يفهمني دون اعتراضات، ويمضي معي دون شروط، ويستمتع بحديثي. ولذلك كان يجبرني على أن أمضي معه بنفس الشروط ويفرض عليَّ طريقته. كنت أفهم هذا الرابط الذي يجمعنا فبقيت علاقتنا عميقة. لم أرغب يومًا في الالتفاف، وبقيت أصاحبه كما هو دون أن أسأل أو أفتش.

حساسيته وذكاؤه المفرط وفهمه العميق لي كان رابطًا قويًا يجمعني به، وكم كان كافيًا لي كل ما فيه من قدرةٍ هائلة على فهمي، ولذلك كنت أتركه يكتم ما يريد أن يكتمه، ويفصح عما يريد كما يشاء وكيفما يشاء. كان هذا الخط الوهمي المرسوم بيننا في شكل العلاقة وحاجز السرية الذي يحيط حياته الشخصية يلزمني بأن لا أتجاوزه. وكأن الاتفاق الضمني بيننا مكتوب بلغة سرية. عَهْد بعدم الخوض فيما لا يريد أحد أن ينتهكه. لم نتطرق كلامًا لهذا الاتفاق يومًا، ولكننا كنا نفهمه بحسنا تجاه بعضنا منذ أن التقينا قبل عشر سنوات.

ربما لم تكن بداخلى رغبة في النبش داخل الصناديق المغلقة، و لم يكن يؤرقني غموض حياته؛ لأن عقله وبديهته كانا بالنسبة لي كتابًا مفتوحًا يتركه لي وقتما أشاء، فلماذا أبيع المفهوم بالغامض؟

عادة كان يسألني الآخرون عن "جهينة" فأقول "اللي يعرف فيكوا حاجة عنه ميبقاش يقولي.." فيظل الجميع على اقتناع تام بأني أعرف عنه كل شيء وأبقيه سرًا. كانت دائمًا تلاحقني أسئلة بديهّية عنه: أين يسكن؟ ما وظيفته؟ هل هو متزوج؟ ما سبب الاسم الغريب؟

كيف كان يتخطى الجميع بخفة كراقص الأكروبات المتمكن؟ لا يجيب أحد عما كان يسأل. كسياسي محنك عندما يتنازعه الصحافيون بالأسئلة فيعطيهم عبارات لا تنطوي على شيء، ولكنها تُسكتهم عندما يسمعونها.

لا أحد يعرف شيئًا أكيدًا عن حياة "جهينة"، الكل يراه في المقهى أو في وسط البلد، أو في حدثٍ ثقافي فهو مرئي دومًا، ولكن لا أحد يعرف الجانب الآخر منه. كل شيء في محيط وسط البلد ومجتمعه بادٍ للعيان، أما "جهينة" فقد كان الوحيد في المشهد مجهولاً للجميع بمن فيهم أنا.

لم أكن أقحم نفسي في حياته قط، و لم أدفعه يومًا ليقول ما لا يريد أن يقول، و لم أتعامل معه يومًا بحس المحقق البوليسي الذي يريد استكشاف غموضه. كنت أتركه في مساحته وكأني أقدس خلوته.

وهكذا صار "جهينة" جليسي الدائم بمقاهي وسط البلد وصديق الأمسيات، بعد أن توارى "حاتم" في عمله و لم يكن يظهر سوى في الإجازات الأسبوعية. علمته الكابتشينو في مقهى البن البرازيلي ليلاً، وعلمني الجلوس في شرفة مقهى زهرة استراند، والشاي بالحليب في الصباح.

شارع طلعت حرب

من أين كانوا يأتون؟؟؟

من أيِّ ثقب في السماء أو في الأرض كانوا ينسلُّون تباعًا؟ يتداخلون في زحام الشارع الطويل فيبدو كأنه نهر ممتد من البشر لا ينتهي.

رؤوس ووجوه تلوح بين أضواء الفتارين والمحلات في مشهدٍ ليليّ صاخب. يتلقفك باعة الأرصفة، يستوقفك المتسولون، ويجذبك سماسرة المتاجر والممرات الجانبية. تتدافعك الأجساد، تعرقلك حينًا وتوقفك حينًا، وتحاصرك من كل جانب.

عندما تسير وسط كتلة البشر لن تستطيع المرور. الخطوات ضيقة وسط الزحام مختنقة متوجسة. الخطوات لا تمضي في الحيز الضيق، فقط تتحسس.

مع الوقت تصير سرعتك موازية تمامًا لمن حولك، تعتاد ذلك الإيقاع الثقيل فتسير مثلك مثلهم. التجاوز صعب، الزحام يصنع كتلة متشابكة، والمرور من المعوقات تحد قائم طوال الوقت، هنا في زحام الكتلة يتساوى الكل، وتقل الفروق الفردية وتتقارب السرعات.

أنت في الطابور البطيء الممتد بطول شارع طلعت الحرب تحاول الوصول، أو تحاول العودة أو ما بين الاثنين تائه.

أسأل نفسي، كيف يكون الأفق ضيقًا إلى هذا الحد؟ كيف اندسّ الكل في مسارٍ واحد ضيق؟ هل مضى علينا بضع قرن، والمدينة لا تزال تمر من هذا النفقَ الطويل الذي ظل يزداد ازدحامًا؟ ما تزال المدينة تتشعّب يمينًا ويسارًا كأنها تصنع ملحقات هامشية، وتتمحور حول عمقها الذي بقي كل يوم يزداد اختناقًا.

أطل على المشهد أمامي وأتذكر، نفس الصورة لم تتغير كنت أراها وأنا طفل في العاشرة عندما كان يصطحبني أبي لفيلم في سينما أوديون أو مترو. نفس الكتلة الممتدة من البشر ولكن ازدادت بضعة ألوف أخرى حتى صار الاختناق متوحشًا والضجيج أكثر. تُرى كيف ستكون الصورة بعد بضع سنوات أخرى؟

لم نصنع أي امتداد للمدينة العجوز، وبقي القلب يعانى اختناقًا دائمًا في شرايين مسدودة، وتصلّب الجسد فيما يشبه غيبوبة طويلة.

الكتلة الكبيرة من البشر تزحف ببطء وتتساوى الفوارق في الخضم، الكل يصير متشابهًا وكأن هناك عطبًا ما في الدماغ يقود الجميع هنا.

طلعت حرب بشبابه وبائعيه، ومتسكّعيه وسائحيه، ومتسوليه وعفاريته، وشياطينه وسياراته متضاد الاتجاه، لا تستطيع أن تقود فيه للنهاية، عندما تصل الميدان لابد أن تدور، هو قاعدة مستقلة بذاته، ولا يتساوي في اتجاهاته.

بيبرس.. الظاهر

هو الدليل المتحرك الذي يثبت يقينًا بأن الأرض تدور حول محورها باستمرار، والكون يتحرك دومًا دون توقف.. "بيبرس" هو فيزياء الحركة، وكل قوانين التوازن في نطاق وسط البلد، وهو أيضًا القاموس الجامع لكل التعريفات والتكوينات والأحداث هنا.

"بيبرس" هو مركز خدمة العملاء المتاح على الدوام. إذا كنت تبحث عن إجابة أو مكان، أو حدث أو شخص فما عليك سوى البحث عن "بيبرس" فهو الناطق الرسمي والمندوب الدائم.

لكن الشيء الذي ينبغي عليك أن تعيه جيدًا: أن هذا ليس القاعدة العامة. "بيبرس" ليس مُتاحًا إلا إذا كنت أنت بالنسبة له مُتاحًا أيضًا. إن لم تكن من رواد المنطقة المعتادين، وكنت من المارين مرور الكرام فأنت

بالنسبة له لست مُتاحًا، فقط سيعطيك سيجارة "إل إم"، وسيتعرف عليك ولكنه لن يعطيك إجابة محددة وكأنه لا يعرف عن ماذا تسأل، وقبل أن تمضي سيكون بدبلوماسية فائقة ومهارة اجتماعية قد اقتنص منك الكثير من المعلومات كرقم هاتفكَ ومهنتك... إلى آخره بخفة ودون أن تلحظ.

"بيبرس" أعرفه منذ أيام المدرسة، وكان يُطلق عليه حينها اسم مستعار "بيسو" فقد كان المنظّم لكل دورات الكرة والمسابقات الثقافية ليس في مدرستنا فقط، بل على مستوى مدارس الإدارة التعليمية. ثم قابلته بعدها في الجامعة عندما كان يدرس بكلية "الفنون الجميلة"، وعرف في وسط البلد باسمه الحقيقي "بيبرس". كنا نتصادف طوال الوقت في التظاهرات الثقافية كندوات معرض الكتاب ومهرجان السينما، وحفلات الأوبرا ومقاهي وسط البلد، ورغم أننا لم نكن أصدقاء إلا أنه كلما كان يصادفني كان يُقبِّلني وكأننا صديقان حميمان، كان ذا ود جارف كأنه جار قديم.

ثم مالبس أن صار صديقى عندما صار يلازم "شهدي التهامي". كان أيضًا وثيق الصلة بـ"جهينة"، وكان يلقبه "بالإكسلانس" وكان يلقب "شهدي" بلقب "ماركس". كان ينعت كل واحد بلقب ولكن الغريب أن "بيبرس" لم يكن ينعتني بأي لقب، وكان هذا فيه لغز يؤرق "شهدي" فأطلق عليه "شهدي" لقب "العميل المزدوج"، أما أنا فكنت أطلق عليه لقب "وزارة الثقافة".

"بيبرس" يشتهر بهيئة الفنان منذ أيام الدراسة. يلبس دومًا سديري كالذي يرتديه محبو السفاري، ونظارة طبية ذات إطار أزرق داكن،

ويعلق حقيبته على كتفه أينما تنقل، مرسوم على الحقيبة القماش، البيتلز فريقه الغنائي المفضل. شعره الأسود لا يُصفِّفه بل يتركه يتلوّى حول رأسه، أما لحيته فدومًا شبه نابتة.

"بيبرس" يرسم ويكتب في الفن وفي مجالات أخرى. له مدونة معروفة فهو من الجيل الأول للمدونين الذي كنت أنا محسوبًا عليه، ولكني لم أنخرط طويلاً. أما "بيبرس" فاستمر في كتاباته يستخدم اللغة العامية ومصطلحات الجيل الجديد الرائجة في مدونته، ومعظم ما ينشره على صفحاتها موضوعات خفيفة تجتذب الكثير من الشباب. كان يدير إحدى قاعات الفنون بوسط البلد وعضوًا فاعلاً في معظم التظاهرات الثقافية، ويمثل أدوارًا ثانوية في الأفلام كدور "النادل" في البار الذي يذهب إليه بطل الفيلم عندما تهجره حبيبته، عندها يصب له "بيبرس" كأسًا تلو كأس.

"بيبرس" كان يعزف على آلة الإيقاع "البركشن" منذ أيام الجامعة، ولكنه لم يلق رواجًا في هذا الاتجاه حيث شارك مع العديد من الفرق الموسيقية التي لم تستمر طويلاً فيما بعد. وكان لا يواظب على بروفات الفرق التي اشترك فيها، وكان يتنقل بين الكثير منها ثم ما لبث أن ودّع البركشن، ولكنه ظل يقوم بدوره في تنظيم الحفلات.

عندما شاهدني هذا الصباح وأنا أتجول بحي البورصة، قفز من كرسيه نحوي وتهللت أساريره كأنه عثر على كنز. سألته قائلاً:

– "أخبار وزارة الثقافة إيه؟"

فضحك مجلجلاً، ثم قال:

- "يااااه لسة فاكر".

- "أكيد دا أنت الوزارة الرسمية والباقي تقليد!"

فضحك ثانية ثم تناول متعلقاته من على الطاولة، وجرني من يدي جرًا نحو مقهى زهرة البستان وهو لا يتوقف عن الكلام والأسئلة والحكايات. لم تتغير هيئته ولكن لكنته السكندرية بدأت تتلاشى. أخرج لي صورة لطفلتيه الصغيرتين، فقد تزوج وأنجب توأمين، وتحول قَسَمه من "ورحمة أمي" إلى "وحياة ولادي"!!. كان يبلي بلاءً حسنًا في مهنة الصحافة فهو بحكم موسوعة معارفه المترامية الأطراف صارت لديه مهنة ثابتة تُدرُّ عليه دخلاً جيدًا في إحدى الجرائد اليومية الخاصة. مهنة الصحافة لم تكن غريبة عنه فوالده كان يعمل محررًا صحفيًا بروزاليوسف في حقبة السبعينات. ترك الرسم وعاد لمهنة الوالد، ولكنه مازال منتشرًا ومتوغلاً ومتشعبًا في المشهد الثقافي أكثر من أي وقتٍ مضى.

كل دقيقتين يمر أحد ما فيقطع "بيبرس" الحديث، ويلتقط يد الشخص العابر ويتبادل معه الحديث ثم يُعرِّفه عليَّ. كان من النادر أن يمر أحد مرتادي وسط البلد، ولا يعرف "بيبرس" أو ليس بينهم حديث عن أمرٍ ما.

سألته:

- "إيه الجديد عندك؟"

- "يووووه كتير.. مابَونِّش.. بفرك طول اليوم.. ورايا مليون حاجة".

- "طبعًا مشاغل الوزارة بقى كتيرة!"

- "يا صاحبي دي مش وزاره دي منظمة.. ولا منظمة الأمم المتحدة!"

مر اثنان من المغاربة وفتاة لبنانية فقدمني لهم، وتبادل معهم حديثًا قصيرًا بينما ظللت أنا أتابع. اتسعت الدائرة وبدأت نشاطات متنوعة، فقد بدأت تتزايد الفعاليات الثقافية. حاليًا يشارك "بيبرس" في تنظيم حفلات لبعض الموسيقيين من لبنان والمغرب العربي، وانتشر على مقاهي وسط البلد فنانون من بلاد مختلفة منهم الأجانب ومنهم العرب الذين بدؤوا في التوافد.

"بيبرس" يتحدث عن أشكال موسيقية جديدة كالروك والريجي والجاز الشرقي، فقد أحيا مسرح الساقية وساحات العرض الصغيرة في وسط البلد الكثير من أشكال الموسيقى والعروض المسرحية المصغرة.

كان لدي فضول فني كبير، و"بيبرس" كان بالنسبة لي فرصة رائعة لاستطلاع الأجواء، فقد كان لديَّ حنين جامح نحو ارتياد دروب الفن الشبابية من جيلي التي نجحت أخيرًا في الظهور كخط منفرد بعد عهود الإعلام الحكومي والثقافة الرسمية التي لم تعطِ الفرصة لأي جديد.

آخر مرة رأيت فيها "بيبرس" قبل سفري كان يومًا لا أنساه قط، وحادثة مازالت صورها مطبوعة في ذاكرتي. كان يومًا صيفيًا حارًا وأنا قادم في طريقي من مكتب السياحة بشارع بسيوني، بعد أن اشتريت تذكرة السفر. رأيت "شهدي التهامي" يصيح في "بيبرس" بشارع جانبي ويسبه بأمه. توقفت مكاني حتى لا يراني الاثنان، وأخذت أتابع ما يحدث. انهال

"بيبرس" على "شهدي" يضربه عندما سبه مرة أخرى، وتطاحن الاثنان حتى سقطا على الأرض، وتمزقت ثيابهما وتناثرت أشياؤهما. شيء ما جعلني لا أتدخل، شعرت ساعتها بأني راحل وتارك هؤلاء خلفي. حال المارة بينهما ومضيت أنا، ولكن ظلت صورت هذا العراك إلى الآن ماثلة في ذاكرتي.

"بيبرس" لم يذكر لي "شهدى" من قريبٍ أو بعيد، ولم أشأ أنا أيضًا أن أذكره.

بالرغم من أن "بيبرس" يجيب كل سؤال باطراد، ولكنه أيضًا كان دائمًا ينهي إجاباته بسؤال. ولأني أحب "بيبرس" وكنت دومًا أعتبره شخصًا محايدًا في أي نزاع كان ينشب بيني وبين أحد أفراد الشلة وخصوصًا "شهدي"، كنت أجيب كل أسئلته ولأول مرة وجدت نفسي أتحدث عن الحياة في الخارج، وأين ذهبت، وكيف صارت بي الأمور.

سألني "بيبرس" عن الكتابة والشعر، فأجبته بأني توقفت عن الكتابة منذ سافرت. لم أكتب سوى بعض المذكرات، فبدى عليه الحزن وتمنى لو أني عدت للكتابة. أخبرته بأني توجهت نحو التصوير الفوتوغرافي فعاد لابتسامته وأخرج حماسته، وانهال عليَّ بقدراته التنظيمية الثقافية محددًا لي مواعيد ثلاثة معارض فوتوغرافيا، ومسابقة، وأسماء بعض المصورين الذين يجب أن يعرفني عليهم.

كان لقائى مع "بيبرس" ممتعًا ومفيدًا، فقد تبادلنا أرقام الهواتف وصفحاتنا على "الفيس بوك". قال وهو يوشك أن يودعني:

- "قشطة.. هظبطك بقى في أي حفلة عاوز تحضرها.. وتجيب "جهينة" معاك".

- "لأ "جهينة" مين.. أنا هجيب الجو بتاعي".

ابتسم مندهشًا، ثم قال :

- "أنت بقالك في البلاد كام يوم.. لحقت تظبط؟!"

ضحكت وحييته مودعًا، فحياني واستدار ليمضي، لمحت على حقيبته عبارة مكتوبة، فناديته وهو يبتعد:

- "أنت كاتب إيه على الشنطة يا بيبرس"؟

التفت ورفعها ليريني الكتابة، ثم قال ما كان مكتوبًا عليها:

- "أنا صاحب واجب".

ثم أردف بعد برهة:

- "موضة اليومين دول بنكتب على التيشيرتات والشنط وكده".

كانت كلمتا "أنا" و"واجب" صغيرتين، وبينهما كلمة "صاحب" مكتوبة بخط كبير.

"بيبرس" مازال يتحرك، يساير كل شيء، ويجاري ما يجد ولكنه أيضًا يرى موقعه تمامًا. مضيت مفكرًا في الكتابة وكلمة "صاحب" الكبيرة قبل أن أقول بصوتٍ مسموع "بيبرس..." وكأني أحاول تجميع عالمه الكبير مع بعضه.

ضجيج في المدينة

كان بيت العائلة كما هو قاتم بنوافذه المغلقة دومًا ولمبة صفراء هناك تضيء مقدمة المدخل الضيق. لم أذهب هناك إلا عند التاسعة مساءًا حيث لا يكون أحد من أعمامي متواجدًا في هذا التوقيت. لم أكن أود رؤية أحدٍ منهم، فقد كنت فقط ذاهبًا لسحب آخر متعلقاتنا من البيت القديم.

الشارع الجانبي الذي شهد أحداث الطفولة يطالعني فأتوقف عن المضي فيه قدمًا حتى لا تدمعني ذكرياته. انحنيت نحو باب الجراج القديم. القفل صدأ والمفتاح لا يتحرك فيه، فأشرت لـ"حاتم" الواقف بجواري كمساعد مطيع فناولني أنبوبة السائل. سكبت بعضًا منه في فتحة المفتاح وهززت القفل، وحاولت الفتح مجددًا فلم ينفتح القفل الصدئ العنيد. همهمت:

– "شكله مانفتحش من سنين".

أشرت لـ"حاتم" فناولني المطرقة. دققت عليه عدة مرات بعد أن لففته

بقطعة قماش حتى لا يصدر صوتًا، ثم حاولت فتحة فانفتح. أصدر الباب صوت حشرجته المعدنية وهو يقاوم حتى رفعناه لأعلى فانساب ضوء الشارع الخافت نحو الجراج الطويل الممتد كخندق من الذكريات. بنى أبي هذا الجراج في سنوات الكفاح، أشعر بأن الجدران هنا تكاد تحدثني عنه. هنا طوبات الجدران مختلفة عن تلك، كان أبي قد بنى هذا المكان عبر الزمن، كل بضعة شهور يبني جدارًا. ركن أصيل ينتمي لرجل ذهب يومًا ما وتركني أصارع ما لم أفهمه. أخذوا المكان عنوة.

كانت تقبع في نهاية الجراج هناك في الظلام. بدت بغطائها الذي يعلوه التراب كتابوت ضخم يحتل النهاية. رفعنا الغطاء ثم أزحناه عنها ببطء فأطلت علينا بشكلها المألوف ولونها الفضي الداكن. ارتسمت ابتسامة طويلة على وجهي وأنا أطالعها.

خبط "حاتم" على سقفها، وارتسمت هو الآخر على وجهه ابتسامة عريضة قبل أن يقول:

- "والله زمان".

تحسستها ماضيًا بأطراف أصابعي على جانبها حتى لمست مقبض الباب، ففتحته ودلفت إلى مقعد القيادة، وجلست أتلمس عجلة القيادة الجلدية ومقبض ناقل الحركة، وأضغط على دواساتها، فتح "حاتم" الباب الآخر ودلف إلى جواري وجلسنا هكذا لبعض الوقت كأننا نجرب إحساس المقاعد الجلدية ونطالع التابلوه. أخرج "حاتم" شريط كاسيت منها، وتفحّصه في الضوء الخافت، ثم ضحك قائلاً:

- "ياااااه محمد منير.. شبابيك".

كنت سارحًا في خضَمِّ ذكرياتي مع هذه السيارة، أطوف على أحداث بعيدة، كم عانيت مع أعطالها، وكم تشاجرت مع أبي من أجل أن أقتنصها في لفة ليلية، وكم سافرت بها وسهرت معها!

أفقت على "حاتم" يشير إليَّ من خارج السيارة وهو يقول:

- "يالاّ ياعم أنت".

قمنا برفع العجلات وحملهم "حاتم" في سيارته؛ ليعيد نفخهم وتركني بقارورة بنزين وبطارية سيارة جديدة، وكشاف وبعض المفكات، واندسست أجول بأصابعي ومفكاتي في وصلات المحرك حتى أعيده للحياة.

عاد "حاتم" بالعجلات وما إن أنتهى من تركيبهم حتى اقترب متفحصًا الموتور قبل أن يقول:

- "هيدور ولا لأ؟"

فقلت وأنا أواصل العمل متحيرًا:

- "مش عارف".

فقال وهو يلقي نظره على الموتور:

- "عيب عليك بجد.. يابني دا أنت فكيت العربية وركبتها حتة حتة.. دا مصنع فولفو مفروض يستعين بخدماتك!"

- "كانت أيام.. العربية دي هي اللي علمتني الصبر.. فاكر.. مكناش نطلع بيها طلعة إلا لما تعمل فينا الفنية، ونخرج لابسين ومتأيفين نرجع مشحمين أو مقطورين أو بنزق!!"

أخرجت من جيبي المفتاح الذي أرسلته لي أمي هذا الصباح بعد إلحاح منها بأن أذهب لاستعادتها لعلها تنفعني في تنقلاتي. أعطيته لـ"حاتم"، وقلت له:

– "دور كده.. بس متقرصش.. الحلوة نايمة من خمس سنين".

حاول "حاتم" فأصدرت زمجرة ما، ثم صمتت تمامًا. حاول مجددًا ولكنها كانت تعاني و لم تفلح في الاستجابة. انتقلت أنا لأجرب وتذكرت علاقتي بموازينها، تذكرت متى أضغط ومتى أترك، كانت لها حساسية خاصة في التعامل فأغمضت عيني وأنا أتذكر ما كنت أفعله قديمًا، وأحوله لجهازي العصبي ليدير العملية.

حاولت وحاولت عدة مرات حتى دوّى صوت المحرك عاليًا يدور، مصدرًا ضجيجه المألوف. ضحك "حاتم" وهو يمسح الشحم عن كفيه وذراعيه، ويقول:

– "أيوه .. أيوه .. الحلوة اتكلمت.. الحلوة اتكلمت".

يهز رأسه طربًا كأنه يستمع لحنًا يعرفه جيدًا.

تحركت كمركب يعود لمجرى النهر بعد موسم جفاف طويل، فصدر عن عجلاتها صرير ومن أسفلها أصوات عدة. أشار "حاتم" بقلق لي كي أسرع حتى لا ينتبه الجيران أو أبناء عمومتي بأعلى، وقفز إلى سيارته وتركنا الجراج مفتوحًا خاويًا ككهف للفراغ، وانطلقنا بسيارتي وسيارته. ونحن منطلقون لمحت في المرآة نوافذ تُفتح وأنوارًا تومض هناك في منزل اللعنات.

قطعنا مسافة كبيرة والسيارة القديمة الكبيرة ذات المحرك الكبير المزعج

تسير مدوية في طرقات المدينة. ما إن وصلنا إلى وسط البلد حتى ركن "حاتم" سيارته في عجالة، ثم قفز إلى جواري وعيناه تلتمعان بنشوة، ثم سألني بحماسته الطفولية:

- "مش هنضفها؟.. تعالا نروح البنزينة".

هززت رأسي دلالة على النفي فقال:

- "ما أنت مجنون.. خلاص خلينا كده.. الناس بتتفرج علينا في الشارع كأننا أهل الكهف!"

فسخرت قائلاً:

- "آلة الزمن!"

ضحكنا ضحكاتنا المجلجلة وصرنا بالسيارة المغطاة بالأتربة إلا من قوسين نظفتهما الماسحات الأمامية، وعرجنا على المقهى فوجدنا "جهينة" يطل برأسه من الداخل وكأنه يرى شيئًا أسطوريًا لم يحدث من قبل، وكعادته بقى يتفحّص الأمر صامتًا لبرهة من الزمن قبل أن يهتف:

- "سبحان الله .. يحي العظام وهي رميم".

خبط كفيه ببعض، ثم دار حول الطاولات حتى يخرج لنا وهو في غاية التعجب، مبتسمًا ابتسامته الولعة. أشرت له بأن يركب ففتح الباب الخلفي ودلف. بادره "حاتم" قبل أن يتحسّس الأتربة من حوله قائلاً:

- "في عنكبوت عندك، متشيلوش أصله عزيز على الأخ.. هييجي معانا!!"

رد عليه "جهينة" وهو يجلس معتدلاً باللغة العربية الفصحى:

– "إذن صار علينا أن نحلّ ضيوفًا أعزاء على مواطني أسرة العناكب".

فرددت عليه ساخرًا:

– "أبو العناكب المعرِّي يا جدعان!"

ضحكنا إلى أن هتف "حاتم" بنشوة:

– "دووووووس".

ضغطت بقسوة على دواسة السرعة، وانطلقنا وكأننا على مضمار سباق. كنا منتشين في حالة نشوة وطرب، وسرنا على الكوبري –فدخل الهواء من نوافذ السيارة المفتوحة– عابرين النيل و"منير" يغني:

"الكون كله بيدور واحنا وياه بندور..

واليوم بحر نعديه للِّي احنا بنحلم بيه".

أما نحن الثلاثة فكنا نتمايل مع ريتم الأغنية نغني ونصفق، كنا نتحسّس في الفولفو زمنًا رائعًا افتقدناه، زمنًا حرًا كنا ننطلق فيه دون رادع، زمنًا مرحًا وصخبًا لشباب كانوا يخدرونه بالضحك واللعب وأحيانًا الغناء. اهتزت السيارة بقوة وهي تنطلق وأنا أضغط على دواسة الوقود بقوة فيصدر محركها جلبة وعجلاتها ضجة تلفت انتباه السيارات المارة بجوارنا. كأني أشعر بها تتخلّص من غبار الزمن الساكن، ماضية نحو رياح الطريق.

تعلو أصواتنا مع صفقاتنا، منتشية مع الأغنية:

"على جسر الليل ماشيين وقمر ليالينا حكاية..

ما بنعرف امتى وفين هتكون للرحلة نهاية".

الزمن الساحر

ما أجمل الحياة عندما تشعر بأن هناك موسيقى رائقة تعزف في الخلفية! شيء يجعل في إيقاع حياتك ريتمًا موزونًا يُخفِّف من ثقل الخطوات، ويجعل لمشيتك خفة. ما أجمل الحب عندما يكون هناك في انتظارك عندما تصحو كل صباح أملاً يتناثر في لحظات حياتك فيجعل لها وقعًا رائعًا وسياقًا جميلاً.

تطالعني "فريدة" بوجهها الساحر، وضحكتها الصافية لها مذاق كأنها كريمة بيضاء، كانت تجلس خلف الزجاج بداخل الكافيه بينما أنا في الخارج أطل عليها مبتسمًا. أشارت لي أن أدخل ولكني لم أتحرك من مكاني وظللت أطالعها، ثم أشرت لها بأن علينا أن نمضي. أشارت هي لي بأن أدخل. أشرت للشمس وللجو الجميل فلم تتجاوب، وأشارت بأن

أبقى أنا في الخارج إن أردت وهي تخرج لسانها وتبتسم وكأن الأمر لا يعنيها، ثم تصنعت الانهماك في الرسم. لسبب ما كنت أريد أن أجعل هذا اليوم مميزًا، لم أكن أعرف ما سبب هذه الحالة التي طغت عليَّ. كان صباحًا شتويًا مشرقًا، ومناخه رائع، وكنت في حالة مزاجية رائعة. كأن هناك موسيقى محببة لقلبي تعزف في الخلفية وأنا منساق خلف جنوني. أشعر بأني سوف أرقص في الطرقات إن انطلقت.

كان إلى جوار الكافيه الشهير مدخل عمارة وكرسي بواب خالٍ. سحبت الكرسي وجلست، فكنت أمام الزجاج ولكن من الخارج وظهري لها. أخرجت سيجارة لأدخنها. مر عليَّ بائع الجرائد فاشتريت منه الجريدة ومضيت أتصفّحها. يمر عليَّ الناس في الشارع فيطالعوني باندهاش، أما عامل الكافيه فأطل من الباب الزجاجي يدعوني للدخول. غمزت له بعيني فابتسم وعاد للداخل. نقرت لي "فريدة" على الزجاج من الداخل فتجاهلتها وتصنعت الإنهماك في قراءة الجريدة. خرج لي العامل من الداخل ثانية، وأخبرني بأن الآنسة تبلغني بأني مجنون، وأسبب لها الحرج وعليَّ أن أدخل.

لم تمضِ سوى دقائق حتى خرجت لي وهي تحشر أشياءها العديدة في الحقيبة الكَبيرة، وتنادي:

– "يالاّ يا مجنون..."

نظرت لها بسذاجة وكأنني لم أفعل شيئًا، فتعجبت واتسعت حدقتاها ثم قالت:

- "إيييه؟"

فقفزت من فوق الكرسي فجأة، وقذفت بالجريدة جانبًا ثم جذبتها من يدها لأعبر بها الشارع، فهتفت:

- "والله مجنووون.."

بالفعل اليوم كنت مجنونًا وكأنَّ عقلي ودعني، وخرج مني نزق طفولي كنت أفتقده، تلك الألعاب الصغيرة التي كنا نمارسها مع بعضنا البعض كانت تحررني من جمودي.

مضى بنا الصباح هكذا، كان كل ما هو طفولي نفعله دون تردد. تسابقنا على التهام أكبر قدر من الشيكولاتة في أسرع وقتٍ ممكن. كنا نبتلعها وكأننا لصان فجعان حتى تلغمطت وجوهنا وأيدينا بالشوكولاتة.

عبرنا كوبرى قصر النيل في قرابة الساعة أمضيناها في التقاط الصور الطريفة، كانت "فريدة" محترفة في صنع صور طريفة عندما تبدل ملامح وجهها، أو عندما تمثل حركات ما. فهذه صورة لها وهي تقف على قدم واحدة وترفع الأخرى في الهواء، ممسكة برباط حذائها وكأنها تمتطي شيئًا ما. أصورها من أسفل فتكون السماء خلفية الصورة عندها تحرك ذراعيها فتبدو وكأنها تطير وخلفها برج القاهرة. تقف في منتصف الكوبري وتقلد وقفة "سعد زغلول" وإشارة يده. يعاكسنا المارة والسيارات ولكننا لم نبالِ. تمددنا بإحدى الحدائق فوق النجيل الأخضر ننظر للسماء. كنا نتذكر مفردات الطفولة المضحكة مثل قنوات التليفزيون الحكومي في فترة الثمانينات وبرامج الأطفال والفوازير حتى الأغانى الشهيرة لتلك

الفترة أخذنا نسترجعها ونغنيها. يبدو أن كل أطفال هذه الحقبة لديهم نفس الذكريات. نحن أبناء القناة الأولى والثانية كنا نشاهد نفس الأشياء، ولم يكن لدينا غيرها. كان لهذا الزمن طعمه الخاص، وكان جميلاً جدًا أن نتذكره ونستعيد تفاصيله.

كنت في حالة انسجام مزاجية، وكلما حكيت لها حكاية من طفولتي كانت تضحك دون أن تتوقف وأنا مستمر في الحكي، ولا أعرف لماذا اليوم شعرت بأن كل قصص طفولتي كانت مضحكة وهزلية بشكلٍ منقطع النظير.

وضعتها في الأرجوحة، وأخذت أدفعها ونحن نتجاذب الكلمات القصيرة، تصادقنا مع الأطفال في الحديقة، ولعبنا مباراة كرة معهم حتى أصابنا الإرهاق. ركبنا الأتوبيس النهري على سبيل التجربة فكلانا لم يجربه من قبل، فأخذنا إلى المعادي وعدنا في عربة المترو المزدحمة. كانت قريبة مني فكنت أهمس في أذنها فتضحك، وأضحك. كنا نجذب الانتباه بضحكاتنا العالية في كل مكان.

هبط الليل فأكلنا (كشري) وتسابقنا في كميات الشطة التي أفرغناها في أطباقنا، ثم تسابقنا في شرب زجاجات المياه الغازية الكبيرة على دفعة واحدة؛ لإطفاء نار الشطة التي ألهبت جوفينا. انتهينا على مقهى صغير نلعب الطاولة، كانت غير محترفة وتقذف بالنرد بعيدًا وأقوم لأبحث عنه، فكنت ألقي بالنكات "طب ما نلعب على الأرض، أحسن" "أجيبلك زهر بأستك". حظ المبتدئين وغروري ملكناها من هزيمتي، فظلت تقفز

فرحة طيلة الطريق من المقهى للميدان وكأنها فازت للتو بكأس العالم في الطاولة.

عندما وصلنا ميدان الأوبرا دق هاتفها فابتعدت عني بضع خطوات، أصاب ملامحها تغير مفاجئ، وبدت كأنها تجادل أحدًا ما على الطرف الآخر.

تركتني في عجالة فظللت مكاني لبضع دقائق حائرًا وانطفأ كل ما كان بي من جموح، وبدأ هواء قوي بارد يلفحنى فيتسلل لجسدي. أصابتني البرودة وتحسست هاتفي في جيب المعطف فتذكرت أمي فجأة.

إنها محاولة فاشلة ولكني لسببٍ ما قررت أن أستمع لرنين الهاتف الذي يطنّ في فراغ أجوف دون مجيب. أعاود أدراجي فتهزني رياح عتية عند التقاطع المفتوح على مصراعيه للسيارات المسرعة.

مطر وإيقاع في وسط البلد

أمطرت بشدة في مساء إحدى الأمسيات وبقيت أنا و"جهينة" جالسين على أحد الخزانات المعدنية العريضة، تلك التي يمتلكها باعة الجرائد، ليصفّوا عليها الجرائد والكتب في الصباح، ثم يخزنوها في داخلها في المساء. رحل بائع الجرائد بعد أن هبط المطر الكثيف فأوينا لها أنا وصديقي. لأول مرة تمطر بغزارة هكذا ربما منذ سنوات بعيدة، ليلة ممطرة صاخبة لم تشهدها المدينة الجافة منذ زمن، انطلق البرق يومض في أفق السماء المطلة من أعلى البنايات. يهرب الناس من المطر نحو بيوتهم أو يحتموا تحت مظلات المتاجر أو في مداخل العمارات. السيارات تعدو في شوارع وسط البلد، تطيح بماء المطر المتجمّع في برك نحونا ونحن جالسون. نرفع أرجلنا لأعلى متفادين الأمواج الطائشة بين الحين والآخر، فيضرب

الماء الخزانة أسفلنا وكأنه موجة مصدرًا صوتًا. كنت أخبئ رأسي في غطاء الرأس الخاص بالجاكيت، أما "جهينة" فكان يُحكم الكوفية حول عنقه.

بدأت أدندن بإيقاع ما وكأني أجارى إيقاع المطر، ومالبث أن أمسك "جهينة" بالمقام وبدأ هو الآخر يدندن معي الإيقاع. ارتفعت أصواتنا واندمجنا في صنع الإيقاع. قام "جهينة" فجأة وذهب نحو برميل متوسط الحجم عند حافة الرصيف يضعه أحد ما كحجر عثرة حتى لا تركن السيارات أمام متجره. أتى "جهينة" بالبرميل ثم جلس واضعًا إياه بين قدميه. نظر لي ثم بدأ يدقّ عليه بيديه مجاريًا إيقاعي فما كان مني إلا أن اتخذت من قاعدة الخزانة المصنوعة من المعدن تحتي آلة إيقاع وانطلقت أجاري نقراته. يلقي علينا الناس نظرة تعجب وهم يهرولون هربًا من المطر. بعد حين من عزفنا المتواصل توقف عندنا ثلاثة من المراهقين، واندمجوا في الإيقاع ثم مالبث أن انضم إلينا عسكري المرور وحارس البنك المجاور بدافع الفضول والفرجة.

صنعنا تجمعًا صغيرًا على الرصيف يتكون من فريقين أحدهما عن يميننا والآخر عن يسارنا. اندمج "جهينة" في عزفه على البرميل كعازف محترف يقرع آلة إيقاع، وقد كان البرميل المجوف يصنع صوتًا رنانًا، أما آلتي المسطحة فكان صوتها فخيمًا. أنظر له وينظر لي فنبتسم بسعادة ونعزف ضاربين بقوة نقراتنا المتوالية السريعة. انتشينا وكان التجمع كله يبدو عليه سعادة ما، ووزعنا على بعضنا السجائر. أغرقتنا السيارات المسرعة الواحدة تلو الأخرى وبللنا المطر المنهمر ولكننا لم نبالِ، ومضينا نعزف

وكأننا فرقة إيقاع، ويطالعنا الجمهور الصغير الملتف حولنا وشارك بعضهم بصفارته وتصفيقه.

عزفنا إيقاعًا سريعًا متواصلاً متناغمًا مع إيقاع المطر المنهمر.

لم نبرح وسط البلد في تلك الليلة فكنا نعربد على الأرصفة الغارقة في الماء، ونخوض في الماء غير مكترثين، متنقلين من شارع إلى آخر. كنا مبتلين تمامًا وكأننا خرجنا للتو من البحر. شربنا شايًا بالنعناع على مقهى صغير بأحد ممرات شارع "شريف" فدفئنا قليلاً، ثم تابعنا المسير فصادفنا عربة بطاطا مشوية يختبئ بها صاحبها في شارع جانبي فابتعنا بطاطا ساخنة. ثم في آخر الليلة جلسنا في ميدان الأوبرا القديم أمام تمثال "إبراهيم" باشا الذي كان في أوج بريقه بعد أن غسله المطر. ظللنا نتحدث عن أيِّ شيء وكل شيء.. عبارات مسترسلة، صمت، إيماءات، همهمات كلها تدور في أريج الهواء النقي المنعش بعد هدوء المطر.

شجرة طلعت حرب

كان ينادي بصوتٍ جهوري:

- "يا حسين ... يا حسين".

عرضت عليه المساعدة ولكنه رفض في بادئ الأمر، ولكن عندما ألححت وافق وسلَّم لي يده قبل أن يقول بنبرةٍ قلقة:

- "وديني عند الشجرة اللِّي في الناحية التانيه.. عاوز أعدي الناحية التانية".

للوهلة الأولى تعجبت، وظننت أنه قد ضل الطريق ولا يعرف أين هو الآن. تلفتُّ حولي في ميدان "طلعت حرب" وأنا على ظنِّي بأنه ربما يقصد مكانًا آخر، ولكني اندهشت عندما رأيت الأشجار، فعلى نواصي الشوارع المتفرعة من الميدان كانت هناك شجرة على جانبي كل طريق

متفرع من الميدان. إنه لأمر عجيب فلأول مرة ألاحظ هذا وأنا الذي مررت بهذا الميدان آلاف المرات!

تساءلت ياتُرى أية شجرة التي يقصدها؟، فسألته وأنا آخذ بذراعه تحت إبطي لأقوده:

- "أنهي شجرة يا حاج؟... اللِّي عند جروبي؟"

فقال مستنكرًا:

- "لا لا.. جروبي ده بعيد.. أنا رايح عند الشجرة اللِّي في الناحية التانية".

فكرت قليلاً ونظرت حولي مجددًا، فنحن نقف على ناصية شارع قصر النيل من ناحية الميدان، ومعظم الأشجار تقع بالفعل على الناحية الأخرى فتُرى أيهم يقصد؟ أردت أن أستفسر منه ثانية عن الشجرة التي يقصدها، ولكني شعرت بالحرج لسببٍ كان بسيطًا، فأنا المبصر وهو الكفيف.

قطع حيرتي موضحًا:

- "الناحية التانية من صبري أبو علم".

فانتبهت أنه يقصد الناحية الأخرى من الشارع وليس الميدان، فالأمر كان أبسط مما تخيّلت فجذبته برفقٍ وسرنا.

على بعد بضع خطوات عندما لا مست عصاه ذات الطرف المعدني منزلاً لجانب الرصيف منزلقًا، صاح فرحًا:

- "أهوه ..المنزل .. أهوه".

هبطنا جانب الرصيف ووقفت أطالع عداد الثواني للإشارة حتى تنفتح لعبور المشاة إلى حيث تقف شجرة شامخة علي ناصية الطرف الآخر من شارع "صبرى أبو علم"، وفي الأثناء تحدث إلي الرجل:

- "أنا كنت مستنى "حسين" بس الظاهر إنه مجاش... أصل "حسين" هوه اللِّي بيوصلني كل يوم".

- "أنا سمعتك وأنت بتنادي عليه".

بدا عليه الحرج وهو يقول:

- "والله أنا أسف أكون عطلتك معايا، وأرجو إني مكنش تعبتك".

فقلت بود محاولاً رفع الحرج:

- "لا يا حاج ولا يهمك".

فقاطعني مُلحًا في أسفه:

- "لأ أنا مكنتش أحب أعطلك".

فلم أجب وواصلنا واقفين ننتظر العبور، أطالع أنا الشجرة والعداد الذي عندما انتهى من العد التنازلي صار يضيء باللون الأصفر المتقطع لفترة طويلة والسيارات تعدو من أمامنا منطلقة نحو الميدان. أخذ الكفيف يطالع السماء، ثم واصل كلامه فقال:

- "لسة العربيات موقفتش علشان احنا لسة بدري، والشوارع لسة مهدتش، متأخرتش أنا النهاردة".

عندما انفتحت الإشارة جذبته فانساق معي لنعبر الشارع، ثم تابع حديثه قائلاً:

- "أنا بحسب طريقي بالخطوة، أصل أنا في رأسي الخريطة".

عندما قطعنا الطريق إلى نهايته، ودقت عصاه حافة الرصيف الرخام المرتفع على الطرف الآخر، تهلّلت أساريره وصاح:

- "أه وصلنا.. هنا الشجرة".

صعدت به لأعلى جانب الرصيف والتفت لأتأمله مليًا، كان طويلاً، عريض الكتفين، ذا قامة شامخة ووجه أبيض ناصع لا تشوبه شائبة، وعينين هائمتين وراديو أسود صغير معلق في رقبته، كانت في وقفته عظمة واعتزاز ما رغم تواضع ملابسه، أما صوته فكان رخيمًا عميقًا وكأنه يصدر من آخر رواق.

مد يده لي مودعًا فالتقطتها في لهفة، فإذا به يشدّ على يدي طويلاً كأنه وداع ملوك ولسنا رفقاء طريق، ودَعني الرجل وداعًا حارًا كأنه صاحبني لأيام طوال وليس لعشر دقائق هي زمن عبورنا إلى الناحية الأخرى. حيّاني وشكرني وطمأنني بأنه بعد الوصول للشجرة يصير الأمر بسيطًا وفقًا لخريطته. مضى في طريقه يدق الأرض بعصاه في خطوات محسوبة، وتركني في حيرةٍ من أمري صامتًا أسفل الشجرة.

سألت نفسي: كيف يرى الكفيف هذه الشجرة، ويصنع منها علامة له تدله؟ ما هذه الرموز الغريبة التي تحتويها خريطته؟ وهل من أحد يُعلّم طرقات وسط البلد المتشابكة كالمتاهة بشجرة؟!

شتّان ما بين خريطتي وخريطته، رموزه البسيطة البديهية ورموزي المعقدة. يا هل تُرى ما شكل خريطته المرسومة بنقرات عصاه وعدد

الخطوات، وأصوات المارة والسيارات، والشجرة القائمة عند الناصية تقف في المطلق المظلم بأفقه؟ كيف يرى وحده تلك الشجرة التي لم ألحظها يومًا؟

الآن تيقنت بأنّ البصر معقد وخادع، ومضلل أحيانًا، وأن الحدس أصدق برموزه وخطوطه البسيطة والمحسوسة.

تلفتُّ حولي في الميدان الواسع فرأيت الطرقات متشعبة الاتجاهات، فتساءلت مرهقًا وحائرًا:

- "هوَّ أنا كنت رايح فين؟؟؟؟".

تميمة جيفارا

وشم "تاتو" على ظهر يدها، وبادج دائري تشبكه في صدر حقيبتها، وأحيانًا كانت ترتدي صورته في قلادة تعلقها على صدرها. كانت تروي أساطيره وكأنه بطل خرافي والرمز الأبدي للنضال والحرية. ما بين الحين والآخر كانت تحشره في الحديث.

"تشيي أرنستو جيفارا" كان رجلها المثالي وأيقونتها الأثيرة.

لم يشغلني ولعها بـ"جيفارا" كثيرًا بعد أن اكتشفت أنها لا تعرف الكثير عن الرجل، ولعلها لم تقرأ حتى مذكراته، كل ما لديها هو مجرد معلومات عامة. "جيفارا" دائمًا أيقونة التمرد والثورية لدى الشباب، و"فريدة" ذات الخيال الجامح كان لابد أن تجد في "جيفارا" شخصية مؤثرة وإن بدا شغفها به مبالغًا فيه كثيرًا.

النزق الجارف وتمائم "جيفارا" وأيقوناته التي تطالعني بها طوال الوقت

شكل أمامي خطوطًا متشابكة لم أفهمها بعد في شخصية "فريدة".

مازلت أبحث في "فريدة" عن الأشياء التي لم أعرفها، لعلني أفهم تقلباتها أو أجد تفسيرًا لأشياء غامضة صارت تباغتنى بها بين الحين والآخر. لكني في النهاية لم أكن لأصل إلى خطٍ ما واضح. في نقطة ما تتوه المعالم وتتفرق الخطوط فجأة.

كان أمامي خياران لا ثالث لهما، فإما أن أرسم خريطة محددة لتوجهات تلك الفتاة، أو أن أظل كما أنا وأتعامل معها بحدسى ولتذهب بي الريح أينما مضت كمركب شراعي ترك مصيره لتيار الهواء الجارف.

فتاة مصر الجديدة كانت دومًا هادئة، ولكن في الجانب الخفي كانت هناك فتاة شغوفة بأشياء عدة لا يستطيع أحد حصرها. مع الوقت بدأ شغفها يطل ويظهر ويأتي تباعًا.

في الليالي التي نحضر فيها العروض أو الحفلات كنت أوصلها للمنزل. الشارع التي تقطن فيه هادئ من شوارع الزمن القديم، به بنايات قديمة وبعض الفيلات وأشجار صفصاف عالية. أسرتها صغيرة ولها أم وأب لديهما مكتب سياحة صغير متخصص في تقديم رحلات سياحية لعملاء محدودين من الطبقة الراقية.

جدها لأبيها أصوله إيرانية تنحدر من مدينة أصفهان. قَدم لمصر للتجارة واستقر بها، وكان أحد الأثرياء الذين أممتهم الثورة، أما الأم فمن عائلة دبلوماسية عريقة.

لـ"فريدة" أخت واحدة متزوجة وتعيش في فرنسا مع زوجها. حياة

"فريدة" الأسرية هادئة كما حكت لي، لا تفعل شيئًا في البيت سوى أنها ترسم وتداعب قططها وتنام.

أكثر ما كان يستهويني هو حكاياتها عن الطفولة وأيام المدرسة وكأنها "أليس" في بلاد العجائب. كانت بالكاد تعرف أي شيء عن العالم الخارجي، ثم فجأة عندما انتقلت إلى الجامعة وجدت نفسها في عالم صاخب عجيب. كليات الفنون ممتلئة بالنماذج المختلفة والشخصيات النقيضة والبوهيمية. تاهت وسطه "فريدة" تلك الفتاة القادمة من مدرسة الراهبات، وأسرة أرستقراطية وحياة ذات مفردات بسيطة. حاولت "فريدة" أن تجد نفسها في هذا العالم المتشابك، حاولت أن تصنع لنفسها شخصية فتقلبت بين كل التيارات التي صادفتها في الكلية.

حتى الحجاب ارتدته في الكلية بعد أن انجذبت لأحد الشباب التابع للتيار الديني، عندما كان كل الشباب يلهثون خلف جمالها كان هو الوحيد الذي صدمها برأيه فيها، هو الوحيد الذي قال لها في وجهها "مفيش فيكِ حاجة شدّاني". كانت تلك هي صدمتها الثانية بعد صدمة السنة الأولى في الكلية، السنة التي قضتها في محاولة فهم عالم لم تشاهده من قبل. ذلك الشاب كان جذابًا ووسيمًا وذا شخصية مؤثرةً. كان من الإخوان المسلمين، وكانت له شلة خاصة، يوزعون الأدعية في فناء الكلية ومنهم أيضًا فتيات محجبات يدعنَّ للحجاب. تأثرت "فريدة" بمناقشاتها مع هذا الشاب الذي كان –على حد وصفها– متميزًا، حاولت التقرب منه حتى نجحت في اقتحام عالمه ولكن لم تمض شهور حتى اكتشفت أنه لم يعد في هذا العالم وفي هذا الفتى ما يستهويها ويدفعها للمواصلة.

في الوقت الذي أحبها وأبدى رغبته في الزواج منها ابتعدت عنه. كانت صغيرة السن لم تبلغ العشرين وتتطلع لمعرفة الحياة والناس بفضول، و لم تكن تعرف بأن الأمور قد تتحول إلى هذا. لم يتبق من تلك التجربة سوى تأثر ديني، وذلك الحجاب الذي مازالت ترتديه.

أتوه في حكاياتها وهي تحكى دون توقف، تحكي لي في المقهى، وفي المطعم، وفي طريقنا، وعلى الهاتف طوال الليل، وحتى على الإنترنت... أثير ممتد من الحكايات لا يقطعه سوى تعليق ساخر ألقيه فتغطي وجهها بكفيها من الضحك، ثم تلكزني حتى أتوقف لأتأملها مليًا وابتسامتي لا تفارقني. كنت دائمًا أجد في قصصها ما يستحق الضحك، ربما كان هو هذا التناقض العجيب في مسار حكاياتها، أو ربما في تعبيراتها اللذيذة الشقية.

"فريدة" أثناء رحلتها في سنوات الكلية كانت تتقلب بين الأشياء الكثيرة التي صادفتها، ولا تلبث أن تجرب وتقلد فقط لتكتشف ما يدور، ولكنها لم تنهمك في أي شيء حتى النهاية على مايبدو.

أيقونات "فريدة" كثيرة أخذت أكتشفها مع الوقت الواحدة تلو الأخرى. متيمة بـ"جوني ديب"، لغرابة أطواره وبشرته البرونزية، وشعره المتهدل. تعشق "أحمد فؤاد نجم"، وتود لو تتزوجه إذا كان لديه نية للزواج مرة أخرى! تستمع لـ"بوب مارلي" و"البيتلز" والشيخ "إمام" طيلة الوقت.

الشخصيات الثورية ذات النزق الجارف كانت شخصيات تؤمن بها "فريدة" وتتماشى معها. كانت تلك الأشياء مفاجآت بالنسبة لي، هدوء "فريدة" لم يكن يوحي بأي من هذا.

خرجت إليَّ اليوم بطلب غريب، سنذهب لزيارة مشعوذ ما أو أحد الشيوخ كما قالت. كانت لديها صديقة تترد على هؤلاء المنجمين، فألحت عليها "فريدة" أن تدلنا على الرجل.

في حي المعادي الهادئ دلفنا إلى شقة صغيرة ومنها إلى غرفة تقع في فناء خلفي. الرجل العراف كان يرتدي عباءة سوداء مغربية طويلة، ويجلس على مقعد عالٍ. لم ينظر ناحيتى مطلقًا وكأنه كان يتفاداني لسببٍ ما. كان كل تركيزه منصبًا على "فريدة". كانت دائمًا "فريدة" هي مثار الاهتمام كلما دلفنا إلى مكان. شيء ما بوجهها أو عينيها مثير للانتباه حتى لو لم تنطق بشيء.

العرافون الجدد ليسوا أصحاب أضواء خافتة أو بخور أو كرامات. التكنيك صار مختلفًا تمامًا، فالموضوع يشبه جلسات اليوجا والعلاج الروحانى والتأثير النفسي، وخليطًا من أشياء أخرى كثيرة ومنها الدين.

الدين هو مدخل لكثير من الأشياء التي تتيح السيطرة على الآخر وخصوصًا في مجتمعنا، فما إن تصبغ الحديث بخطٍ ديني ومصطلحات سماوية حتى يعطيك الناس مدخلا أماميًا مفتوحًا علىٰ مصراعيه؛ للولوج إلى عقولهم والتأثير عليها.

جلست "فريدة" القرفصاء على مقعد عالٍ في مقابلته، وأمرها أن تغلق عينيها وتأخذ نفسًا عميقًا. طلب منها أن تتخيل هذا النفس وهو يدخل في جسدها، وأن تمضي معه في أعماقها. وبعد حين من الوقت استغرق عدة دقائق سألها أن تصف له ما تراه داخلها الآن.

تقول وهي مغمضة العينين بأنها ترى بيتًا أمامها نوافذه من زجاج مكسور، سألها أن تدخل البيت وتصف له ما تراه.

ترى "فريدة" الآن غرفتين إحداهما صاخبة والأخرى هادئة، تود أن تستريح في الغرفة الهادئة، ولكن الغرفة التي تصدر الضجيج كانت تجتذبها أكثر...

انقطع الحديث ولم تكمل. سألها مجددًا عما تراه ففتحت عينيها، وقالت "مش عارفة". طلب منها أن تأخذ نفسًا آخر، وتحاول مجددًا.

تحكي مجددًا بأنها هذه المرة ترى أرففًا وعليها فازات. سألها أن تحصي عددهن، فقالت "تسع". طلب منها أن تبحث عن الفازة العاشرة. فلم تجب.

ضحكت بصوت عالٍ فتحول نظره نحوي ينظر لي بتفحص، ثم ما لبث أن تجاهلني. كنتُ قد بدأت أجمع الخطوط الآن وأرى القصة بوضوح، فقد قرأت كثيرًا عن أساليب التأثير، وفي أسيا صادقت بعض الأشخاص الذين كانوا يعملون بتلك المهنة.

عندما سأل عن الفازة العاشرة ضحكت؛ لأنه بدأ العبث ومحاولات التلاعب بعقل الشخص الجالس أمامه كما يتم في حالات التنويم المغناطيسي. ما قاله لا يعني شيئًا عن الإطلاق، هو مجرد جر رجل في اتجاهٍ يريد أن يرسمه هو وليس الحقيقة التي في جعبتها.

أنت تعطيه خطًا ما، وهو ينسج عليه محتوى ما سوف يقوده ببراعة. سوف يتلو عليك كلامًا متواليًا مرصوصًا ومؤثرًا، ما إن تستمع إليه كله دفعة واحدة حتى تكاد تصدقه. في سياق يصنعه من خلال بعض

المعلومات التي يسمعها منك، والتي يستشف منها الكثير بقوة حدسه وفراسته وخبرته التجريبية. هذه الطريقة التأثيرية تسيطر على حواس الناس في وقت قصير، السرد السريع المتخم بالكلام الموزون والمنتقي، والذى يحتوي على إشارات خفية مبهمة له دائمًا وقع قوي.

حضور بديهي براق، ورد فعل سريع، وقدرة على سرد كلام مطاطيّ كمثل الذي تجده في كتب الأبراج والحظ، كلام مثل "أنت شخصية عنيدة وذكية وحساسة" كلام تستطيع أن توجهه لأي شخص وسيصدقك؛ لأنه كلام بالضرورة عام ومرضٍ.

بدأ يعيد اللعبة ثانية وأنا أتربص به حتى تواتيني اللحظة التي أقلب فيها عليه الطاولة. لن أدعه يعبث بذهن المسكينة المنساقة.

سألها عما حدث من أربعة أيام بالتحديد. فحدقت به "فريدة" فلم يصمت، وانطلق مجددًا ليسألها عن شخص يزورهم في البيت فلم تجد ما تقوله، فقال لها محذرًا "هذا الشخص ذو نوايا سيئة ونجس" ثم استعاذ بالله وهو يرسم على وجهه تقوى وورعًا.

دلفت أنا في الحديث دون دعوة، وسألته عن ما يقصد بما حدث من أربعة أيام؟

تجاهلني وكأنني لم أقل شيئًا، وعندها أدركت أني أصبته فبدأ يهتز أمامي. قلت موجهًا الكلام لها:

– "يالاّ بينا، لأن الرجل ده دجال وأنا قلتلك من الأول".

بهت الرجل ونظر لي شذرًا والغضب يكسو وجهه، أما هي فأصابتها

الدهشة والخوف. نظرت إليه بتفحص وأنا أقف إلى جواره وأحدق فيه:

– "فازة غاشرة إيه؟ ومن أربع أيام حصلك إيه؟!.. بتضرب أرقام علشان تحسس اللِّي قدامك أنك عارف إيه حصل بالظبط، وتبرجل اللي قدامك فيقول بس دا الرجل ده بيعرف حاجات.."

نظرت إليها وتابعت:

– "حصلك إيه من أربع أيام؟"

أجابت وهي خائفة:

– "مفيش طول اليوم، كنت نايمة في البيت.. كان عندي برد".

نظرت له وقلت:

– "أنا بقى بوظت عليك اللعب.. خلي العفريت بتاعك بقى يأذيني لو تعرف يا عم الشيخ.. هات الفلوس اللي دفعناها برة يا بن النصابة!"

انكمش في كرسيه فأمسكت به من عباءته وقلت:

– " هتجيب الفلوس ولا أقولك أنا أيه هيحصلك بعد أربع أيام؟"

أخرج من جيبه المال فاقتنصته من يده، وخرجنا نحو الشارع و"فريدة" تكاد لا تصدق ما حدث. مشت إلى جواري وأنا أدخن وصامت. ما إن وصلنا منزلها حتى قالت بصوتٍ خفيض:

– "يا خسارة كان نفسي أسمع بقية اللِّي هيقوله عني".

نظرت لها وهرشت في رأسي، ثم قلت وأنا أرحل:

– "مفيش فايدة!!"

صديق الأرصفة

أطل علينا من الخارج "فتله" بكرشه الكبير ووجهه الدائري الممتلئ المبلل بالعرق، هذا الوجه الطيب الذي لا تخطؤه عيناي قط. قال بلهفة

– "حمدلله على السلامة يا سعادة الباشا".

ضحك "جهينة" وهو يتابع "فتلة" الذي لف من أمام الشرفة، قاصدًا مدخل المقهى الجانبى، متجاوزًا بجسده السمين بصعوبة بعض المنتشرين بكراسيهم عند المدخل. قال "جهينة":

– "مغناطيس انت؟! بيشموا ريحتك ولاّ إيه؟"

ابتسمت وأنا أمد يدي لمصافحة "فتلة"، ولكن لهفته جعلتني أقوم وأحتضنه. قلت له:

– "هات كرسي".

ذهب وأتى بكرسٍ، وهنا هتف عامل المقهى معنفًا إياه:

– "يا زفت متقعدش على الكرسي".

فترك "فتلة" الكرسي بخجل. لم تكن المقاهي تترك "فتلة" يجلس حيث كانت رثاثة ثيابه تثير الحرج لهم، كما أن وزنه الزائد وأرجحته الدائمة فوق الكراسي تخلخلها أو تكسرها، ولذلك كان دومًا يجلس على الأرض. كان صديقًا للأرصفة بطبعه أينما حل.

اسمه الحقيقي "رضا"، وكان ذات يوم عاملاً بأحد مصانع القطاع العام حتى بِيع المصنع وتم تسريحه، ومن يومها لم تعد له وظيفة أو مأوى. يتنقل "فتلة" من رصيفٍ إلى آخر طيلة اليوم بصحبة صندوق من الكرتون يضع عليه بعض عبواتِ المناديلِ الورقية يبيعها للمارة.

"رضا" كان قليل الحيلة ومتسامحًا، فعندما تم تسريحه من المصنع جلس لعدة أيام متواصلة على أرصفة الوزارة ثم التأمينات وسط زملائه، ثم انتهى به المطاف إلى رصيف مجلس الشعب، ثم تلقَّى صفعة من ضابط الأمن المركزي خلال عملية تفريقهم فما كان منه سوى أن عاد مهزومًا.

أعطاه المسئولون معاشًا يقارب المائة وتسعة عشر جنيهًا فلم يشتكِ، ولكنه من يومها صار الرصيف له صديقًا.

طرده ابنه ليتزوج في الشقة التي تقع في عشوائيات حلوان، فلم يجد له مكانا سوى وسط البلد، وأطلق عليه أصحاب المحلات "فتلة"؛ تهكما على وزنه الزائد وكرشه الكبير.

كنت أحب "فتلة"، وكنت إذا رأيته في الشارع يجلس على الرصيف

في الشمس أدعوه للشاي أو لطبق كشرى. كنت أحب "فتلة"؛ لأنه لم يشتكى يومًا من شيء، لم يكره ابنه بعد ما ألقاه للشارع بلا مأوى، و لم يكره البلد رغم أنها ألقته في الشارع، و لم يكره الضابط الذي صفعه، و لم يكره أصحاب المقاهي الذين ينهونه عن الدخول. رغم قسوة الشارع الممتلئ بمافيا البلطجية التي تسيطر على أماكن الانتظار والنواصي لم يتعلم "فتلة" الشغب أو البلطجة أو السرقة. رغم كل شيء بقي "فتلة" كما هو صديقًا للأرصفة، لا يعرف صدره ضغينة للزمن أو حقدًا للبشر الذين يطؤوه ليل نهار.

كان يزكّ بقدمه اليسرى عندما يمشي نتيجة لإصابة حرب. شارك "فتلة" في حرب أكتوبر، وكان من طلائع القوات التي كانت تطلق الماء على الساتر الترابي لفتح ممرات لعبور الدبابات حتى أصابته شظية قذيفة في قدمه. تم بعدها تسريحه من الجيش وتعيينه بأحد المصانع.

أجلسته على كرسٍ رغم أنف عامل المقهى، فمسح عرقه من على جبهته، ثم قال لي سعيدًا:

- "واحشني".

تملكتنى السعادة وأنا أراه سعيدًا لرؤيتي. قال بطيبته المعتادة وفي عينيه نظرة عتاب:

- "سألت عليك الأستاذ "جهينة" كتير.. حتى اسأله.. أنا قلت البيه سابنا ومشي ولا حس ولا خبر.. يمكن حد زعله؟ وبعدين قلت هوَّ هياخد بخاطره شوية وبكره يرجع، بس أنت طولت قوي.. رجعت قلت ياواد

يا"رضا" اللقا نصيب، ومصير الحي يتلاقي.. مش معقول ينسانا برضه.. أنا بس شايل هم لما أموت... مين بقى اللي هيدفني؟"

خرجت من فمي كلمات متخطبة مفادها "ربنا موجود يتولانا كلنا" ولكن "فتلة" بقي يحدق فيَّ بنظراتٍ تائهة.

بدا "جهينة" متأثرًا بكلام "فتلة" فذهب بعينيه يحلق بعيدًا في عالمه. أما أنا فشعرت بكل تضاربات مشاعري تتلاقى كلها في آنٍ واحد وأسئلة عديدة تدور في ذهني ليس لها عندي إجابات. أطالع وجه "فتلة" بكل ما يحمله من نية صافية، وغبار الأرصفة وعرق التعب.

ممر بابيك

في الزمن الغني عن التعريف كان هناك على الناصية بالقرب من المدخل متجر بابيك، ويمتد من بعده ممر بين البنايتين يربط ما بين شارع "شريف" وشارع "طلعت حرب" الذي كان يُلقَّب دائمًا من قبل السكان باسمه القديم "شارع سليمان باشا" كما كانوا يلقبون الشارع الموازي للممر باسمه القديم "شارع فؤاد" رغم تغير اسمه في عصر ما بعد الثورة إلى "شارع 26 يوليو". تعددت الأسباب والمسمى القديم صمد راسخًا، وكأنَّ التاريخ لا يود أن يغير عناوينه.

في ممر بابيك القديم كانت هناك شخصيات رمزية وكأنها تسكن في ذاكرة المكان: ماسح الأحذية الصعيدي ذو الجلباب، وبائع لعب الأطفال، وعربة الكبدة والسجق، وشحاذ كفيف.

مضينا في ممر بابيك أنا و"فريدة"، وسألتها للمرة الثانية عن سر تلك

المكالمات التي تتلقاها فتتغير ملامح وجهها، ويصيبها الشرود والوجوم ولكنها لم تجب. توقفت أمام واجهة محل بابيك أطالع ما تبقى من معروضات هذا المحل الذي كان يومًا ما ذائع الصيت وقيم المعروضات. لم يتبقَّ في واجهته أشياء تذكر. من يشتري الآن الأقلام الباركر أو البايب أو الأجندات المذهبة؟ الزمن لم يعد كما كان في عهده الأنيق. سرحت متذكرًا سنوات الطفولة عندما كنت أطالع تلك الواجهة وكأنني أمام صندوق العجائب، أود لو أكبر وأبتاع إحدى الولاعات الذهبية أو ورق كوتشينة من النوع الفاخر أو حتى ميدالية صغيرة. على بعد خطوات سبقتني "فريدة" لتقلب في المنتجات الصينية الرخيصة في المحلات المجاورة. أكواب ووسائد صغيرة، والكثير من الأشياء عديمة المعنى، زهيدة السعر. ربما تغيرت فيها الأشياء خلال سنوات لم تلاحظها الناس، ولكنها كانت فارقة.

ممر بابيك صارت تفترشه منتجات صينية زهيدة يتزاحم عليها الناس مثلما تفعل "فريدة" الآن. هو فقط مجرد فعل الشراء وليس فعل الاختيار. كأنهم آلات مُصمَّمة للاستهلاك.

مازال في الممر ذلك المحل الصغير الذي يبيع الآلات الموسيقية. دلفت للداخل فتبعتني "فريدة"، وسألت البائع عن أنواع الجيتارات فصار يعرض عليَّ ما لديه حتى توقفت عند جيتار إسباني أسود محفوف بخطوط بيضاء. جلست على مقعد، ومضيت أضبط نغمات أوتاره، و"فريدة" تسألني أسئلة كثيرة عما إذا كنت أجيد العزف أم لا ولكنني لم أجبها.

بعد أن انتهيت من ضبطه تحسست أوتاره كلها برفق، مررت بأصابعي

ألامس كل وتر كأني أستعيد أحساسًا قديمًا بهذا المتمرد الحنون. قمت بعزف مقطوعة قصيرة كنت أحفظها قديمًا وأنا في المدرسة الثانوية. طالعتنى "فريدة" وتعجبت من أنني لم أخبرها قط أني أجيد العزف على الجيتار رغم معرفتي برغبتها الملحة في تعلم العزف عليه. سألت البائع عن رجل يُدعى "الخواجة سيرجيوس" فقال البائع إنه قد مات منذ فترة طويلة ثم طَّالعني لبرهة قبل أن يقطع بأنني كنت أحد تلاميذه فأومأت موافقًا.

طلبت "فريدة" أن أعزف شيئًا آخر فعزفت لحنًا أسبانيًا حزينًا، و لم أُنهِه لأنني نسيت الباقي و لم أكن أتذكر غير مطلعه. التمعت عيون "فريدة" بتلك النظرة التي تطلقها عندما يعتريها نزقها الجارف، فنظرت لها متفحصًا و أنا أعرف تمامًا أنها ستسأل، وتسأل عن "سيرجيوس" والجيتار وكل ما يتعلق بالأمر، ولكنها عادتى أن أستجمع تفاصيل قصتي قبل أن أرويها. لم أكن أطلق نفسي للسرد قبل أن أسرده لنفسي أولاً.

في الخامسة عشرة تركت المنزل بعد مشادة مع أبي، وذهبت للإقامة عند خالي وأحيانًا كنت ألتجئ للعم "شاهين". كان مطلبي حينها أن أحصل على جيتار، ولكن أبي كان يرفض وبشدة؛ خوفًا من انجرافي خلف الفن. كانت لدى أبي هواجس ومخاوف قوية من الموسيقى التي كانت مهنة بعض أفراد العائلة. أبي كان يتمنى لي مستقبلاً في الهندسة أو الطب كأي أب في عصره. نحن أبناء جيل الثمانينات والتسعينات. جيل المجموع الذي يدخلك الجنة أو يدخلك النار! ثار أبي أكثر عندما تركت البيت، و لم يكن لأحد أن يوقفه عني. لا أمي ولا خالي، ولا جدى ولا حتى استجداءات العم "شاهين". ولكني واجهته.

عندما واجهت أبي القوي ذا الهيبة التي تهتز لها الرجال نظر إليَّ الجميع، و لم يفهموا كيف لهذا المراهق أن يواجه الأب القوي، الرجل ذا الحكمة والشكيمة. رضخ أبي لرغبتي و لم يفهم أحد لماذا فعل هذا بما فيهم أنا المتمرد المراهق العنيد. لم أبحث في الأمر حينها فلم أكن لأفهم، وقد كان كل ما يشغلني هو الثبات على موقفي، والحصول على جيتار خشبي أسباني ودروس في العزف، التي كانت أيام الأحد والخميس على يد "سرجيوس" العجوز اليوناني مع فتاة تُدعى "سيبا" التي غيرت اسمها فيما بعد، وأصبحت مطربة معروفة.

الآن فقط فهمت وأنا أتحسس أوتار الجيتار متذكرًا أول مرة تحسست أوتارًا كهذه منذ ما يقارب أربعة عشر عامًا. ذلك الجيتار الذي كان يبدو حينها كحلم خرافي إن حصلت عليه سأكون كمن لمس نجمة في السماء البعيدة.

الآن فهمت لماذا رضخ الرجل القوي. لقد كنت نقطة ضعفة التي لم يستطع أن يقوى عليها فهزمته. لكل رجل قوي نقاط ضعف كوتر واهن إن لمسته خرت النبرة العالية، وتحول الإيقاع واللحن إلى مساحة هامسة ضعيفة.

لم أحكِ لـ"فريدة" كل هذا فقد كان صعبًا عليَّ أن أحكيه، ولا أعرف حتى كيفَ سيكونُ قصة مفهومة. ربما كانت قصة من تلك التي نحملها معنا دون أن نتركها في أي ركن حتى لو كان ركنًا رقيقًا كعيني "فريدة" الساحرتين.

حكيت لـ"فريدة" عن "سرجيوس"، وكيف كان يضرب على الأصابع بعصا قصيرة إن أخطأت في ضغطة وتر أو خرج مني "الكورد" نشاذًا، ثم حكيت لها عن "سيبا" تلك الفتاة التي كانت تعزف على خمس آلات موسيقية قبل أن تصبح الآن مطربة من الجيل الذي يغنى أغاني شبه تافهة المحتوى؛ نظرًا لطلب السوق التجاري وذوق الناس المتدني.

طلبت مني "فريدة" أن أعلمها العزف إذا اشترت جيتارًا فضحكت طويلاً قبل أن أخبرها بأني لم أعد أفقه أصول العزف منذ زمن بعيد، وأنها كانت مجرد تقلبات مراهق كان يمر كثيرًا في ممر بابيك فيحلم.

هتافات بئر السلم

هرم مقلوب رأسه لأسفل وقاعدته لأعلى. هرم يرتكز على النقطة الميتة فيه. كتلة الهرم تشكلها ملايين الرؤوس. هرم الضغوط المقلوب مرتكز بكل ثقل كتلته على أضعف نقاطه، على نقطته الميتة.

"عبد الخالق ثروت" مغلق، والهتاف يتوالى من على سلم النقابة، أما الأمن فكان يسد المشهد دون أي منفذ للدخول أو للخروج. حاولت أن أنسل إلى داخل دائرة المتظاهرين التي يطوقها الأمن بإحكام حتى نجحت في غفلة من التدافع أن أصير في داخل المعمعة.

الهتاف كان قويًا ولكنني لم أكن أهتف معهم، فقد اعتبرت نفسي دخيلاً وسيصبح هتافي نوعًا من الترديد الأعمى. الشخص الذي كان يرمقني بقوة وهو يهتف إلى جواري لاحظ صمتي فلكزني بكوعه، وقال:

- "ما تهتف معانا يا أخ ولا أنت جاي تتفرج؟"

نظرًا للضغط وضيق المساحة التي نشغلها من الرصيف والتى يضغطها الأمن بقوة من ثلاثة جوانب، وللحماسة التي تعتري الشباب من حولي بدأت أنا الآخر أهتف بصوتٍ مسموع، ولكنه لم يكن عاليًا.

الهتافات كانت متنوعة ولكنها كانت غير متسقة على الإطلاق. أحد الاشتراكيين ذو الصوت العالي والوشاح الفلسطيني على كتفيه صار يهتف بشعارات العدالة والمساوة وهتافات ضد الرأسمالية. ثم مالبث أن بادر آخر من تيار مختلف يبدو ناشطًا حقوقيًا بهتافات ضد قانون الطوارئ والإفراج عن النشطاء المعتقلين قبل أن تبادر فتاة بقيادة الهتاف ضد التمييز ضد المرأة، ثم برز آخر يبدو صحافيًا فقاد الهتاف من أجل منع حبس الصحافيين في قضايا النشر. هتاف بكل شكل وكل لون، ومطالب تصدر من هنا وهناك متباينة ومختلفة.

تهت أنا في خِضَمّ الهتافات المتضاربة ضد الطوارئ، وضد التمييز، وضد قضايا النشر، وضد تصدير الغاز، وضد العدو الصهيوني، وضد وضد،... حتى لفت انتباهي رجل عجوز جاء بيافطة عليها طلب من أجل إطلاق صراح ابنه المعتقل منذ سنوات دون محاكمة، فسألته عن سبب اشتراكه في تلك الوقفة فأخبرني أنه يشارك في كل المظاهرات والاحتجاجات لعل أحد المسئولين يتعاطف معه، بعد أن يئس من ارتياد الطرق الشرعية. على أحد درجات السلم كان هناك صف من العمال يطالبون بحقوقهم بعد أن سرحهم المستثمر الذي اشترى المصنع.

كما كانت في المظاهرة بعض أفراد حركة "كفاية" وأحزاب المعارضة الليبرالي منها والناصري.

لم أفهم من كل هذا التضارب ما هي المطالب المحددة التي أتى من أجلها كل هؤلاء. فالنساء أتين كنشطاء من أجل حقوق المرأة، والصحافيون أتو من أجل منع حبس الصحافيين في قضايا النشر، والعمال أتوا من أجل مستحقاتهم. هكذا كان كل الزخم فئويًا وذا مطالب شخصية، أما الشباب المتحمس فكانوا أصحاب شعارات رنانة جهورية تعكس حماستهم الشخصية.

لا شيء منظم ولا توجد خطة، كل شيء وليد لحظات غضب. وكأنَّ زخم الفرقاء نتاج فئوي بحت، وليس صاحب قضية نضالية. كلٌّ يقول ما يجد على طرف لسانه. إثبات موقف سيمر أو سيرقد بسلام ذات يوم تحت غبار المدينة الملبد سماؤها بالغبار.

عندما رأيت أحد رفقاء "شهدي التهامي" يعتلي الأكتاف، ويهتف بلهجة الحقوقي التي كنت أعلم حقيقتها منذ زمن، توقفت عن المشاركة في الهتاف. تلك الشعارات أعرفها جيدًا وأحفظها عن ظهر قلب منذ بضع سنوات مضت. فقد كنت أرددها والآن صارت بائدة. متى سيهتف الجميع بشعارات موحدة ووطنية وحقيقية؟ متى سنخرج من نفق الأفراد لأفق مطالب الوطن الحقيقية؟ متى سنعود للوطن الأم ونتكلم بلسانه؟ متى سنترك الهتاف وظهورنا لحائط النقابة، ونمضي دون خوف من أن تكسر ظهورنا الهراوات؟

تجولت بصعوبة بين فئات المتظاهرين محاولاً أن أفهم لماذا أنا هنا؟ لماذا أنا بين هؤلاء؟ لماذا دخلت في تلك الدائرة؟

الهتاف الهادر مثير للمشاعر وللدموع أحيانًا. الهتاف عالٍ كهدير بحر يزأر بأحماله الثقيلة. الهتاف الغاضب من درجات السلم نحو المتاريس.

إحدى الفتيات كانت تقوم بالتصوير بالموبايل، ثم تنهمك في إرسال البيانات عبر الإنترنت وفجأة وبعد فترة تتلفت حولها فتنتبه فتواصل الهتاف وهكذا...

عليَّ أن أهتف، كيف أكون سلبيًا هكذا؟ ولكن حقيقة لم أفهم في أي صف سأقف، ومع أي مطالب تحديدًا يجب أن أهتف من أجلها. لبرهة ظننت أنه يجب عليَّ أن أهتف مع المطالبين بالحرية والديمقراطية بشكلٍ عام فظللت أهتف معهم، ولكن لسببٍ ما شعرت بعد حين بأنهم لا يهتفون بل يصرخون. شحنات من الغضبِ المتأجج تنطلق تلو بعضها وكأنها عملية تفريغ.

افراغ ما في الجوف من غضبٍ مكبوت.

هل أن الغضب وحده سيؤدي إلى الطريق؟ أم أن الغضب وحده ليس سوى اختناق سيودي بي إلى حتفي لا محالة؟ دائرة مغلقة من غاضبين وأمن يطوقهم، ولا شيء يحدث سوى غارة صوتية. غارة هادرة ولكن قوامها بضع مئات فقط، ومع غروب الشمس بدأ الأمن يفرقهم فلم يبق غيري وبعض لافتات ممزقة وطأتها الأقدام فنهرني الضابط، وقال بلهجة غليظ متوعدة "أمشِ من هنا بدل ما أخدك".

ها أنا قد غضبت وهتفت وسجلت موقفي، ولكن ماذا بعد؟ الهرم الكبير المقلوب مضغوط بهمومه ومشاكله. قاعدة الملايين تسير في طرقات المدن والقرى المتخمة تعيش في تفاصيل حياتها الطاحنة ليل نهار. والطبقات الغاضبة لم تفرز من ملايينها سوى ألوف تريد التغيير، والألوف لم تفرز سوى بضعة مئات تتجمع في الوقفات لتهتف وتحتج بصوت عالٍ. الهرم مقلوب وليس بمستوٍ كما يُدعى "الهتيفة". الهرم لن تحركه مئات. المئات هم النهاية الميتة للهرم. والهرم مقلوب والصورة معكوسة، والطريق غابة من سيارات عشوائية الاتجاهات مثل مطلع الكوبري ومنزل النفق. متى سينقلب الهرم المقلوب ليعود إلى قاعدته؟

مع غروب الشمس الكل ذهب، وبقيت أنا عائدًا في شارع "عبد الخالق ثروت" أتساءل دون أن أجد ولو نصف إجابة لكل ما يحيرني.

تذكرت فجأة سكان الطابق الأرضي والبدروم عندما كانوا يتجمعون في الصباح ويهتفون "للناس اللي فوق" حتى يتركوا المياه تصل "للناس اللي تحت" من الخزان الموجود في أعلى العمارة، ولكنهم بالأعلى كانوا يتجاهلون النداء، فيظل الهتاف يأتي من بئر السلم ولا أحد يجيب.

هتاف بئر السلم يطنُّ في القاع دون صدى. لا أحد من فقراء البدروم قرر يومًا أن يصعد لأعلى. الجملة المألوفة التي هي قانون يرن على الأسماع في النهاية. يبقى الوضع على ما هو عليه، وعلى المتضرر اللجوء لل....

بوهيمي فنان

لبضع سنوات تتوه في الدروب بحثًا عن عنوان لك فتدور تائهًا في الطرقات، ترتكن على النواصي، يعلو صوتك ويكثر ضجيجك حتى تبلغ أوج ذروتك البوهيمي. سنوات الشباب الأولى هي رحلة البحث عن سياق، والاندماج في مجموعة تشعر بالانتماء لها. رحلة البحث عن ذات لك وعن عنوان يصلح. قد تأخذك لأقاصي الدروب المتحررة والهوجاء على حدٍ سواء.

وسط البلد هو منطقة حدف البحر، الميول الفنية والثقافية ستقود أقدامك نحو تيار وسط البلد الجارف، وستندمج في حياة المقاهي الصاخبة الساهرة.

وسط البلد ممتلئ بالمندمجين في حالات بوهيمية، شعر كثيف مُتلوٍ أو مجعد، ملابس ملتصقة على أجساد الفتيات ومتهدلة على الشبان. حلقان

وسلاسل، وتمائم وخواتم، وأوشام وغصون حنة، وتقاليع تتوالى كل يوم. عصور الهيبز عادت ترسم التفاصيل السريالية للمشهد على نواصي المقاهي وفي الطرقات. الطاقات مازالت تائهة تبحث عن مخرج للتعبير، تبحث عن سياق.

منذ أن ذهبنا إلى متجر الآلات الموسيقية في ممر بابيك، و"فريدة" تتملكها رغبة في شراء جيتار وتعلم العزف عليه. الجيتار الذي تريده كان له مواصفات محددة، يجب أن يكون قديمًا ومستعملاً، -كما أقنعها أصدقاؤها بأن الخشب القديم يصدر صوتًا أقوى وأجود-. ويجب أن يكون أسبانيًا كلاسيكيًا، واللون الأسود اللامع بالحواف البيضاء العاجية.

أمام رغبتها المتزايدة لجأت لمركز خدمة العملاء، صديقي "بيبرس" لعله يساعدني في الحصول على هذا الجيتار المطلوب وبسعر جيد، أتى "بيبرس" بصحبة رفاقه كالعادة إلى مقهى التكعيبة، وما إن رأى "فريدة" حتى صافحها بحرارة، واتضح أن كلاً منهما يعرف الآخر جيدًا. ضحك "بيبرس" متعجبًا وهو ينقل بصره بيننا نحن الاثنين قبل أن يعلق مندهشًا:

- "أنتوا الاثنين؟ بصراحة.. مفاجأة غير متوقعة".

يعرف "بيبرس" "فريدة" منذ فترة بحكم علاقاته المتشعبة بالسواد الأعظم من خريجي الفنون الجميلة والتطبيقية، كما أنه على علم تام بمعظم العاملين في الوسط الفني التشكيلي، تبادلا أطراف الحديث فيما بينهما ففهمت من سياق الحديث بأن هناك الكثير من الأصدقاء مشتركون فيما بينهما.

تحمس "بيبرس" لرغبة "فريدة" في اقتناء جيتار، فالكثير من أصدقائه يستطيعون توفير جيتار بالمواصفات المطلوبة، لكنه أشار لها بأن عليها أن تتلقى دروسًا في العزف إن حصلت على الجيتار. رشح "بيبرس" اسم "هادي عزيز" وعندها هتفت "فريدة" بغبطة، فقد كانت تعرفه وسبق لها أن حضرت حفلتين له في مسرح الساقية. الاسم كان يبدو مألوفًا لي.

أتى "هادي" بعد أن هاتفه "بيبرس"، وعندما اقترب تذكرته على الفور. لقد كان أحد الرواد المعتادين لأماكن وسط البلد، وما إن رآني حتى احتضنني بقوة وكأنه صديق قديم. كان دائمًا يراودني سؤال، لماذا يحتفي بي كل من مررت عليهم بوسط البلد، بينما كانوا هم تائهين في غياهب ذاكرتي وبالكاد كنت أتذكرهم؟

"هادي"، جيتاره على ظهره وشعره مشعث طويل، حول عنقه سلسلة من الخرز البني تشبه مسبحة، ينتعل صندلاً، وملابسه غير متسّقة وغير مُهندمة. لا يتحدث كثيرًا وكأنه اسم على مُسمًّى. ينظر كثيرًا للأرض عندما لا يكون طرفًا في الحديث وعندما يعزف يتوه في غياهب عزفه وكأنه التصق بجيتاره ورحل بعيدًا عما حوله. "بوهيمي" من الطراز الأصلي مندمج في حالته الفنية ولا يخرج منها إلا نادرًا.

قضينا الليلة نستمع لعزف "هادي" حتى ذهب كل من حولنا وبقيت أنا و"فريدة" و"بيبرس" أمامه منصتين. يعزف الفنان وتمضي أصابعه على الأوتار سريعة في خفة كالساحر فيخرج صوت مكنون من صندوق الجيتار المفرغ. يضرب الأوتار السحرية فتخرج الموسيقى قوية ومؤثرة. يهتز شعره وهو يندمج في غياهب العزف وتبدو ملامحه كأنه غائب في

زمنه. ينطلق مع جيتاره كأنه يمتطي صهوة حصان غجري.

"فريدة" كانت مأخوذة تطالع "هادي"، ومأخوذة باندماجه أكثر من عزفه. ربما لم تكن "فريدة" في ملابسها أو مظهرها الخارجي بوهيمية سوى من بعض الإكسسوارات كالحلقان الكبيرة والأساور الجلدية والأحذية الرياضية المصنوعة من قماش. كانت هناك أشياء تمنعها من تغيير نسقها والانطلاق نحو التهدل البوهيمي، منها أن "فريدة" تريد أن تمسك العصا من المنتصف. تريد أن تحافظ على المظهر الإسلامي والمحافظ الذي يضفيه عليها الحجاب، والمقالات التي كانت تنشرها عن الدين بين الحين والحين، كما أنها تحاول التواجد في الوسط الفني والاندماج فيه ولكن بطريقتها الخاصة. كنت أقرأ في "فريدة" ذلك الميل القوي تجاه المظهر البوهيمي وأصحابه، والذي كنت بالطبع لا أندرج تحته بمعطفي وقمصاني المكوية وحذائي الطويل.

وسط البلد البوهيمي كان براقًا لـ"فريدة"، تحاول اكتشافه والاندماج في اتجاهاته. عالم جديد عليها بأماكنه ومقاهيه، وشخصياته وفنانينه الذين كانت تسمع عنهم بحكم محيط دراستها والأنشطة الفنية والإنترنت.

كانت تسألني أين يقع الأفترأيت؟ وأين مقهى ريش؟ وما سبب شهرة أستوريل؟ وما هو شكل الناس بداخل بار ستلا؟ وهل من الممكن أن نرتاد مقهى الحرية؟ أو حديقة الأجريون؟.

كانت تسمع من الفنانين عن هذه الاماكن فتلتمع عيناها وتود لو أن ترتادها وتقضي الوقت فيها، فكنت أتجاهل الأمر فهذه الأماكن لم تعد بالنسبة لي مزارًا ولم يعد لي أصدقاء فيها. "جهينة" مثلي يفضل الأماكن

المتوارية الهادئة فكنا نذهب لركن بمقهى استراند، أو مقهى البن البرازيلي ونادرًا ما نغير الاتجاه. "بيبرس" عندما أريده كنت أنتزعه من مقهى التكعيبة أو الندوة ونتمشى حتى نحصل على بعض الهدوء والخصوصية، أو كنا نجلس بمنأى عن الجميع.

دوائر ومجموعات وسط البلد كانت بالنسبة لي ذكريات منذ سنوات المراهقة والجامعة، لا أريد أن أخوض في غمارها ثانية. كان هذا يؤرق طموح "فريدة" في التواجد والاستطلاع. كانت تلح أحيانًا ثم ما تلبث أن ترضخ على مضض. كلما تحركت مع "فريدة" كنت ألاحظ كيف كانت بوجهها الجميل ونظرتها الذكية، وابتسامتها الواسعة تجتذب الانتباه.

عندما كنت أصطحب "فريدة" كانت الأنظار تتحول إليها في كل مكان نذهب إليه، وتحيطها الابتسامات.

مجتمع وسط البلد يحتوي على أمراض المجتمع المصري المتدنية من فضول مرضي وبحلقة، وحقد وغيرة، ولكن مع الفارق بأن وسط البلد كان شبه متفرغ لمثّل هذه الحكايات.

كانت إلى حد بعيد تراودني هواجس كثيرة كلما ازدادت معارف "فريدة" في وسط البلد، وازدادت في الارتباط بتلك الأماكن وتوطدت علاقاتها بالوسط. كانت "فريدة" تجتذب الرجال بجمالها كما كانت بصمتها تثير دومًا الفضول.

لم تنل "فريدة" سوى درس واحد في العزف على يد "هادي"، ولكن الأمر توقفِ عند هذا الحد. هكذا قال لي "بيبرس"، وعندما سألته عن

السبب مال عليّ وأخبرني أن الأمر لدى "فريدة" لا يتعدى إعجابًا بالحالة. وليس رغبة حقيقة في احتراف العزف، بالإضافة إلى أن "هادي" أخبره بأنه مشغول جدًا، وأنه لا يقوم بتدريس العزف ولكنه كان محرجًا أمام رغبتي أنا و"بيبرس".

طالعني "بيبرس" لوهلة قبل أن يسألني سؤالاً لم أفهمه:

- "أنت مركز قوي كده ليه؟"

سألته عن قصده فلم يجب، ثم ابتسم وغير الموضوع.

ما قاله "بيبرس" حيرني ولكن الذي حيرني أكثر كان لا مبالاته تجاه أي حديث عن "فريدة"، فقد كانت على ما يبدو لا تروق له.

يراود الشباب إعجاب بالجيتار بصفه خاصة، ولكنه لا يتعدى سوى مرحلة في العادة؛ ثم ما يلبث أن يتوقف عندما تظهر مصاعب العزف وألم الأصابع، والوقت الطويل الذي يتطلبه في التمرين. "فريدة" بطبعها متقلبة الأهواء ولم تكن لتستمر حتى النهاية أو هكذا ظننت.

كانت تلك الأيام صاخبة في المدينة والكثير من الفرق الموسيقية الشابة سجلت نجاحًا كبيرًا بين أوساط الشباب. الموسيقى المطروحة على الساحة كانت الجاز والروك ممزوجة بالشرقي والنوبي وثيمات فلكلورية. الكثير من أغانى "سيد درويش" وكلمات "صلاح جاهين" وشعراء آخرين جدد. حملت الموجة الجديدة كلمات أكثر واقعية عن كلمات أغاني التسعينات، التي كانت تدور في فلك الحب والشوق والغرام. يبدو أن المشهد الموسيقي صار يبحث عن كلماتٍ أكثر واقعية وقربًا من هموم الجيل الجديد. يبحث

عن قوالب جديدة تناسب عصرًا مثقلاً بالأوجاع وأحزان الجيل الضائع. حتى الأغاني التي تتحدث عن مصر صار بها مرارة، وصارت أقرب للشكوى. جيل مكبوت يبحث عن التنفيس في موسيقاه، فخرجت موجوعة حينًا ومتمردة صاخبة حينًا.

طيلة أسبوع كنت أنا و"فريدة" نتلاقى يوميًا قبل أن يهبط المساء بعد أن تفرغ من عملها لنجلس على مقهى التكعيبة أو إحدى مقاهي البورصة، ثم نرتاد في المساء العروض الفنية والموسيقية. حفل موسيقي بمسرح الساقية أو عرض فلكلوري ببيوت القاهرة الإسلامية. عروض مسرحية بروابط أو معارض فنون تشكيلية بالزمالك. كل يوم نفعل شيئًا مختلفًا و"فريدة" كانت مهتمة بكل شيء وأي شيء فني أو ثقافي، أما أنا فقد كان بداخلي فراغ فني كبير بعد سنوات العمل التي أوغرت صدري بالبريد الإلكتروني والمواقع والتقارير.

في السنوات الماضية كنت أعيش الحياة العملية بتفاصيلها، فكل دقيقة فيها محسوبة عليك ومأخوذة منك، كل دقيقة هي فيزياء الفعل ورد الفعل.... ذهن يعدو على الدوام للحاق، ملاحقة مستمرة للزمن.

أما الفن فهو عندما تكون كل دقيقة إضافة إليك، وعالم من الاسترخاء، عالم من التأمل والانسياب.

تعزف الموسيقى لساعتين أحلق فيهما بعيدًا عن الثقل المركزي المصاب بسرطان الأفكار المعقدة.. أحلق في سماء أخرى مع فريق يقدم ثيمات فلكورية مصرية يعزفونها بتوزيعات حديثة، بينما "فريدة" تجلس منجذبة للموسيقى.

كانت الدعوات تأتينا عادة عن طريق "بيبرس"، وأحيانًا كنا نقابله مع بعض رفاقه في تلك الحفلات.

كنا جالسين في مقهى الساقية بإحدى الأمسيات عندما اقترب "هادي عزيز" منا، وما إن تصافحنا حتى توجه إلى "فريدة" بالحديث قائلاً:

– "أخبار الكورد الجديد إيه؟ بتتمرني كويس؟"

طالعت "فريدة" وأنا مندهش، فاحمر وجهها وتلعثمت.

مرت الليلة وأنا لا أتحدث، ولم أعلق على الموضوع، ولم أفهم لماذا أخفت عنِّي استمرارها في الدروس؟، وما هو السبب الذي دفع "بيبرس" للكذب؟، كان غضبي على "بيبرس" كبيرًا؛ لأنه اختلق لي قصة رخيصة ومفبركة.

تغيرت معاملة "فريدة" في اليوم التالي فكانت باردة في التعامل وسريعة الغضب على أتفه الأشياء، أما أنا فكما كانت عادتي يتحول غضبي لصمت مطبق وبرودة في ملامحي وجمود في تعبيرات وجهي. حاولت أن أتجاوز الأمر بيني وبين نفسي فلم أستطع، وعندما احتدت عليَّ بسبب موقف تافه انفجرت غاضبًا وعاتبتها بشدة على تصرفاتها الغامضة. كانت المرة الأولى التي أنفعل فيها وأحتد، شيء لم يحدث لي ربما منذ سنوات. طالعتني "فريدة" باندهاش وانكمشت في كرسيها، وأطبق عليها الصمت.

مر اليوم ثقيلا والذى يليه، وبالكاد كنا نتحدث... ضيقها كان باديًا على ملامح وجهها، صار وكأنه علامة استفهام محيرة. لم يكن مني سوى أن سألتها الأسئلة التي لم أجد لها إجابات، وبلهجة قاطعة وحازمة: ما الأمر؟ ولماذا أخفت عني موضوع "هادي"؟ ما سبب الإخفاء المريب

وأنا الذي في الأصل شجعتها لتتعلم على يديه؟ أشاحت بيدها وقالت كلامًا حادًا يفيد بأنني لا أثق فيها، وبأنني أغار دون مبرر.

صدمني الاتهام بالغيرة فطالعتها جيدًا و لم أعلق تاركًا لها المجال لتُخرج ما في جعبتها، فيبدو أن هناك أشياء لم أكن أعرفها. واصلت الهجوم دون انقطاع مع اتهامات بالغيرة، ومحاولة فرض الوصاية عليها وكأنني أعتبرها طفلة صغيرة وليس لها حق الاختيار وكلامًا آخر ذا وقع رنان. كلامًا من طراز الاتهامات الدرامية التي نطالعها في برامج الهواء على الفضائيات.

أطلقت العنان لها وأنا أستدرجها لتخرج الغضب الذي في جوفها... كلام حاد ظل يخرج حتى تحول إلى شكوى من سوء حياتها وتعبها من الناس المحيطين بها، وعدم فهمهم لها ولحياتها التي يسعى الكثيرون لتدميرها.

كلام كبير ودراما جنائزية من فتاة ذات عيون ملائكية، عيون صارت الآن عدوانية وعنيفة. ليس في كلماتها أو هجومها المضاد الضاري أي منطق أو سياق. أنا المتهم والاتهامات العشوائية المسترسلة تُكال لي بطريقةٍ سوداوية وغير مفهومة على الإطلاق.

قرابة الساعة نقف على ناصية شارع شامبليون وهي منطلقة كالإعصار الغاضب حتى مضت راحلة إلى بيتها.

"فريدة" الجميلة ذات الوجه الملائكي عندما تكون هادئة تبدو في حالة أقرب إلى الانسجام مع كل شيء. تستمع لك جيدًا، وتسرح في الموسيقى طويلاً، وترسم بدقة وبلا توقف، وتسترسل في الأفكار. ترسم ملامح وجهها ونبرة صوتها، امرأة من طراز بديع تسحر خيالك وتذهب

بك بعيدًا حتى أقصى أفق أحلامك. وعندما تهمس تظن لوهلة بأن الكون كله هامس بلا ضجيج، وعندما تتهادى في مشيتها تشعر بأن كل شيء هنا يسايرك في نفس الاتجاه.

"فريدة" الجميلة عندما تنقلب فجأة يصير كل شيء على حافة الخطر، ويتهاوى تحت أقدام دراما يصعب فهمها. تثور فجأة كبحرٍ لا ينذر بل ينقلب في لحظات، يطيح بكل ما يقابله.

مضيت في الطريق إلى منزلي وأنا أفكر في الدراما التي أشاعتها "فريدة"، والاتهامات التي سِيقت بأنني من حزب المتدخلين في حياتها والمنغصين عليها شئونها، والمتطفلين دون وجه حق. غضب يشبه ثورة المراهقين وتمرداتهم. هنا تظهر "فريدة" الفنانة البوهيمية من تحت حجابها ومن خلف وجهها الهادئ.

عندما يتملكني الغضب يطبق عليَّ صمت عنيد. غضبي لم يكن بسبب انفعالها غير المبرر وثورتها، فقد كان من الممكن أن أبتلعه كله بتطرفه ومأساويته. غضبي الحقيقي كان سببه هو انعدام الثقة. كيف يمكنك أن تثق في من لا يمنحك الثقة؟

خندق من الفراغ اتسع بيننا الآن. أما "بيبرس" فحسابه معي سيكون عسيرًا. كيف يكذب عليَّ ثم يلمح في كلامه بتلميحات ذات مغزى بأن أبتعد عنها؟ لماذا هذه التعقيدات؟

يطيل عليَّ "بيبرس" المسافة وتدخلني "فريدة" في خندقٍ من الأفكار قد يقود إلى نسف النوايا الحسنة، والمضي قدمًا نحو الهواجسِ والظنون.

هي هكذا رياح الخماسين، صاخبة ومتقلبة، ولها مزاجها الخاص عندما تبلغ أوج ذروتها.

الصفحة المقابلة

لم تهاتفني "فريدة" و لم أهاتفها، وتركت الأمر على رف الانتظار حتى تهدأ الدراما أو أجد لها تفسيرًا، حتى "بيبرس" نفسه ذاب و لم يظهر، اختفتا "فريدة" و"بيبرس" من المشهد ولكن أمي ظهرت فجأة، كانت تلك هي المفارقة. أحيانًا لا تعرف من أين تأتي الأشياء، ومن أي باب تخرج؟

طرقت أمي الباب في الصباح ثم مضت تتحدث دون توقف... أمور كثيرة معلقة، طلبت قدحًا من القهوة، ثم أخذت تتحدث عن خطط أعدتها لي ومنها عروسة اختارتها لي، ورصيدي في البنك الذي تحاول الحصول به على شقه محترمة في القاهرة الجديدة حتى أتزوج فيها. سألت عن المال الذي أحصل عليه من خلال عملي مع صديقي الأمريكي وإن كان كافيًا أم غير كافٍ. لابد من أن أجدد السيارة وأصلحها؛ لتصبح صالحة لانتقالاتي.

تخطط أمي وتحسب الحسابات وكأنها مديرة أعمالي رغمًا عن أنفي، وأنا أستمع محملقًا وكأنها تتحدث عن شخص آخر. لم أترك أمي تدير شئوني يومًا ما فهل سأسلمها مقاليد كل شيء الآن؟ كيف أستطيع أن أفعل هذا؟

كانت تتحدث كعادتها بحماس وبتفاصيل مسترسلة عن الفتاة التي اختارتها. أخذت أتخيل نفسي وأنا مرتد زيًا رسميًا، مصففًا شعري وملمعًا حذائي، وذاهبًا مع أمي؛ لتخطب لي فتاة ما منكمشة على كرسيها، يريد أهلها تزويجها قبل أن يفوتها طابور الزواج، وقبل أن تنضم إلى بضعة ملايين من العوانس في هذا البلد الذي تتجاوز فيه تكاليف الزواج أي مشروع آخر. ستجلس أمامي كفتاة مهندمة وخجولة، لقنتها أمها بعض الآداب التي عليها أن تستخدمها مع العريس القادم.

ضحكت باستهزاء وأنا أتخيل كل هذا وأهز رأسي كالساذج لأمي دون أن أعلق. ودون توقف عن الكلام عرضت عليَّ أسعار الشقق في القاهرة الجديدة ورصيدي في البنك الذي كان جيدًا إلى حد بعيد، ولكنه لن يسمح سوى بشقة غرفتين وصالة وليست ثلاث غرفٍ، وكم كانت هذه مشكلة تؤرق أمي فهي -على حد تعبيرها- تبحث عن شقة المستقبل حتى تؤمنني.

تذكرت المدينة الصفراء والشوارع المقفهرة فضحكت ثانية وأنا أطالعها. لم تسمع أمي مني أية ردود فبدأت في الانفعال، وعلت نبرات صوتها محتدة على برودي وابتسامتي البلهاء التي لا تدل على أي شيء.

فجأة انتقلت إليَّ تنبيهات بعدم العودة إلى السياسية، وعدم الاختلاط بـ"شلة العيال أم شعر منكوش اللي مابيستحموش" على حد تعبيرها. كررت أمي تنبيهاتها بعدم الخوض في السياسية والسير إلى جوار الحائط.

كنت أحيانًا أتساءل عن سبب الخوف المستوطن في هذا الجيل تجاه السياسة؟ لماذا يؤمن هذا الجيل بأن موازاة الحائط هي الطريقة المثلى للحياة؟ لو نطق الحائط لقال لهم "الرحمة أيها الخانعون". تُكرر أمي الكلام، وتحذرني بشدة من السياسية كأنها جريمة.

كنت حقيقة مستمتعًا بحضرة أمي جدًا، فنحن لم نمضِ وقتًا سويًا منذ زمنٍ طويل كما أن فرصة العثور عليها كانت دائمًا صعبة. لم أكن أود الاعتراض أو حتى مقاطعتها فتركتها تُخرج ما في جُعبتها. أود أن أحكي لأمي عن قصة "فريدة" لعل لديها تفسيرًا بخبرة امرأة أو حدسها، أو حتى كنوعٍ من المشاركة. وددت أن أحكى لها عن مغامرتي عندما ذهبت لاستخراج السيارة من منزل العائلة. أود أن أخبرها بأوجاعي وقلقي. وددت لو أن أقول كثيرًا من الكلام، فالإنسان لا يحتاج لشقة ولا لمال ليأمن شر الأيام، ما الذي أصاب جيل الآباء الذي فقد إيمانه بالله، وتمسك بإيمانه بالمال؟!! فما هو المال؟ أليس هو تلك الأوراق التي نجمعها حتى ننفقها أو نتركها للآخرين عندما نودع الحياة؟ وما هو المكان سوى ركن يستريح فيه الإنسان؟ مساحة هذا الركن ليس بعدد الغرف بل بمقدار الدفء الموجود فيه. كيف زيف المجتمع مصطلحاته فصار يُسمِّي المال والعقار "تأمين مستقبل"؟ أي مستقبل؟ أليس المستقبل هو في الغيب الإلهي؟ أليس المستقبل هو البلد؟ ما قيمة المال أو الشقة أو السيارة في وطنٍ ليس فيه أية

عدالة أو أمان اجتماعي؟ ما قيمة أن تسير نظيفًا ومهندمًا في شارع متسخ وملوث؟ ما قيمة أن تولد على هذه الأرض وتعيش فيها وأنت تبحث عن جنسية أخرى لتحميك؟... كل هذا ما هو إلا فكر أعوج ومنطق مختل. كيف صارت نظرتنا لكل شيء مقلوبة؟ هل الخطأ فيَّ أم فيهم؟ أيٌّ منا يسير في الاتجاه الصحيح؟

وددت لو أن أقول لها إني لن أتزوج في غرفة صالون بفتاة تبحث في الرجل عن شقة وراتب ومظهر عام. وددت لو أحكي لها كثيرًا ولكنها لم تعطني فرصة. كانت تحاصرني كالفيضان وأنا أحاول أن أتفاداه. كيف سأقنع أمي بأني أحب العودة إلى وطني وهي ترى أن عودتي ما هي إلا مصيبة كبرى وعودة للخلف؟

لم أجد نفسي أقول سوى:

- "بقلك إيه ما تيجي أأكلك أكلة سمك وجمبري؟"

كل ما كنت أود أن أفعله هو أن أستمتع بحضور أمي وبصحبتها، خرجنا نتمشى حتى المطعم فتأبطت ذراعي، وحاولت أن أبطئ من خطواتي حتى أساير خطواتها البطيئة، وكانت تتحدث بينما أنا منصت. هاتفني "حاتم" وأنا مع أمي في المطعم، وكان في طريقه إلى بيتي فدعوته للعشاء معنا وفرحت أمي؛ لأنها لم تره من سنين. جلس يحتسي الشوربة وأمي تتجاذب معه الحديث، وتشتكي مني مر الشكوى وهو يتصنع دور الصديق الرزين، ويومئ برأسه موافقًا على كل ما تقوله، ثم يُعقِّب مؤكدًا على كلامها وموافقًا بأنني لابد أن أفكر جديًا في موضوع الزواج. تصيد

اللعين الموقف، وأخذ يعبث كعادته. يهز رأسه وهو يرفع طبق الحساء على فمه موافقًا. ثم يعقب بعد أن يحشر في فمه (أصبع جمبرى) قائلاً:

– "بنصحه كتير والله يا طنط .. يوووه غلبت معاه.. اديني طبق البابا غنوج لو سمحت".

قمت من مكاني ولملمت كل الأطباق، وأخذت أسكبها في طبقه حتى فاض على ثيابه، فقفز من مقعده محتدًا:

– "أه يا بن الـ...."

فقاطعته:

– "ابن إيه؟؟... ها؟.. أمي قاعدة!"

فرد وهو يتصنع الانتباه لوجودها، ثم قال:

– "أه طنط هنا صحيح.. أنت فين يا طنط من زمان؟ ده الواد ده غلب يتصل بيكِ لما بقى اللي يشوفوه يقول دا عيل تاه من أمه في المولد!!"

ضحكنا طيلة الطريق في سيارة "حاتم" ونحن نقوم بتوصيل أمي إلى القاهرة الجديدة، ثم عدنا والليل يكاد ينتصف فقلت فجأة:

– "ما تيجي نشوف الجو فين، ونطلع المقطم نقعد فوق".

فهتف وهو يضغط على الحروف كعادة فتيات الليل:

– "أه المقطم.. بس احنا ما اتفقناش على المقطم يا كابتشن.. زودني بريزة كبيرة!"

ضحكنا ثم عقب بجدية:

– "مقطم إيه يا مجنون دي الساعة واحدة".

– "عدي على القهوة نجيب "جهينة" ونطلع".

انصاع وانحرف بالسياره في اتجاه وسط البلد. لم يكن بي أية رغبة في قضاء الليل وحيدًا مفكرًا في "فريدة" التي لم ترد على رسائلي أو مكالماتي. كما أن خطط أمي ولائحة تنبيهاتها أصابت مخي بالإيعاء.

جلس "جهينة" في الكرسي الخلفي، و لم ينطق أو يسأل إلى أين ذاهبون حتى خرجنا من وسط البلد في اتجاه صلاح سالم. قال "حاتم":

– "مش صاحبك قابل أمه النهارده.. يااااه كان مشهد مؤثر فاتك.. دا أنا عيناية غور.. غووورررر.. غورغرت بالدموع".

فتجاهله "جهينة"، ونظر لي قائلاً بهدوئه المعتاد:

– "مين الواد اللي ساقط أولى ابتدائي ده؟"

فأجبت باقتضاب:

– "دا السواق بتاعي!"

على قمة هضبة المقطم وفي المقهى الشهير من أيام السبعينيات الذي كانت تصور فيه مشاهد الغرام جلسنا على كراسي البامبو، ظهرنا للمقهى ووجهنا نحو المدينة نطالع سماء القاهرة. المقهى كان في يوم ما ناديًا ليليًا شهيرًا، أما الآن فتحول إلى مقهى مهجور يرتاده بعض العشّاق الهائمين والمغرمين. هناك في الركن إلى جوار بار مهجور مغلق مشغل موسيقى، تنبعث منه صوت تسجيلات "أم كلثوم" و"وردة"، و"عبدالحليم"

المصحوبة بصدى الصوت. أما خشبة المرقص القديمة فانتشرت عليها أضواء حمراء وخضراء باهتة.

قال "جهينة" وهو يطالع صمتي مليًا:

- "وأنا اللي قلت دا هييجي يشرب معانا نفسين!!"

تركتهما وذهبت في تمشية قصيرة مطالعًا المدينة بأضوائها، ولم تمض سوى دقائق حتى تبعني الاثنان وهما يتهامسان.

قال "حاتم":

- "فاكرين لما كنا بنروح إسكندرية بالليل ونقعد في عز النوة على البحر... والكورنيش يبقى فاضي واحنا قاعدين في السلسلة قدام المكتبة، ومفيش حد غيرنا وبتمطر فوق دماغنا طول الليل".

قلت:

- "فاكرين ظابط الدورية لما جالنا، ومبقاش مصدق أننا قاعدين ومش بنعمل حاجة ولا بنشرب حاجة.. مسبناش إلا لما خلا "حاتم" يسمَّع جدول الضرب علشان يتأكد!!"

ضحكنا ونحن نستعيد تلك الذكريات، وفجأة أتاني سؤال محير فسألت "حاتم":

- "إلا "جهينة" لما بيشرب وبيتسطل بيبقى عامل إزاي؟"

ضحك "حاتم" حتى كاد يسقط فتابعت متسائلاً:

- "طب بيخترف.. بيقول إيه؟"

فنظر "جهينة" لـ"حاتم" محذرًا، ثم قال:

- "والله أقطع عنك المعلوم".

لكن "حاتم" لم يكن ليصمت فهتف:

- "في مرة غنى "ظلموه" لمدة ربع ساعة ولا "حليم" في زمانه، وفي مرة غنى حبيبها لست وحدك حبيبها".

ضحكنا نحن الثلاثة طويلاً، وهتف "جهينة" متعجبًا:

- "غريبة مش فاكر!!!"

فقال "حاتم" وهو يقهقه بصوتٍ عالٍ:

- "هو انت بتبقى فاكر حاجه أصلاً؟؟.. ده ياعم من عادته أنه لما يقعد يشرب يقلع الجزمة، ويتني رجليه تحته.. وفي مرة القعدة طولت فرجليه تقريبا نملت.. قعد يومها ييجي عشر دقايق يدور على رجله، علشان يحطها في الجزمة!"

ضحكنا حتى أدمعت أعيننا. قال "جهينة" متذكرًا:

- "تصدق في مرة الواد اللِّي بيرص سرق الجزمة وروحت البيت حافي!!"

بعض من الضحك هو ما كنت أحتاجه لأهرب من ضيق الأحداث التي مرت. كان فضاء المدينة الشاسع بأضوائه القلقة كبيرًا ممتدًا كأنه بعد أسطوري لا نهائي، متشابك التفاصيل فكنت أسرح فيه وأتوه مفكرًا في أمي وفي رحلتي كلها. تواردت إليّ مشاهد عدة مختلطة ومتشابكة تبدو أمامي كطرقات القاهرة من أعلى وهي معقدة كشبكة العنكبوت.

ذكريات بائع الأنتيكات

أمضي الصباح أعمل وعندما يحل المساء أخرج متجهًا لشارع قصر النيل في رحلة شبه يومية منتهيًا عند العم شاهين، يواصل عمله وأنا أساعده كما كنت أفعل قديمًا. أنقل معه الأنتيكات ونفرزها، ونلمّعها وهو يلقني أسرار المهنة، ثم ما نلبث أن نرتكن على الكراسي وهو يرفل السجاد وأحملق أنا في الفراغ أو أتصفح أحد كتبي. رائحة المكان مازالت تحتويني وكأن هذه الأركان تعرفني ربما أكثر مما كنت أنا أعرفها. القهوة و"أم كلثوم" طقوس لا تتوقف، والمساء الطويل يبعث على الحكايات. يصمت طويلاً الرجل العجوز، ولكنه يباغتني بحكاية يرويها... ذكي في حكيه، قد يبدأ القصة من منتصفها أو من جملة في النهاية، ثم يسرد دون توقف.

يحب العجائز أن يستعيدوا الذكريات كما يحبون التعليق على أحداثها، وكأنهم يعيدون تقييمها مرة أخيرة.

في زمن العم "شاهين" ألاف الحكايات والأقاصيص كلها لا تتطرق لأزمنة حديثة، كلها حكايات مسافرة في الزمن للخلف لفترةٍ كان العجوز فيها يافعًا... لا يحب العجوز تقدمه في الزمن... كان يعشق أنتيكاته الأصلية؛ ربما لأنها مثله معدنها لا يبليه الزمن مهما طال.

يمضي الليل في غياهبه، ويبث الراديو أغانيه القديمة ويبقى العم "شاهين" ساحري المفضل.

غنى العجوز مع صوت "فريد الأطرش" الآتي من راديو:

- "عش أنت.. إني مت بعدك".

وهو يتمايل ثم مالبث أن قال:

- "ما كانتش واحدة دي؟"

نظر نحوي متفحصًا قبل أن يتابع:

- "جيان كانت برنسيسة، الكعب العالي والفستان الدانتيلا والوسط الرفيع السمباتيك رابطاه بحزام أحمر لميع. والبرنيطة مايلة على جنب.. حاجة إيه، آخر عنجهة. ولابسه الجونتي الأبيض ومعلقه الشنطة في دراعها بشياكتها وتمشي في "سليمان باشا" توقفه على رجل، فرنساوية آه بس بنت بلد مصرية جدعة. أيامها كنت حليوة ومسبسب إنما إيه؟ أعجبك. وشغال مع الخواجه "شيكوريل" وراجل ملو هدومي، عاكستها وهي معدية راحت شتماني... إزاي بقى تشتمني؟ قلت لازم أربيها بنت الإيه!"

فسألته مستفسرًا:

- "عملت إيه يا حمش؟!"

- "اتجوزتها..."

ضحكت وأنا أطالعه ثم قلت مندهشًا:

- "كده خبط لزق؟؟"

- "رهنت دهب أمي على قرشين سلفة من الخواجه اللي شغال عنده، ورحت لأبوها كان مصوراتي ودكانته في عمارة ماتاتيه اللي كانت في العتبة، حطيت الفلوس قدامه وقلتله... جوزني بنتك يا خواجة".

صمت قليلاً ثم تابع:

- "بس يا سيدي، سرير نحاس على صالون نص لبه.. واتجوزنا.. مفيش يومين وقامت ثورة يوليو بعد تسعة شهور خلفنا "جمال" ابني الكبير".

قام ليشرب بعض الماء، ثم عاد ومال عليَّ هامسًا:

- "كانت الدنيا سهلة".

فرد قامته ثم نظر في اتجاه مقعده، وواصل كلامه قائلاً:

- "الواد عبدالله ابني الصغير قعد خاطب تلات سنين، والبت أبوها كل ما يقول كلام يغيره.. ويتفق ويرجع يغير رأيه، ويطلب طلبات تانية تقولش بيعة وشروة.. راجل عِرة بيبيع بنته بشيكات وقايمة.. إيه الزمن العرة ده؟.. أقوله يا "عبده" سيبها... يقولي يا بابا أنا ماصدقت ألاقي واحدة مناسبة.. واد ابن كلب!"

قلت ساخرًا:

– "زمن شرم برم!"

فضحك وقال:

– "أنت لسة ماسك في المثل ده؟"

صمت لوهلة قبل أن يقول:

– "روح اطلب إيدها من أبوها".

قالها العجوز فأصابني بالحيرة، ومضيت نحو النافذة مشعلاً سيجارة، وأخذت أتأمل حركة المارة في الشارع قبل أن أقول:

– "الدنيا معقدة يا عم "شاهين".. انتوا زمنكم كان أنتيكة زي الأنتيكات اللي بتبيعها دي.. كلها أصلية ومعروف أصلها وفصلها، إنما احنا زمنا زمن قالش.. كل اللي فيه قلش!"

طالعني وكأنه لم يفهم، وقال مستفسرًا:

– "قلش؟"

– "أه.. يعني أي كلام".

– "قصدك سكة؟"

– "أيوه سكة.. فالصو".

– "بتجيبوا منين الكلام الغريب ده؟"

تنهدت، وقلت وأنا أجلس على حافة النافذة:

– "شفت.. حتى الكلام بقى مش شبه بعضه!"

سقف المدينة

الكلام شيء عجيب بينما الصمت أعجب. السفر يفرض عليك الصمت، بينما العودة تبعث فيك روح الحكي وسرد ما كان.

كنت أظن أن حكاياتي لم تكن أبدًا متصلة، فكنت دائمًا أقصها عليه بتقطع، ولكنه كان ينصت بتركيزٍ وشغف. الليلة بالتحديد لم أكن أفهم شيئًا مما كنت أقوله وكأنّ كلامي يدور حول بعضه دون اتجاهات، ولكن لسببٍ ما كان "جهينة" ينظر لي بإمعان وكأنه يفهم تمامًا كل ما أعنيه. بعد أن انتهيت من حديثي قام بترديد بعض كلماتي وهو يحملق في شعلة السبرتاية الصفراء المشوبة بالحمرة وكأنه كان يستقي معنىً ما من تلك الكلمات وهو يرددها لنفسه.

يبدو وأن هذياني هذا كان ذا معنى يفهمه هو ولا أفهمه أنا. ما لبث أن تابع قائلاً:

- "كمل..."

فسألته مندهشًا:

- "إيه؟"

- "عجباني القصة".

- "قصة إيه؟ أنا أصلاً مش فاهم!"

فرد وهو يداعب لهب السبرتاية:

- "المهم أني متابع".

لم أجب، ثم أطرقت... أما هو فعاد برأسه للخلف وكأنه يطالع ماضيًا بعيدًا مفكرًا. صببت الشاي ثم قلبت في صفحات أحد الكتب. تمددت على الكليم بجواره وقد انقطع الحديث بيننا لفترة، وساد الصمت المحير.

نطق "جهينة" بعد أن استغرقت في قراءة الكتاب، ونسيت كل ما كنت أحكيه، وقال وهو متمدد:

- "مشكلتك أن عقلك عاوز يفهم اللي مش فهمه... لسة مش مستسلم للتيار زي بقية الناس".

صمتُّ لبعض الوقت، ثم قلت وأنا في غاية الحيرة:

- "تفتكر أنا اتغيرت عن زمان؟"

قطب جبينه قبل أن يجاوبني بسؤال:

- "أنت كنت متوقع أنك تلاقيني لما رجعت وسط البلد؟"

سرحت لبعض الوقت أفكر في "جهينة" هذا الرجل الغامض، ثم قلت قاطعًا الصمت وهو يقلب الشاي في فنجانه:

– "كل مرة بقابلك فيها بحس إني مش هقابلك تاني، وساعات بحس العكس".

نظر لي مستغربًا فتابعت كلامي:

– "ساعات بحس إنك أنت اللي ثابت، وكل الدنيا هي اللي بتتغير من حوليك".

فباغتني قائلاً:

– "نفسي أتعلم منك حاجة واحدة... "

– "إيه؟؟"

– "إزاي بتحلم؟!"

أتعجب منه وأحملق فيه. كان مرهقًا لي في هذه الليلة، فكلما سألته سؤالاً أجابني بسؤالٍ آخر، وما إن أمضي في الرد حتى يتحول لآخر.

قال وهو مستغرق في أفكاره شاخص بصره نحو السقف:

– "الناس نفسها في فوضى عارمة، والأحداث مش متسلسلة أو مترابطة بالنسبة لي!.. إزاى أنت بتدور على نسق؟ بحس أنك شايف الدنيا قصة وطول الوقت بتحاول تدور على الحكاية من أولها... بتدور على شكل الشوارع زمان قبل ما تكبر وتشيخ.. بتدور على أصول الحاجات اللي بقت أشياء مش مفهومة.. أنا نفسي مش فاهم من زمان.. المهم بقى بالنسبة لي إني أتفرج".

كان ما يقوله "جهينة" فيه جزء كبير من الحقيقة ولكن لسببٍ ما تأملته، وأردت أن أقول له أن أفضل لحظاتي تلك التي يتوقف فيها ذهني عن التحليل وينساق ... ولكني بقيت مطرقًا صامتًا أفكر... ربما لهذا السبب كنت أحب "جهينة"... رجل بلا تاريخ، بلا تفاصيل بعيدة أو خطوط متشابكة. تخلَّص من كل شيء وبقي مجرد عين واسعة تتابع، يمضي في الطرقات بلا وجهة وبلا ميعاد. كيف ومتى فعل هذا؟ لست أدري ولكني على يقينٍ بأن هناك قصة ما أدت به لهذه الحالة.

يمسك بسيجارته بين أطراف أصابعه وهو يحتسي الشاى. يمسك الكوب بشياكة رجل وجيه، ثم يأخذ نفسًا عميقًا ويطلقه بعد حين كشبورة ضباب تظلل ما بيننا.

كأنني أفهم هذا الرجل أو كأنني لا أفهمه. أما هو فكانت عيناه وكلماته وصمته يوحون لي بأنه ودونما عناء يفهمني تمام الفهم.

قام وأحضر غطاءً، ومدد جسده وغطى نفسه وبقي ساكنًا. راودتني فجأة فكرة ما فقمت ونزعت عنه الغطاء. فزع قائلاً:

– "فى إيه؟"

– "قوم يالاّ هنروح نشم هوا".

اعتدل جالسًا ينظر لي وأنا أرتدي حذائي، وأضع عليَّ معطفي فقلت له:

– "ها هتيجي ولاّ هتنام؟"

فهبَّ واقفًا وهو يقول:

- "معاك يا ريس".

ونحن نتمشى في اتجاه ميدان التحرير والطرقات تكاد تفرغ من المارة سألته:

- "فاكر عمارة ميدان التحرير؟"

فابتسم وقال:

- "ساعات كنت بروح هناك".

- "والمنافذ زي ما هية؟"

- "الطريق أمان".

درنا حول العمارة حتى وصلنا للمدخل الخلفي. درج معدني ضيق يصعد في الظلام كأنه طريق نحو مكان غير معروف النهاية. فتح "جهينة" ضوء كشاف صغير في جيبه فأضاء به درج السلم، ثم تفحص الطريق لأعلى قبل أن يقول:

- "وراك يا ريس".

تسلقت بخفة درج الخدم وهو يتبعني مسلطًا ضوء كشافه أمامنا حتى انتهينا بأعلى. كان المكان كما هو لم يتغير مُخرب ومُكدَّس بقطع الخشب والحديد، والأسلاك وأطباق الدش. تقوم على الحافة لوحة إعلانات ضخمة تستند على قوائم معدنية عالية.

تحسسنا الخطى تحت أضواء لوحات الإعلانات الملونة، حاذرين الكراكيب والعراقيل حتى وصلنا إلى الحافة المطلة على الميدان الكبير.

تبدو السيارات الراكدة في الأسفل كأنها دماء متسارعة في جسد قلق. جلسنا على حافة السور مدليين الأقدام في الهواء، نرنو نحو فضاء المدينة الملبد بالضباب والأضواء. كانت الريح عجيبة في هذه الليلة تهب فجأة وتنقطع فجأة، وكأنها تتلاعب بنا. ساد صمت طويل قبل أن أقطعه قائلاً:

- "عارف.. القاهرة دي أغرب مدينة في الدنيا".

- "إزاي!"

قلت وأنا محدق في فضاء المدينة المعقد:

- "المدينة دي كلها رصيف واحد".

- "رصيف واحد؟!"

- "كلنا ماشيين على نفس الرصيف.. لو بصيت من فوق عليها هتلاقيها هيَّ كلها رصيف واحد، مفيش غيره وكله ماشى عليه بس عكس الاتجاه.. كله ماشى عكس بعضه.. اللِّي ماشي بالطول، واللي ماشي بالعرض... لما غيروا الإشارات فضلنا برضه ماشيين نخبط كلنا في بعض.. لما حفروا الرصيف وبقى كله حفر ومطبات فضلنا ماشيين.. لما حطوا يافطة "مغلق للتجديدات" فضلنا ماشيين.. لما خُرِّب الرصيف واتقسم واتباع بالحتة فضلنا ماشيين.. لما شالوا الرصيف فضلنا ماشيين".

مع خالص حبي من جروبي

ما أصعب أن تنتظر تحت رحمة الوقت!، ما أصعب الانتظار في الحب!

ما الذي ستفعله عند نقطة معينة عندما تشعر بأن الشيء الذي تملكه قد يكون هواءً. مجرد هواء قد يلمس الوجه، ولكنك لا تستطيع أن تمسكه أو تختزنه. هواء يمر في لحظة ولا يتوقف.

الخماسين تهب وصار الهواء أكثر ولعًا بالعربدة في الطرقات ومتقلبًا، وطرقات وسط البلد ماتلبث أن تفرغ من مرتاديها فيما بعد العاشرة، هي ليالى أيام الامتحانات.

في ليلة شديدة الرياح هبَّ الهواء قاسيًا عليَّ في الشارع فالتجأت إلى استراند، وجلست بالداخل في ركن قصي.

ظهرت "فريدة" ودون أية مقدمات بعد فترة غياب. هاتفتني وهي تبكي بنهنهة فلم أفهم من كلامها أي شيء، الكلام كله متداخل وكأنه مبتور من سياقٍ ما. لم تمض سوى دقيقة ودون مبررات أنهت المكالمة وأغلقت الخط. حاولت أن أكلمها مجددًا ولكن دون جدوى فقد أغلقت هاتفها. ما الذي يحدث تحديدًا؟ لم أكن أعرف!

الانتظار صار مؤرقًا وكأنني تحت رحمة طقس تقلب بي وأنا في عرض البحر، وأنا في منتصف الطريق. ضباب "فريدة شمس الدين" عاد يحلق فوق رأسي.

مكثت ممددًا في مقعد بجوار النافذة طيلة الليل، وعيناي ترقبان شجرة ذات أفرع متشعبة وهي تتأرجح بفعل ريح قوية. الليل كان ثقيلاً وكأنه لا يمر، وألغاز "فريدة" صعبة الحل وكلما سرحت فيها كنت أغيب في دهليز داخل دهليز بلا مخرج. سرحت في العم "شاهين" وأمي، و"جهينة" و"حاتم"، ووسط البلد و"بيبرس"، و"فتلة" ورواد المقهى، وحتى "توفيق" كان يقفز في مخيلتي كل فترة كعفريت العلبة.

تخدش فروع الشجرة ضلفتي الشباك التي تحركها الرياح الصاخبة فلا أعرف كيف سأغلق عينيّ وأنام.

لم أنم سوى ساعة واحدة حتى صحوت في الصباح الباكر على رنين متواصل للهاتف. كانت "فريدة" على الطرف الآخر وصوت زحام من حولها. أخبرتني أنها في التاكسي، وتريد أن تقابلني لأمرٍ هام. ذهبت إلى جروبي، ولم أكن أعلم السبب الذي يدفعني لاختيار جروبي بالتحديد... ربما رحابة المكان العتيق، أو لأنه المكان الوحيد الذي يفتح أبوابه مبكرًا.

كانت لدى أسئلة كثيرة مؤرقة تتدافع داخلى، وغضب مكتوم أصابه الإعياء.

مدت يدها وصافحتني، ثم جلست أمامي وهي ترتدي نظارة شمس كبيرة وقاتمة تغطي معظم وجهها، كما أحكمت حول رأسها حجابًا رماديًا داكنًا. كانت تبدو وكأنها ذاهبة لعزاء. لم تنزع النظارة وظلت صامتة تطالعني بينما بقيت صامتًا، لم أنطق بشيء، مستندًا بظهري للخلف، منهمكًا في تناول القهوة.

بدأت في التحدث لكسر حاجز الصمت، فقالت بنبرة قلق:

- "إسبريسو دوبل ع الصبح كده؟"

فقلت غير مكترث:

- "قال سوده يا قهوة، والقلب وما يهوى..."

مطت شفتيها، ثم قالت:

- "أنت حر".

طالعتها بتفحص محاولاً كبت الغضب المتواري في صدري، فأحست بأن شيئًا ما يكاد ينفجر. ارتبكت أكثر عندما قرأت ما في عيني، وارتعشت أصابعها تعبث في حقيبة يدها، ثم قالت وهي شبه منكسرة:

- "فى حاجه عايزة أحكيهالك من أول ما عرفتك وخايفة".

ما الذي تحمله تلك الفتاة في جُعبتها هذه المرة؟ واصلت التحديق فيها وأنا أشعر بأني مازلت أمضي في طريق الأوحال المبهم. قلت وأنا أتثاءب:

- "نفسي أفهم حاجة.. أي حاجة!!"

- "أنت مش عايز تفهمني.. يمكن لو كنت فاهمني بجد كنت حكيتلك من زمان".

- "أفهمك إزاي من غير ما تتكلمي؟ هو لغز ولازم أحله؟ بتختفي يومين وتظهري.. تتصلي وتروحي معيطة.. تقوليلي لازم أشوفك وتيجي تقوليلي أنت مش عاوز تفهمني؟ طيب هفهمك إزاى.. بالحبر السري؟ الدنيا مش الكوميك ستوريز اللي بتقرئيها..فيها البطل بيحل المشكلة لوحده، ويقضي على الشر بقوته الخارقة.. بلاش خيال زايد عن الحد ودراما من غير سبب".

صمتُّ لبرهة لأراقب وجهها المندهش من قسوة نبرتي، فتابعت قائلاً بلهجة قاطعة:

- "قدامك حاجة من اتنين.. يا تقاسي لوحدك من الحاجات اللي ملخبطاكي دي؟.. يا إما تجربى تتكلمي كلام مفهوم وكلام واضح وصريح؟.. بلاش الاسلوب اللي عمال يلف ده.. ودلوقتي يا تحكى؟ يا هقوم أمشي؟"

قاطعتني وفي نبرة صوتها انكسار مستجدية:

- "أصلي خايفه أحكي.."

مازالت تلف وتدور وتضيع الوقت، فما كان مني سوى أن قمت من مكاني وأنا عاقد العزم على أن أرحل. مدت يدها فأمسكت بطرف معطفي، وخلعت نظارتها فرأيت عينيها متورمة وحمراء من أثر بكاء طويل. نظرت لي نظرة انكسار فجلست.

بعد طول صمت تكلمت بنبرة متوترة:

- "أنا كنت متجوزة قبل كده!!"

قالتها وهي تراقب وجهي فلم أحرك ساكنًا من المفاجأة. بقيت أنصت

لعلها تفسر نفسها بصورة أوضح، فكل الأشياء الآن ليس لها علاقة ببعضها. إن كانت متزوجة من قبل فما سبب إخفائها تلك الحقيقة عني؟ وما علاقة هذا باختفائها بين الحين والآخر؟ وما السر وراء المهاتفات التي تغير حالها؟

قالت مقاطعة حبل أفكاري:

- "محدش يعرف خالص قصة جوازي غير أهلي، ولا حتى أصحابي في الشغل أو في الوسط يعرفوها.. كانت تجربة مهببة.. أنا مقعدتش معاه غير شهر وسبته، وقعدت سنة ونص علشان يطلقني ومحاكم وقصص طويلة..."

قلت مقاطعًا:

- "ده السبب أنك بتختفي؟"

- "أنا بهرب منك لأني خايفة أحكيلك".

- "أه أنا كنت فاكر أنك بتهربي من الإيجار المتأخر عليكِ!"

نظرت لي وأنا أشعر أن وجهها يرسم علامة تعجب كبيرة واندهاشًا، مختفية خلف النظارة القاتمة التي ارتدتها ثانية. مالبثت أن قالت مستنكرة:

- "بقولك أنا كنت متجوزة ومطلقة وأنت بتهرج؟"

- "لأني مش فارق معايا.. اللي فارق معايا هو علاقتك بيّ دلوقتي.. مش قادر أحدد إيه سبب تصرفاتك الغريبة؟ وإيه علاقة ده بقصة جوازك السابق؟"

- "ما أنا قلتلك.. لأني كنت خايفة أحكيلك عن الموضوع ده ومش عارفه أعمل إيه؟"

- "جربتي تحكيلي؟ أديكِ حكيتي أهو.. فين المشكلة؟"
- "أنت شخص عجيب.. أنا ساعات مش ببقى فاهماك خالص.. إزاي بتحسم موقفك في ثانية كده؟"

طالعت "فريدة" مليا وقد زال عني الكثير من غضبي في لحظات، وتحول موقفي كليًا من الغضب إلى التعاطف. حاولت أن أحلل في ذهني تلك التجربة التي مرت بها في حياتها وتبعاتها من مشاكل نفسية وخوف، وعدم ثقة في النفس، وأحيانًا صمت وانطواء. ربما يفسر هذا تصرفاتها وتقلباتها. بقيت على هدوئي أمامها حتى توقن تمامًا بأن مشكلتها بالنسبة لي غير مؤثرة على علاقتنا. أردت أن أبث فيها الشعور بالأمان وكأن شيئًا لم يكن، وكأنها كانت عثرة في الطريق ومرت بسلام.

مسحت دمعة سقطت من عينيها، فضحكت وقلت:

- "يخرب بيت الهبل.. بتعيطي ليه؟"
- "أنت بتضحك؟!"
- "آه".
- "أنت رخم.. ممكن تجيبلي أيس شيكوليت؟"
- "هنا اسمه شكولا جلاسي!!"

تعلمت من الحياة أن لكل منا قصة يريد أن يحيكها بطريقته، يمضي في دروبها بنفسه دون دليل ودون أن يقاطعه أحد، أو يأخذ بيده. أروِ قصتك بنفسك كما تعرفها أنت، وعليَّ أنا أن أستمع لها بطريقتك دون أن أعترض سياقها.

تشفط "فريدة" الشيكولاتة الباردة، ثم تحكي عن هذا الشاعر

الفلسطيني الشاب الذي أثرها بثوريته وقضيته، فتزوجا في وقت قصير قبل أن تكتشف أنه ليس كما كانت تعتقد. فهو مجرد رجل كلماته مؤثرة وشخصيته خاوية، يعمل مراسلاً ويتكسب من الكلام. دبت بينهما خلافات شديدة انتهت بأن طلقها بعد فترة من النزاع والمماطلة في المحاكم.

حكت قصتها على مهل وأنا أستمع حتى بدأ قلقها يزول، وصارت نبراتها أهدأ. ثم مالبثنا أن تحدثنا في موضوعات أخرى، لم تسألني عما فعلته في الفترة الماضية فقد كان من النادر أن تسألني عن مجريات حياتى وما يحدث بها، وكنت قد اعتدت منها هذا.

أدركت الآن أن حبي لـ"فريدة" صار أكبر من أن أستوعبه بعقلي، بل هو الذي يتملكني دون أن أفهمه، ربما كانت متمردة ومتقلبة النزق والأهواء، ولكني أشعر بها كائنًا ضعيفًا يتقلب في الريح ولا يعرف كيف يسير قدمًا في طريق محدد. هي تائهة في هذا العالم الواسع مثلها مثل الجميع.

مدت أصابعها الناعمة نحو ظهر يدي تتحسسه برفق، وكأننا في الظلام وهي تبحث عن ملجأ تعرفه. ضممت أصابعها في يدي، وسرحت مفكرًا.

جياكوم جروبى صانع الحلوى وصانع الحب، الحلواني الأسطوري. رجل سويسري جاء للقاهرة في 1889، وأسس أربعة فروع لمطعمه أشهرها هذا الذي نجلس فيه الآن، صُمِّم على طراز الباروك الأوروبي الفخم. كان من أشهر الأماكن المتميزة بالطعام الفاخر، والطعم الرائع لجميع أنواع المخبوزات، والأيس كريم والحلويات الأوروبية الراقية.

الطعم الذي مازال موصوفًا وخالدًا في روايات كل من عاصروه في العصر الذهبي. جروبي هو أول من أدخل الأيس كريم إلى مصر، والمارون جلاسيه، والأنواع الفاخرة من الجبن.

كم شهد هذا المكان من عشاق عبر تاريخه، كان جدي يرتاده في الأربعينيات، ويروي لي كيف كان حينها ملتقًا للعشاق من الطبقة الراقية والأجانب من كل الجنسيات المقيمين في القاهرة. المدينة التي كانت حينها عاصمة العالم الكوزموبوليتاني. شهد جروبي أوج عصره في فترة الحرب العالمية الثانية عندما تحولت القاهرة ملاذٍ آمنٍ في زمنٍ اجتاح فيه "هتلر" وحلفاؤه مدن أوروبا وشمال أفريقيا.

أبي كان يصطحب أمي لجروبي في السبعينات؛ ليأكلوا المارون جلاسيه والأيس كريم، وكانت أمي تستعيد أحيانًا تلك الذكريات وهي تذكر جروبي وكأنه كان ساحرًا يعطي لتلك الأيام طعم الكريم شانتيه الناعم.

هنا وعلى إحدى الطاولات في "صالون دي تي" أو قاعة الشاي بطرازها الكلاسيكي جلست أنا و"فريدة" وكان الحب يعزف وكأنه يسكن أركان المكان، كأن هذا المكان مازال يعرف كيف يفهم العشاق.

تياترو عماد الدين

الهواء البارد اللطيف هبة من السماء يرسلها الله للمدينة المتعبة، هواء يهب في أواخر الليل، ليمسح عن المدينة عناء يومٍ حار، وصاخبٍ ومزدحم.

طرقات وسط البلد تنتشر على جانبيها مخلفات من أوراق وأغلفة فارغة، تخبر عن يوم طويل من البيع والشراء والحركة للمحلات وباعة الأرصفة. يتسكع بعضٌ هوام الليل من المشردين تحت أضواء وسط البلد الممتزجة ببعض الضباب الخفيف تضفي غلالة سحرية.

الفجر يقترب و"جهينة" كان على وعده حاضرًا في ميعاده كما هي عادته، أتى يقود دراجته بيدٍ واحدة، وفي يده الأخرى يمسك بطرف مقود الدراجة الأخرى، كان يحفظ توازنه وتوازن الدراجة الأخرى التي تسير بالتوازي كأنه لاعب سيرك متمرس. شارع "فؤاد" كان شبه خالٍ من المارة

والسيارات، فبدا متسعًا ومهيبًا بمبنى دار القضاء القائم في نهايته. لأول مرة أشعر بهذا الشارع رحبًا، ويبدو "جهينة" والدراجتين صغيرين في عرضه.

شتان بين المدينة الصاخبة والمدينة الهادئة. لأول مرة أقود دراجة منذ عهدٍ بعيد، قفزت فوقها وأنا متحمس مستعيد لذكريات الطفولة. صرنا متجاورين ودرنا على مهل عدة دورات في ميدان الأوبرا القديم الذي كان خاويًا تمامًا سوى من التمثال القائم في المنتصف يشير في اتجاهٍ ما غير مفهوم.

مضينا نحو شارع "عماد الدين" نقود دراجتين استأجرهما "جهينة" لهذه الجولة، كان هذا الشارع فارقًا متسعًا بين زمنين، زمن صاخب يضج بالكازينوهات والمقاهي والمسارح والسهرات، وزمن آخر شبه صامت يغطُّ في سبات ليلي عميق.

أسير فيتبعني، أميل فيميل معي، أترك المقود وأرفع يدي في الهواء فيرفع يده ونترك أنفسنا لهواء الليل، نقود على مهل فأشعر بأني أمضي بسلاسة على سطح أملس، نزيد من سرعتنا فتدور العجلات أسرع حتى أسمع صوت مرورٍ الهواء بين أسلاكها، يدور كل شيء مع استدارة العجلة المسرعة.

كان هناك على خشبة المسرح مغنٍ ببدلة سمو كينج وشعر مصفف ولامع، يميل نحو الميكرفون الفضي الكلاسيكي فيغني أغنية على نغمات موسيقى التانجو الحالمة، وخلفه يرقص فريق من الراقصات الحسناوات في ثياب براقة، يشكلن خلفية راقصة بديعة ومتناغمة.

أقوم لأراقص فتاة جميلة على نغمات الموسيقى الناعمة، ترتدي

فستانًا أبيض من الدانتيلا يلفها بإحكام ويهبط فضفاضًا عند ساقيها. يضم وسطها الصغير حزام من الستان الأحمر، على صدرها بروج فضي رقيق على شكل فراشة، تضع قبعة أنيقة بيضاء وفي يدها قفاز ناعم من الستان. آخذها من تحت ذراعيها وأدور بها في رقصة أنيقة فنمضي بخفة، عابرين حدود الزمن والمكان، أطراف أصابعنا تكاد لا تلامس ساحة الرقص والموسيقى تعزف وتعزف.

تتوالى الأضواء على جانبي الطريق ونحن ماضون على دراجتين مسرعتين. وكلما مضيت بالدراجة كان الزمن يعود فأشعر بأن الشارع يعجُّ بالسيارات الكاديلاك، وأضواء لافتات التياتروهات والمسارح مضاءة بالنيون، والرسومات تعلن عن حفل لـ"ليلى مراد"، وصورتها تحتل الواجهة بتسريحة شعرها المميزة، محاطة بالأضواء وإلى جوارها إعلان عن مونولوج لـ"إسماعيل ياسين" و"شكوكو". على الجانب الآخر صورة لـ"نجيب الريحاني" تعلن عن مسرحية "لعبة الست" بمصاحبة فرقته. "يوسف بك وهبي" يقدم على مسرحه رواية "هاملت" لـ"شكسبير". الأوبرا الخديوية تقدم عرضًا لأوبرا كارمن في افتتاح الموسم الجديد والحضور بالملابس الرسمية.

تقوم على جانبي الطريق أشجار الزيزفون الضخمة، وسيارات فارهة وأناس وجهاء ببذلات سمو كينج وأحذية براقة، وسيدات يرتدين فساتين بديعة ورقيقة، وتفوح روائح باريسية، ويمر الترام ذو السنجة مُصدرًا صوته المميز. حدائق الأزبكية الأسطورية أمضي في طرقاتها بين الأشجار النادرة، والزهور ذات الأريج الساحر.

تدور عجلات الدراجة، وتدور حول المباني والطرقات والميادين والأزمنة على إيقاع هادئ أصيل فأرى المدينة على نسقٍ واحد، ترتدي أزهى عصورها كتاجٍ مُرصَّع بالفن والرقي، والثقافة والتاريخ.

تكعيبة

يصيحون فيجرفهم التيار. لا يرون إلى أين هم ذاهبون؟ وما الهدف؟ وما الطريق؟ وما السبيل ؟.. ولكنهم لا زالوا ماضين يدفعهم عنفوان الشباب وسأم الفراغ. يتمردون وينتشرون هنا على مقاعد المقاهي وبين زخم الطرقات. يستظلون بالسياسية فيبيتون في العراء. ينبشون في حاضر الثقافة فيتذوقون منه ما يبعث على الغثيان. يطالعون رموز وطن ليس فيه من قدوة ولا ربان. وطن ليس فيه سوى الصراع الفاسد الضارب في أعماق الأعماق. طريق بلا معالم متداعي المشاهد . كانوا يتخبطون في طرقاته ليل نهار.

تدور الدوائر ويجلس الحاضر منهم، ويبحّ الصوت العالي فيهم، ويهلك وميض الشباب فيهم تحت وطأة واقع ضنين.

يتوهون بين المذاهب وفي مناقشات التنظير، يهلكهم ببطء فعل

الصراع. تعبث بهم القوى ومروجو شعارات الزفة وأبواق التهليل كما يقتضي سياق المسرحية. يجندون ضد بعضهم البعض في الدائرة الصغيرة المغلقة. حلقة مصارعة رومانية يلقون فيها تباعًا حتى يتمتع القياصرة الذين يدّعون أنهم مناضلون.

في بلد المثقفين يمضي المثقفون الوقت في متاهة التلفتات. في مقر المثقفين على أطراف النواصي يتقاتل المثقفون من أجل الفُتات.

في شارع المثقفين يرفع المثقفون لافتاتهم "نحن مثقفو الشعارات". ويعلو اللغط الأجوف، ويطن الهتاف، ويمضي جيل خلف جيل نحو منحدر منزلق يؤدي نحو درك مظلم، يتصادم فيه الجميع صدامًا لا نهائيًا كموج بحر طائش غدار.

كل من أمضى وقتًا متسكعًا في طرقات وسط البلد، وجلس على مقاهيها الشهيرة، وصادق مثقفيها تاه في هذا السؤال.

هل هؤلاء هم مثقفو البلد؟ أم أن كل هذا ما هو إلا خدعة كبرى وضرب من الجنون وصراع ديوك؟ وهل هي ثقافة المنقار الأطول والمخلب الأغبى؟

كم ابتلعتنى تلك المقاهي! وكم تلقفتنى دائرات النقاش! كم اجتذبتني الجدليات، وكم استهلكتني الحوارات، وكم طوحتني المشادات في فترات تحولاتي وتجولاتي بين نفسي وبين العالم من حولي الذي تربيت بين جنباته.

كانت متاهة مهلكة درت في دروبها ليالي وشهورًا وسنوات، وكلما

مر الوقت عليَّ كان حنقي للمتاهة ومقتي للمناخ المخيم يزداد، وفي ذات يوم قفزت خارج المركب، وفررت بعيدًا وتركتهم خلفي يخوضون، مفضلاً البحث عن امتداد آخر للدماغ، في أفق أشمل وأوسع من المعركة الطاحنة التي تدور بين طرقات مدينتي القاسية بمن فيها من أجيال تخرج للسطح، محاولة أن تتحسس طريقها في الزحام.

هل أنا الذي أستوعب الحقيقة؟ أم أني أحد كبار الناقمين الغاضبين؟ هل مازال غضبي مختزنًا بداخلي يحركني كلما طالعت دروب الوطن المكدس بالفساد الفكري والأخلاقي؟ فساد صعب عليَّ ابتلاعه أو حتى مطالعة من يبتلعونه.

لعلني الآن بعد تلك السنوات أرى الصورة من زاويةٍ أوسع، وأطل على المشهد من دور علوي، وليس من ثقب الجدار الضيق أو من زاوية ضيقة بين رؤوس الأشهاد. لعلني الآن أقل غضبًا مما كنت عليه من قبل وأقل غرورًا وأكثر تقبلاً.

السؤال الأبدي الذي كان ومازال يضربني في مقتل، هل أنا خارج الصورة أم أنا جزء من مكوناتها؟ كان سؤالاً ليس له من جواب، فمن ذا الذي يستطيع أن يحكم أو لديه إجابة قاطعة لي؟

أصعب شيء هو أن تستطيع الحكم على نفسك وبواقعية. كيف تُقيِّم نفسك بنفسك وبنظرة مجردة صادقة مع الذات؟

لم تعد القضية هل أنت عضو فاعل في قضايا هذا الوطن أم مجرد مشاهد آخر في الصفوف؟ القضية هي هل أنت حقًا تفهم الحالة؟ أم أنك

مجرد حنجرة تنفث الغضب؟ هل هي قضية صفوة أم قضية جيل بأكمله؟ من يتحدث باسم من؟ من يمثل من؟

أنت لا تستطيع أن تتشدق بالقيم فقط، لأنك قد وصلت ذروة غضبك من فساد المجتمع أوجها. لا تستطيع أن تقول إنك اشتراكي، لأنك ضد نفوذ المال وفساده!!.. أو تقول إنك ليبرالي فقط لتكسر التابوهات، بينما أنت من داخلك لست مؤمنًا بحرية الآخر!!.. كيف تصادق الفتاة المتحررة وتتزوج من المحافظة؟!!.. كيف تدعي الرقي وأنت متدنى السلوك مع معارضيك؟!!.. كيف تدعي أنك حر عندما كنت طيلة الوقت تقبض على ذاتك؟!! إذا أردت أن تكون مناديًا بقيم فلابد أن تكون أنت نفسك ابنها في الأصل وليس بالتبني.. لابد أن تكون نتاج فهم عميق ولست نتاج عاطفة فقط.

تكعيبة الأفكار النابتة في المناخ الفاسد، كلها نباتات متسلقة تتشابك في الفضاء، تصنع زخمًا كبيرًا، ولكن جذورها كانت ومازالت رفيعة ومتوارية. تكعيبة الغضب نتاج بيئة حارة رطبة خانقة، وجيل يبحث له عن عنوان جديد وفضاء أوسع.

قابلت "بيبرس" على مقهى التكعيبة، وتبادلنا التحية التي كانت باردة من ناحيتي، وانتظرت حتى يفرغ من حديثه مع بعض من حوله، وما إن انتهى حتى باغتني قائلاً ودون مقدمات:

– "تصدق "فريدة" لسه بتاخد دروس في الجيتار؟ رغم أني لما سألتها في الأول قالتلى عكس كده".

قالت لي:

طالعته مليًا وأنا أحاول أن أحلل تلك المتاهات. لكنه ما لبث أن قال:

- "تصدق أنها برضه هي نفسها اللِّي قالتلي بعدها أنها لسة بتاخد دروس؟"

حدقت فيه منتظرًا تعليقه القادم، ولكنه ظل صامتًا ينفث دخان الشيشة من أنفه. هناك شيء ما يجري خلف الكواليس لا أكاد أفهمه، و لم أحاول بل نحّيت نفسي جانبًا محاولاً تجنب البحث في النوايا.

ليس بجديد على حكايات الناس في هذه المدينة أن ما يقولونه يبدلونه، وما يعبرون عنه دومًا مختلف عن ما يكنونه.

تبدأ الأمسيات الصيفية الحارة على المقاهي، وعلى غير إرادتي كانت "فريدة" تجرجرني نحو مقهى التكعيبة كعادتها معي، وفي أحايين أخرى كنا نتجه نحو مقاهي البورصة والندوة. لم تكن تترك لي خيارًا فكلما هاتفتني قالت إنها تنتظرني هناك، فكان لابد لي أن أذهب إليها.

"بيبرس" المنتشر كنت دومًا أجده هنا أو هناك، ومن حوله وجوه مألوفة وأخرى غير مألوفة كعادته. "جهينة" كان يجلس مع الأدباء والمدونين، ولكن هذا لم يكن يتعدى مرة أو مرتين في الأسبوع، بينما كان يوميًا ينتظرني في الصباح بمقهى استراند، ويطل عليَّ في الليل بالبن البرازيلي بعد أن أنتهي من تنقلاتي المسائية مع "فريدة". "حاتم" كان يظهر أمام باب شقتي فجأة كعادته، وأحيانًا كان ينضم لي أنا و"جهينة" في تجولاتنا الليلية. مقاهي وسط البلد لا تعنى لـ"حاتم" القادم من الزمالك سوى شاي

بالنعاع الأخضر أو حجرين شيشة، و لم يكن يعنيه أي من حوارات المثقفين أو السياسة أو الأحداث التي تمر بها البلد، رغم دراساته وعمله بالسياسة للدرجة التي قد كانت تنسيني هذه الحقيقة عنه. كان "حاتم" حانقًا على البلد بما فيه الكفاية.

كنت أدرك أن لدي صديقين لصيقين . أحدهما يسخر من القدر دائمًا، والآخر يتفادى الواقع طيلة الوقت، وكأن الاثنين يمشيان على حافة الحياة.

رحلتي المسائية كانت تبدأ من قصر النيل من مقر العم "شاهين"، وعندما كانت تلح "فريدة" كنت أمر عليها بالتكعيبة فأتخذ مقعدًا بين الزحام مع عدم الخوض في معارك كلامية. لأسباب كثيرة كان مقعدي لا يتعدى دور المشاهد. أطالع دون تدخل ودون حتى إبداء رأي. مجرد عين ترى ولا تعلق، بينما "فريدة" بدأت تندمج رويدًا رويدًا في المناقشات.

"فريدة" المتطلعة لعالم وسط البلد بشبق مندفع دفعتني دفعًا من أجل الولوج ثانية لمقرات وسط البلد وأنا أحاول جاهدًا أن أنأى بنفسي.

علق "جهينة" على الأمر قائلاً ذات ليلة "الحب يصنع المعجزات"، بينما علق "حاتم" على مقولة "جهينة" ساخرًا كعادته "بيعمل المعجزات أه، بس ما بيعرفش يطبخ!"

رغم كل تنقلاتي في المقاهي، لكني لم أرَ "شهدي التهامي" ومرافقيه من اليساريين، لم يظهر بعد وظل سؤال يتردد في ذهني "أين شهدي المناضل؟"

كنت على ثقة بأنه سيظهر يومًا ما لا محاله. "شهدي" مطرقة عالية الضجيج، لابد أنها ستظهر دونما شك بكل ما تصنعه من ضجيج مدوٍ وجلبة عارمة.

تغير المشهد عما كان عليه من بضع سنوات. ازدحمت الساحة بشباب جدد من كل الفئات ومن كل التيارات، انضم الكثيرون للخضم فصارت المقاهى كاملة العدد دومًا، وضجيجها أعلى، وزخمها لم يكن له من قبل مثيل. أعداد كبيرة من شباب متحمس للحياة وناقم على الأوضاع. في ذلك الخضم كل التركيبات سوف تطالعها، المسيَّرون والمخيرون، المستهزؤون والمتحمسون، المنافقون والمخلصون، المدعون والصادقون. بدأت دونما أشعر التعرف على وجوه جديدة وشباب من كل الفئات.

"فريدة شمس الدين" يحركها فضولها ورغبتها في تشكيل موقفها السياسي والفني. "فريدة" ماضية قدمًا في هذا الطريق دون تراجع. كانت تمقت أحيانًا اندماجي ببطء في الساحة، فبدأت هي تتحرك وحدها وتتبع خطوات التشكيليين والناشطين الحقوقيين، والسياسيين في وسط البلد. بدأت تتردد على جلسات الأتيليه والتكعيبة ومقاهي البورصة بدعوة من رفاق فنانين وصحافيين وناشطين من محيط عملها ومعارفها الذي بدأ يتسع في وسط البلد.

كان لها صديق نوبي داكن البشرة، يعمل رسامًا ومصورًا فوتوغرافيًا وأشياءً أخرى عدة، يُدعى "كوندي" ولم أكن أعرف إن كان هذا اسمه الحقيقي أم كان اسم شهرة. "كوندي" كان صديقها المفضل ونجح في

ضمها لشلة من الفنانين التشكيليين، والمثقفين من أصحاب الموقف السياسي المتمرد. كان "كوندي" دائمًا يتجاهلني وكأني هواء.

لم يكن يستهويني الاندماج بقوة في وسط البلد. الوضع برمته كان مسار جدل بيني وبينها، وعندما كنت أبتعد أحيانًا عن الجلوس في دوائرهم كانت تنتقدني وبشدة.

كان هناك دائمًا اتهام موجه لي بعدم الاهتمام بها بالشكل المناسب، واستخفافي برغباتها في فهم السياسة والمشاركة برأيها. كانت تتهمني بتفضيل "جهينة" عليها، وتجاهل أصدقائها؛ لأنني في المرات التي أحضر فيها هذه الجلسات كان يعتريني الصمت وسرعان ما أعتذر وأرحل. حاولت نصحها بالابتعاد عن هذه الدوائر، والتفرغ للفن إذا أرادت تحقيق نفسها كفنانة، والتجهيز لمعرض يجمع أعمالها بدلاً من إضاعة الساعات في جلسات السياسة والتنظير، أو في جلسات الفنانين التي هي عادة جلسات كلام مسترسل ونميمة، فثارت عليَّ واتهمتني بالسلبية ومحاولة عزلها عن العالم.

كانت محتدة ونحن نشرب الشاي على مقهى التكعيبة هذا المساء، وحضر "بيبرس" المناقشة فانحاز في صفها، وأيدها بشدة. لم أفهم موقف "بيبرس" فحدقت فيه، ولكنه لم يتوقف. انفجرت فيه وأنا أتهمه بأنه من العالمين ببواطن الأمور في وسط البلد، وبأن غالبية الفنانين المتواجدين هنا مدّعون من الدرجة الأولى. كيف يدعون الانتماء للفن وهم جالسون ليل نهار على المقهى؟ لا يفعلون شيئًا سوى التحدث عن "العمق.. المضمون..

حرية الإبداع.. فساد الذوق" وهم أنفسهم لا ينتجون فنًا، ولا يجيدون سوى الكلام المعقد. انسحب "بيبرس" دون أن يعلق وقد بدا أن هجومي عليه أحزنه بشدة، بينما "فريدة" ظلت صامته حتى رحلت.

أمضي وحدي مفكرًا في الأمر، أحدث نفسي "أنت الذي تركت هذا المناخ الفاسد الصاخب، فكيف تتركها للتيار يجرفها نحو بحرٍ متلاطم بلا سبيل؟"

لهذا أو لذاك تجد أحيانًا نفسك في مواقف معقدة، ووسط خُضم متشابك يجرك جرًا نحو بحر متلاطم الأمواج كان عليك أن تقطعه حتى لو كان في أوج ذروته.

كانت "فريدة" تتغير رويدًا رويدًا، ولم أستطع إيقاف هذا وكأنني في رحلة لا نهائية عكس التيار والاتجاه.

أطل بعد سنوات فأرى متحمسين بزغوا، ومتفلسفين برزوا، وجميعهم كانوا قيد نفس المرحلة، ونفس التيارات والأحزاب السياسية. لم تتبدل كثيرًا الأشياء عما كانت عليه. زاد الزخم وازداد اللغط، وعلت النبرات وتقعرت اللغة، وحاقت اللعنة بكل التابوهات.

تذكرت رحلتي في أروقة جامعة كنساس في الولايات المتحدة الأمريكية، وكيف كنت أشعر أنني في محرابٍ مقدس حيث كل شيء يحيطه الهدوء التام وكأنها أروقة دار مقدسة للعبادة. كيف كانت المناقشات مع أستاذة الجامعة خلال فترة التدريب كلها أحاديث هامسة وكلامًا منطقيًا حتى وإن شابه اختلاف وجهات النظر، وكيف أن هؤلاء الناس الذين

وصلوا لمراحل متقدمة من العلم أقل الناس ضجيجًا، وأكثرهم تقبلا للنقد والاستماع لما تقوله. كيف أن كل حديث يصل بك إلى شيء أو معنى ذي قيمة أو منطق أو معلومة.

تذكرت مناقشات فريق العمل في شركتي، وكيف أننا كنا نجلس الساعات نتناقش حول أفضل الطرق لتطوير العمل بكل احترام حتى نصل لنتيجة. كيف أن تضارب وجهات النظر كانت تثري الحلول، وتجعلها أكثر فاعلية.

فكرت في التكعيبة والوسط الثقافي والسياسي في مصر، وكيف صار الصراع الأكثر ضجيجًا حتى أنه في بعض الأحيان قد لا تسمع صوت نفسك، وقد تنسى من كثرة اللغط وفساد الفكر أية فكرة جيدة كنت تمتلكها.

تكعيبة متشابكة ومتسلقة، وتعشش فيها أشكال مختلفة من الكائنات، يتخللها الضوء الشحيح، ويعشش فيها غبار كالح متراكم. غصون جافة كالحطب. قد يكون هناك ورق أخضر يبحث عن متنفس، أو عن فضاء ولكنه كان يتوه في الزحام.

فيلم هابط

- "منك لله ياللي كنت السبب!!"

قالها "حاتم" وهو يخلع رابطة العنق، ويلقي بها على الطاولة فسألته:

- "مين ده؟"

- "واحد صاحبي قالي روح اتقدم لأبوها".

ضحكت. وقد أيقنت أنه عائد لتوه من مقابلة مع أهل فتاة جديدة أُعجب بها. يبدو أن الموضوع لم يسر بشكلٍ جيد، فقد بدا عليه الضيق وخيبة الأمل وها هو إلى جواري يشد أنفاسًا طويلة من الشيشة حتى ألهب الفحم وكأنه ينتقم منه. ما لبث أن سألني وهو منهمك في التدخين:

- "فين جو؟"

- "إيه عاوزين تروحوا تعملوا دماغ؟"

فقال يائسًا:

- "يا عم ارحمني.. فين دي الدماغ اللي هنعملها؟.. قول هنروح نخرب الشوية اللي باقين فيها.. وبعدين هوَّ فين الحشيش ده؟.. معدش موجود.. بح خلاص!"

- "إزاي؟"

- "أنا أعرف؟.. إحنا صحينا في يوم مش لاقيينه.. تلاقى فيه واحد من الناس الكبار اللي معاه التوكيل قرر أنه مينزلوش السوق؛ علشان يرفع السعر".

- "هوَّ توكيل عربيات؟"

- "أه وبكره ينزلوا منه صنف صيني مضروب".

- "لا... دا أنت حالتك صعبه النهاردة.. باينك أكلت على قفاك جامد في المشوار اللي أنت جاي منه".

- "دا أنا اتظبطت أحلى تظبيط يا بني".

قالها بأسى ممزوج بالسخرية، وطلب حجرًا آخر للشيشة، وانهمك فيه، ثم تابع يروي لي القصة، مذكرني بفتاة تُدعى "علياء" قال لي من قبل إنه معجب بها، وبعد أن هاتف أباها ذهب للقائه الليلة، ورغم أن "حاتم" موظف بالخارجية، ويتقاضى راتبًا جيدًا إلى حد ما، ولكن شقته التي حجزها في مدينة أكتوبر ذات الغرفتين والصالة اعترض عليها الأب، وامتعض من صغر حجمها وموقعها خارج القاهرة -وعلى حد تعبير أم الفتاة- بأنها ابنتها الوحيدة، ولا تريدها أن تسكن بعيدًا عنها وهم

مقيمون بحي مصر الجديدة. لم تلبث الأم أن بدأت تحدد طلبات منها شبكة من الذهب، ورغم أنها هدية من العريس وهو وذوقه لكنها لمحت بأن تلك الشبكة يجب أن تتناسب مع مكانة العروس الاجتماعية، ولا تقل عما حصلت عليه فتيات العائلة عند خطبتهنّ. لم يعلق "حاتم" على كلامهما، وبقي يستمع لأرقام تلو أرقام تتحدث عن مؤخر الصداق وقائمة العفش والفرح، وعرض الأب أن يساهم بجزء في العفش -كما جرى العرف- كما أنه سوف يساهم بتكاليف حفل الخطوبة. وما إن حسب "حاتم" الحسبة في رأسه من شبكة وشقة بديلة في حي مصر الجديدة أو مدينة نصر، وتكاليف فرح وعفش حتى أيقن أن كل ما معه بالإضافة لقرض وبعد السلفيات من أمه وعمه وأخته المقيمة بكندا لن يغطي ربع ما يريده أهل الفتاة، فما كان من "حاتم" المتقلب المزاج والساخر دومًا سوى أن يجاريهما، ويبالغ ويثني على كرمهما الذي فاق الحدود، ولما كانت أمه سيدة تعشق المظاهر حتى أنها عزفت مع أم العروس لحنًا متكلفًا وبزخًا غير واقعي وكأنها نسيت تمامًا حدود إمكانيات ابنها، وبدأت تتحدث عن أصول عائلتها العريقة وعن أبيه الذي كان سفيرًا، وأخواله المستشارين والقضاة، وكلامًا كبيرًا من هذا القبيل كان يرويه "حاتم" بخفة دمه الساخرة، وأنا أضحك من المفارقات التي تحدث وكأن مسرحية هزلية تُحكى لي. لم أعرف ماذا أقول لـ"حاتم" الذي كنت أستشف في كلامه حنقًا وخيبة أمل ذاق مرارتها كل شباب هذا البلد، الذي ليس عنده إمكانيات تفي بطلبات يمليها عليهم جيل عقيم من الآباء، يريد الحصول على كل شيء لأولاده، وكأن ما قضوا عمرهم في تحقيقه يريدون منا أن نحققه في

طرفة عين، في زمنٍ صار كل شيء فيه باهظ الثمن.

أردف "حاتم" مستهزئًا:

– "ابن السفير قال.. ياريتني كنت ابن عم "شكري" البواب بتاعنا.. الواد راح بلدهم في أسيوط اتجوز بنت عمه بأوضيتين خشب ومرتبة قطن شحتها من الفرماوي بيه اللي ساكن في الرابع.. وكله كوم و"علياء" كوم.. تقولي أبويا وأمي طيبين.. أمال لو مكانوش طيبين كانوا طلبوا إيه؟ شاليه في الساحل؟ وتقولي غير عربيتك إزاي أنت تبقى راكب هوندا موديل 2000 وأنا أبقى راكبه تويوتا موديل السنه؟"

– "دا على كده الفولفو بتاعتي موديل سنة تمانين مش هتخليني أتجوز!!"

ضحك "حاتم" ضحكة قصيرة ساخرة، ثم سألته:

– "طيب وليه تروح تخطب واحده أهلها ناس أغنياء؟"

– "ياعم دول ناس عادية وشقتهم عادية.. دا أبوها مهندس زراعي وأمها مدرسة، وقعدولهم في الخليج كام سنة.. القصة مش أنهم أغنياء ولا فقراء.. القصة أن كل الناس عاوزة بناتها تجوز جوازة تمام.. مرتاحة يعني.. واحد وارث، ولاّ واحد عنده شقة في حتة حلوة ومرتب حلو، وفرح بالشيء الفلاني يتمنظروا بيه.. مش مهم أنت بقى شخصيتك عاملة ازاي ولا أهلك أصلهم إيه.. دي شكليات!!.. المهم الماديات.. أبجني تجدني.. مفيش أبجني يبقى العب بعيد يا شاطر.. عارف؟ لولا أمي كنت اتجوزت واحدة من حي شعبي ولا واحدة يتيمة.. على الأقل كانت هترضى بأي

حاجة، وكنت هكسب ثواب.. بس اعمل إيه في أمي سيدة المجتمع؟.. تقول إيه لصاحبتها في نادي الروتاري؟.. حاجة هم!"

- "طيب هوّ ما حاولش يسألك أسئلة شخصية يتعرف بيها على شخصيتك؟ هوّ مش مفروض أول قعدة دي بتبقى تعارف؟"

- "أنت أهبل؟؟ تعارف إيه؟؟ دا أول سؤال أنت بتشتغل إيه؟ وبتقبض كام في الشهر؟!"

- "كده خبط لزق؟"

- "لأ.. لزق خبط.. المحاولة الخامسة للجواز ونفس النتيجة.. فشل ذريع.. فين جو يا عم؟ جايز يعرف يتصرف، ويجيب حاجة ننسى بيها الهم.. إزاى مفيش زفت في السوق؟.. طب نعمل إيه؟.. هوا احنا بقالنا حاجة غير سيجارتين الزفت نطلع فيهم قرفنا؟"

- "والله أنت بتضحك على نفسك".

- "ارحمني يا فليسوف الغبرة".

ضحكت وقذفته بعلبة السجائر، وقلت له:

- "تيجي ندخل سينما مترو نتفرج على فيلم عربي هابط؟"

- "يالّا بينا.. أهو نتفرج على أي عك علشان تكمل!"

قطعنا تذكرتين، ودخلنا سينما مترو حفل منتصف الليل؛ لنتفرج على فيلم هابط يحتوى على ممثل يدعي أنه كوميدي، وكل ما كان يفعله طيلة الفيلم هو إلقاء الإفيهات السوقية والجنسية، ومطرب شعبي يغني أغاني تافهة، ترقص عليها ممثلة خليعة، تهز جسدها الذي أظهرت منه نصف

صدرها وبطنها وهو في الغالب ما سمحت به الرقابة المحترمة التي لم تنسَ أن تضيف عبارة "للكبار فقط" على أفيش الفيلم لرفع الحرج. ضجت قاعة السينما بشباب يبحث عن هذا الفن بالتحديد، وأخذوا يصفقون ويطلقون قفشاتهم التافهة مع الأغانى وأحداث الفيلم الذي لم يكن ذا أي مضمون يُذكر، ولكن "حاتم" كان يضحك ويصفق وكأنه يريد أن يندمج في أي شيء حتى وإن كان ليس ذا معنى. لسبب ما فهمت كيف يلقى هذا الفن رواجًا فهو كان منفذًا آخر للهروب، ولتفريغ الكبت وغذاءً مناسبًا لجيلٍ يتغذى على العبث. بينما كنت أتابع الفيلم كنت أفكر فيما حدث لـ"حاتم" الليلة، ولسبب ما شعرت بأن هناك وجه تشابه.

عندها قال بطل الفيلم في نفس اللحظة:

– "أنا خلاص قررت.. أنا هتجوز الرقاصة!"

الحياة في الممر

مازال في المدينة أنفاس ونهر متجدد لفعل الحياة، قد يبدو أن المصريين أغلقوا أبواب السياسة منذ دهور، ولكنهم مازالوا يمضون في نهر الحياة دون توقف. يبحثون عن سبل الرزق ويتزوجون، وينجبون دون توقف، كلما أُغلق أمامهم منفذ يدورون ويفتحون آخر حتى تستمر بهم الحياة. هذا الشعب يعيش ولا يموت، ولا يتوقف.

صباح جميل أيتها المدينة التي لم أفهمها بعد. هاهو الصيف يطل فوق المدينة فأصحو من سباتي وأفيق. هيا تغلغل الضوء في أنحاء المكان، تسلل أيها الصباح. نسائم الصيف تهب ناعمة من الشجرة التي تكسوها الأوراق الخضراء. نافذتي مطلة على الممر الجانبي بين العمارات العتيقة مع زواية تتيح رؤية الشارع الرئيسي.

تأملت النافذة، زجاجها لم ينظف على ما يبدو منذ سكنت، وضلفتي

الشيش الطويلتين ذهب طلاؤهما منذ سنوات بعيدة. أحضرت قطعة قماش، وأخذت أنظف الزجاج بعناية وهمّة حتى عاد يبرق مجددًا. وضعت كرسيًا من البامبو أمام النافذة، وجلست أتطلع من النافذة للبنايات القائمة وأنا أحتسي فنجان الشاي بهدوء. واتتني فكرة وأنا أرقب عصفورًا يقف على الحافة.

أحضرت حامل الكاميرا ونصبته أمام النافذة، ثم وضعت الكاميرا عليه وقررت ألا أحركها من مكانها هذا لفترة طويلة. ستظل في هذا الموقع ككادر ثابت يرصد مرور الوقت. لقطات على فترات مختلفة لما تراه تلك النافذة.

أحضرت طلاءً بنيًا كلون الشيش الأصلي وأصيص زهر أستطيع تثبيته أسفل النافذة من الخارج، وحاملاً بجوار الأصيص وأنية من الفخار. قمت بطلاء الشيش وأنا أقف على حافة النافذة أستمع لصوت "فيروز"، وأحتسي الشاي. كنت أقوم بالطلاء برفقٍ وتأنٍ، وأغير نسب اللون بدقة حتى أصل للون الأصلي. كنت وكأني رسام يعمل على لوحة فنية دقيقة النسب والتفاصيل. لا أود أن أفسد المشهد بلون غير اللون الأصلي فكيف يبني الأصليون مبنى بهذا الجمال المعماري ونقوم نحن بتشويهه؟ كم كان يحزنني اللافتات البشعة الموضوعة على واجهات المباني القديمة من حولي، والألوان القبيحة التي أسالوها على الحوائط فبدت كرقع حاكها خياط أعمى في ثوب بديع.

ثبتُّ أصيص الزهر أسفل النافذة من الخارج بدقة، ثم وضعت بجانبه حاملاً صغيرًا به إناءان من الفخار، بأحدهما وضعت ماءً وبالآخر بعض

الحبوب. أقمت مطارًا صغيرًا للعصافير واليمام المقيم بالممر.

الممر يفصل بين أربع بنايات، ويمتد طويلاً للداخل. يسكن الممر شعاع شمس متسلل من أعلى، وتيار هواء ناعم يتجدد على الدوام وكأن للهواء هنا رحلة لابد من قطعها رغم قسوة الصيف. الشرفات القديمة تبرز من العمارات بزخارف أسوارها المعدنية، وأرضيتها الخشبية أو الحجرية. بعض الغسيل منشور بالأسفل، ورجل يقرأ الجريدة بالشرفة البعيدة في آخر الممر وأطفال يركلون الكرة بالأسفل. في الممر تسكن الحياة.

تدور الكاميرا فترصد اختلاف الليل والنهار عبر مشهد النافذة، وترصد عصافير تأتي لتشرب، وترصد شمسًا تطلق شعاعها في الصباح من أعلى ثم تتوارى خلف المباني.

صرت كل يوم أُولي النافذة اهتمامًا بالغًا من تنظيف للزجاج، وري زهر الأصيص، وملء آنية الطعام والماء للطيور. بعدها أجلس على المقعد لبعض الوقت متأملاً أو أفرغ ما سجلته الكاميرا؛ لأرى ما رصدته. كنت أحب دورة الحياة تلك التي تطل من نافذتي، دورة تمدني بملاحظة التجدد الذي لم أكن ألحظه خلال رحلة الركض في الحياة.

رغم صعوبة البحث عني وعن الطريق المتجه فيه، ولكن كانت هناك علامات تقول لي دومًا: "واصل المضي قدمًا".

في الممرات الضيقة ورغم اشتداد الصيف، كان هناك تيار هواء بارد يمر كخط رفيع بين الواقع الصعب للحياة والأمل.

ها أنا ما زلت في الانتظار، أحاول أن أربي الأمل.

شهدي التهامي

الأسئلة المعلقة أحيانًا تأتيك بخبرها الأيام. وكما أن هناك أسئلة معلقة تتدلّى في رأسك كبندول مؤرق لا يهدأ، هناك أيضًا إجابات لديها القدرة على مطاردتك طوال الوقت.

الصيف الحار يشتد مطاردًا الرؤوس الماضية في متاهة المدينة. ذات يوم توقفت لأربط رباط الحذاء الذي انفك، وبينما أنا منحنٍ رأيت وجهًا لا تخطؤه عيناي قط. نفس العينين الحادتين وكأنهما تحدقانٍ في. تناولت ورقة الجريدة التي كانت على الأرض، وطالعت الخبر الذي يقول "الحكم على المدون "شهدي التهامي" بالحبس لمدة ستة أشهر" على الفور شعرت بالأسى الشديد، وعادت كل ذكرياتي مع "شهدي" تداهمني من باب موارب في ذاكرتي.

كان الخبر منشورًا في فبراير مما يعني أنه أمضى بالفعل أكثر من خمسة شهور في السجن. لقد وجدني "شهدي" وعاد يطل عليَّ فجأة ودون سابق إنذار. لهذا لم أصادف "شهدي" على مقاهي وسط البلد منذ أن عدت، لقد كان مسجونًا. لم أجد شيئًا في قصاصة الجريدة ينبئ بأية تفاصيل تفيد بالأسباب. كان هناك عنوان الخبر والصورة، أما بقية الصفحة فكانت مقطوعة.

كانت الأسئلة تدور في رأسي كنحل تكتل فوق فوهة خلية. ظللت أدور في الطرقات طيلة ساعة أفكر، وانتهيت عند إحدى المقاهي المعروفة بشباب المعارضة فلم ألحظ في الوجوه الجالسة أحدًا أعرفه. طلبت شايًا وجلست على مدخل المقهى، محاولاً اصطياد هدف.

لم تمضِ سوى دقائق حتى ظهر فتى بشعر طويل مجعد. وحقيبة ظهر يبدو أنه لَم يتجاوز العشرين فتأملته مليًا وهو قادم باتجاه المقهى، وأيقنت أنه هدف مناسب. جذبته من ذراعه وهو يمر من أمامي، وسألته عن اسم أحد صحافي المعارضة المعروفين. تأملني مرتبكا، ثم هز برأسه نافيًا فسألته:

– "أنت مدون؟"

بدا وكأن عقربًا لدغه وتملكه الارتياب، وظل محملقًا فيَّ دون إجابة، فحاصرته سائلاً:

– "ماشفتش شهدي التهامي؟"

فهز رأسه نافيًا، ثم أشار نحو شاب يجلس بالداخل وسط مجموعة، ثم قال:

- "دول أصحابه.. اسألهم".

تركت الفتى الذي فر على التو مسرعًا، وتوجهت نحو الداخل. ها هو طرف الخيط. أخرجت شابًا من المشار إليهم، وتحدثنا على جانب من المقهى. ما إن سألته عن "شهدي" حتى قال بأسى:

- "شهدي معتقل من حوالي خمسة شهور بتهمة الترويج لمعلومات تضر بالأمن القومي في مدونته".

أصابتني حيرة وحزن فارتكنت بيدي على جدار المقهى، وسرحت لبرهة. صورة "شهدي" وابتسامته الساخرة تضخّمت في رأسى كسحابة دخان غطت كلٍ شيء. قاطعني الشاب وكأنه قد أخبرني بشيء عادي، فأتبع كلامه قائلاً:

- "أنا فاكرك على فكرة.. كان ليك أفكار جامدة".

تأملته مندهشًا وهو يتسم لي. أردت أن أنفجر فيه وأنعته بالغباء، ولكني تمالكت نفسي وتركته، ومضيت.

قررت أن أزور "تهامي" في السجن قبل أن يخنقني دخانه الذي يتصاعد في رأسي دون توقف كأنه يخرج من فوهة بركان ثار فجأة. ذهبت إلى مقهى البن، وسألت عن مستشار كان معرفة قديمة، فأخبروني أنه تقاعد ولكنه مازال يأتي في الصباح الباكر ليحتسي قهوته.

في الصباح التالي بمقهى البن أجرى سيادة المستشار مكالمة فتم استخراج إذن الزيارة، ومنحني الرجل كارت توصية.

بحثت عن "جهينة" حتى عثرت عليه، وأخبرته بأن عليَّ زيارة "تهامي"

في السجن فما كان منه إلا أن صمت لبعض الوقت دون أن يعلق، وبدا عليه الضيق. تعجبت من موقف "جهينة"، فقلت محتدًا بلهجة غاضبة:

- "أنت إيه حكايتك؟.. هو أنا بقولك تعالى معايا؟!"

فقال:

- "أنا جاي معاك".

لم أهتم وتجاهلته وكأنه لم يقل شيئًا، ومضيت في طريقي ولكنه مضى خلفي مصممًا. لازمني كظلي ومسح السيارة من الأتربة، وظل على المقعد المجاور طوال الطريق صامتًا.

طالع الضابط المختص بعجرفة إذن الزيارة وبطاقتينا الشخصية طويلاً ثم تفحصنا بعينيه جيدًا. كان باديًا عليه أن شيئًا ما في وقفة "جهينة" الواثقة لا يعجبه، فظل يطالعه وكأنه يوشك أن يقول شيئًا، ولكنه لم يقل سوى "فتشهم كويس وخد منهم الموبايلات" وهو يشير لمساعده. غمز لي "جهينة" بعينه متهكمًا، ومضينا نحو غرفة قانية الإضاءة، رطبة الجدران، ليس لها من نوافذ. الغرفة بها كرسٍ قديم وصندوق فارغ لزجاجات المياه الغازية في أحد الأركان.

مر الوقت بطيئًا حتى دخل "شهدي" مكبلاً بكلابشات حديدية في يده الممدودة أمامه. وجهه صار أكثر نحافة عما كان عليه، ولحيته نابتة ورأسه حليق. كان يبدو وكأنه خرج من زمنٍ آخر أو كأنه قادم من تحت الأنقاض.

دخل مطرقا و لم ينظر نحونا حتى سمع صوت إغلاق باب الغرفة. ما إن رآني حتى ابتسم ابتسامته المستهزئة الشهيرة، وقال بنبرة استخفاف:

- "هو انت؟!"

مددت يدي لأصافحه فتجاهلني، ثم مضى نحو "جهينة" فعانقه. ناوله "جهينة" الكرسي فأداره، وجلس عليه بالمقلوب بحيث يستند بصدره وساعديه على ظهر الكرسي. منحه "جهينة" سيجارة وأشعلها له فأخذ منها نفسًا عميقًا قبل أن يقول له:

- "ازيك يا جو؟"

ابتسم "جهينة" له، وأشار بإبهامه دلالة على الجودة. أخذت أطالع "شهدي" في الضوء الخافت كأني أشاهد شبحًا لشخص كان صديقًا ذات يوم. مالبثت أن أحضرت الصندوق من الركن وأقمته لأجلس عليه في المواجهة، ثم نظرت في عينيه الحادتين فما كان منه إلا أن نفث دخان سيجارته في وجهي قبل أن يقول وهو يطالع السيجارة بين أصابعه، ووجهه لا تفارقه نظرة الاستهزاء:

- "يا أهلاً.. يا أهلاً بالعبقري".

ثم أطلق نصف ضحكة ساخرة. لم أجب وأحسست برغبة في الصمت، حولت نظري نحو "جهينة" ليقول شيئًا فبدا جامدًا، و لم يحرك ساكنًا.

اقترب مني "شهدي" وهو يشد كرسيه تحته، وظل محدقًا لفترة ثم قال:

- "فينك من زمان.. الله يرحم أيام الكلام الكبير، والتحليلات العميقة، والمبادئ، والمطالب.. وهنعمل وهنسوي ولازم نغير.. إيه رأيك في التغيير ده بقى يا كبير؟"

نظر حوله وهو يشير للجدران، ثم تابع ساخرًا:

- "إيه رأيك؟"

لم أتكلم وبقيت صامتًا، فقد باغتتني بعداءٍ كبير لم أتوقعه. تابع بسخرية:

- "أخبار الدولارات والدراهم إيه؟ سامع إنك ما شاء الله".

طالعته مندهشًا فما كان منه إلا أن توقف عن الابتسام، وتحول وجهه إلى الجدية، ثم قال وهو ينظر نحو سيجارته:

- "أخبار الشعارات التي كنت بترفعها إيه؟.. طب أنا بقيت صاحب قضية، وأنت بقيت صاحب فلوس ووجاهة.. تحب أقولك أنا بقى الخلاصة يا أبو الشعارات الرنانة.. خد يا عم الشعار ده".

أخذ نفسًا آخر عميقًا من سيجارته، ثم نفثه مجددًا في وجهي، وقال بصوتٍ هامس:

- "طظ فيك".

ثم بصق بصقة في وجهي مباشرة. بصق "شهدي التهامي" في وجهي عندما زرته في السجن، هالتني المفاجأة فلم يخرج مني أية ردة فعل. أخرجت منديلاً من جيبي، ومسحت البصاق ونظرت نحو "جهينة" الذي كان جامدًا تمامًا ومحدقًا دون أي تعبير على وجهه. عدت أطالع

"شهدي" الذي بقي محدقًا في وجهي كأنه يريد أن يصوب مجددًا شيئًا ما، ولكنه يبدو أنه قد أفرغ ما في جُعبته.

يبدو أنني الممثل الوحيد الذي نسي جملته في الحوار، فتوقف المشهد عند هذا. حاولت أن أستعيد السياق لأقول جملة ولكن لم يخرج مني شيء.

انفتح الباب فجأة، وتم اقتياد "شهدي التهامي" للخارج، فمضيت خلفه نحو الباب بخطوات ثقيلة.مضى دون وداع ودون التفاتة في الممر الطويل مع سجّانه.

ظل "جهينة" يضحك دون توقف على الكرسي المجاور في السيارة، ولا ينظر لي طوال الطريق ونحن عائدان. نظرت إليه مستنكرًا ولكنه تجاهلني وظل يضحك. هل كانت البصقة تضحك "جهينة"؟ أم كلام "شهدي"؟

وجدت نفسي أضحك أنا الآخر، و لم أعرف علام كنت أضحك أنا أيضًا، ولكن كان هناك غضب مكبوت يعتمل في داخلي. غضب من كل شيء حولي في هذا البلد. غضب مرير ولكنه مضحك.

كلمات "شهدي التهامي" ترن في أذني. هل صحيح أنني صرت من المشار إليهم بسبة "باعوا القضية"؟ ما هي القضية التي أشار إليها هذا التعس؟ عما كنت أتحدث في هذه السنوات من عمري؟ وما هي تلك الأفكار الذهبية التي كنت أتحدث بها حينذاك حتى يحاسبني هؤلاء عليها الآن؟ اعتصرت ذهني فلم أتذكر شيئًا، هل أنستني سنوات العمل والسفر كل ما حدث في تلك الأيام؟ ربما كان من الطبيعي لشخص مثلي انخرط وسط الأجانب وشاشات الكمبيوتر والتكنولوجيا أن ينسى أشياءً عدة كان مبالغًا فيها، وأن يتحول إلى شخص أكثر واقعية. ربما كان عليَّ أن أنسى تلك التفاصيل عندما رحلت. ولكن يبدو لي بأنني نسيت حتى الخطوط العريضة، و لم أعد أذكر من تلك الأيام سوى وجوهًا فقط. كان

دومًا وجه "شهدي" أكثر تلك الوجوه حدة. كان يقتلني هذا المحو من الذاكرة. كيف أنسى ويتذكر الآخرون أشياءً عني؟

في شارع علوي، وعلى إحدى مقاهى حي البورصة حكيت لـ"بيبرس" ما حدث فأصابه الوجوم، وعلّق قائلاً:

- "ده مجنون.. كلها كام يوم ومصر كلها تعرف القصة دي".

تعجبت قائلاً:

- "إزاي؟"

- "صناعة الخبر يا صاحبى.. زي عالم الصحافة.. هي وسط البلد كده بتدور على القصص دي، علشان تثري قعدات الناس الفاضية اللي على القهاوي.. وهيتحكي عنك قصص مش حقيقية وحاجات أوفر من النوع ده.. مش بعيد يقولوا إنك كنت زعيم الحركة السياسية أيامها.."

قاطعته مندهشًا:

- "للدرجة دي؟"

- "أه وأكثر.. "شهدي" هيذيع قصة زيارتك له واللِّي عمله فيك.. ما انت عارفه أكتر مني بيحب يحكي القصص دي، وطبعًا البرتيتة بتاعته هتضخم القصة، وهتضيف عليها التوابل والبهارات".

- "مش مصدقك".

- "بكرة تشوف".

- "علشان كده "جهينة" قعد يضحك؟"

- "هوَّ كان بيضحك؟"

- "أه بعد لما مشينا".

- "ههههه.. جو عارف اللي فيها.. أنت شكلك نسيت وسط البلد يا صاحبي".

- "الظاهر كده".

كان مايقوله "بيبرس" صحيحًا تمامًا، فلم يكد يمضي يوم حتى هبطت عليَّ "فريدة" وهي مبتسمة، وسألتني:

- "أنت كنت صاحب شهدي التهامي؟"

- "مع الأسف".

لم تعجبها إجابتي، وبعد فترة صمت قالت:

- "أنا جعانة يا أسطى.. أكلني".

- "أسطى؟!!"

ضحكت بدلال ضحكة مجلجلة، وتعلقت بذراعي وسرنا. حكيت لـ"فريدة" وهي تشفط السباجيتي من الشوكة، فتفاعلت مع القصة ولكنها لم تفهم كل ما حدث. كانت تفتح فمها مندهشة وهي تأكل وتضحك بين الحين والآخر، ثم تتطلع فيَّ مليًا.

ضحكت ضحكتها الساخرة عندما وصلت بالقصة لبصقة "شهدي" على وجهي. وقالت:

- "بجد؟؟؟"

قلت ساخرًا:

- "أه والله.. حتة تفة.. خبطها بإخلاص!"

ضحكت أكثر حتى انتبه إلينا كل رواد المطعم، فقلت:

- "بس.. بس.. اهدى فضحتيني".

عدنا إلى مقهى البورصة لتشرب شايًا بالنعناع الأخضر، وهواء العصاري يداعب الأشجار ومفرش الطاولة. عادت "فريدة" تسألني بإلحاحها الطفولي عن قصتي مع "شهدي" فقلت لها:

- "شهدي مدون سياسي.. معرفش حتى هو تبع أي تيار دلوقتي.. أنا معرفش عنه حاجه من سنين.. من يوم ما سافرت".

فقالت باندهاش:

- "أمال كلامه معاك كده ليه؟"

لم أعلق فطالعتني بحيرة، ثم تابعت:

- "مش فاهمة أي حاجة منك يا أسطى!"

فهتفت:

- "تاني أسطى؟ هوا أنا بقولك هاتي الأجرة يا أنسة؟... إيه حكايتك النهاردة؟!"

- "معلش أصلي بركب تاكسيات كتير.. وبعدين ما أنت عارف أني بحب الكلام البيئة.. ها، احكيلي كمان أصلي معجبة بـ"شهدي التهامي".. دا كان دايمًا بيتكتب عنه، وبيطلع في التليفزيون على قنوات

الأخبار الأجنبية ويقعد يتكلم عن حقوق الإنسان، ويشتم في النظام، ويقول كلام جامد جدًا كان بيعجبني".

نظرت إليها باستغراب مفكرًا، هل صار "شهدي" شهيرًا الآن للدرجة التي أصبح فيها رمزًا للمعارضة؟

رويت لها باقتضاب موجزًا عن تلك الفترة من حياتي حينما كانت مقاهى وسط البلد تجمعني بـ"شهدي" وبعض الرفاق، وكانت أفكارنا السياسية تتوافق، لم أكن حتى أتذكر التفاصيل، كل ما أذكره أنها كانت مرحلة من التمرد والتناقضات.

الحكاية لسببٍ ما كانت تستهوي "فريدة" بشدة، فمضت تسألني في كل التفاصيل:

– "كان بيقولك ليه يا عبقري؟"

– "شهدي كان دايمًا بيبصم على كل كلمة أقولها لما كنت بتكلم في السياسة مع أني كنت ليبراليًا وهو يساري اشتراكي".

قالت وهي تغمز:

– "كنت بتتكلم في إيه أيامها؟.. عاوزة أعرف".

– "فريدة.. أنا نسيت الكلام ده من زمان، ومش مؤمن بيه دلوقتي.. أنا كنت بقول أي كلام.."

طالعتني بخيبة أمل، وتململت وكأنها كانت تبحث عن شيء غير الذي تراه. لم تمض بضع دقائق حتى رن هاتفها فمضت، وتركتني جالسًا تائهًا في خِضَمّ أفكاري أحاول فك ألغاز محيرة.

ينتهي النهار ويطل الليل، وتعجّ طرقات حي البورصة ومقاهيها بكل الفئات من الشباب، وينتشر دخان الشيشة ذو نكهات الفواكه الفواحة، وتصطف أكواب الكوكتيل الملونة والعصائر والشاي. أعداد غفيرة تتجمع في نهر الشارع المكدس بالمقاهي والكراسي.

فتيات محجبات يضطجعن على الكراسى، ويدخنَّ الشيشة بشراهة ووجوههنَّ مغطاة بطبقات وطبقات من المكياج الرخيص الفاقع ألوانه، يرتدين الحجاب على الرأس، والجينز الضيق على الأرداف. هناك أيضًا فتيات أخريات كاشفات شعورهنَّ المصبوغ، يتركنه مشعثًا مموجًا دون تصفيف، يرتدين ملابس على الموضة، غالبيتها قمصان فضفاضة تسقط عن الأكتاف، وجينز ملتصق على الجسد، وأحيانًا يحتوي على فتحات. يجلسن ويمددن أرجلهنَّ التي تنتعل موضة نِعال الحمام ذات الأصبع. الفنانات يرتدين أحيانًا سراويل فضفاضة ذات الطابع الهندي كالأجنبيات، وتلاحظ دومًا أنهنَّ يستمتن في المحافظة على المظهر المتّسخ الغير مهندم. يعتززن بالمظهر البوهيمي المتحرر من القيود.

أولاد تسقط بناطيلها حتى تظهر ملابسهم الداخلية، ويرتدون قمصانًا ضيقة؛ لإظهار العضلات سواء كانت موجودة أو لم تكن، ونظارات طبية مربعة وشعر مكسو بطبقات الجيل اللامع، وشعر آخر طويل ومشعث، وشعر آخر مضفر ضفائر على الطريقة الأفريقية. مجموعات من شباب أسمر البشرة يرتدون سراويل كبيرة الحجم، وقمصان الكرة الأمريكية، وجنازير فضية حول الرقبة مقلدين مظهر مغني الراب. وشباب آخر من الفنانين طويلو الشعر واللسان عندما يتحدثون أو يعلقون.

رحلت "فريدة" التي لم يعجبها شيء في حديثي، وبقيت أنا دون حِراك على مقعد في نهر الشارع لا يدل على أي شيء. مجرد زبون آخر على مقهى مزدحم يقع في شارع صاخب. لا رغبة لي في المشي أو الحِراك أو الحديث، وكأنني في حالة إعياء شديد من الشخص الذي أحمله داخلي، ولا يكف عن التفكير. أينما نظرت حولي رأيت تناقضات تذكرني بـ"شهدي" وملامح وجهه الحادة تطل من غياهب ذهني المحبط. كلما فكرت في "شهدي" شعرت بضيقٍ شديد في صدري. ما يلبث أن يتحول ذهني إلى التفكير في "فريدة"، فيزداد الأمر سوءًا.

أشعر بأني أدور في دوائر مغلقة ليس لها من منفذ للخروج. أحلق بعيني فيمن حولي فأرى خِضمًا هائلاً من جيلٍ متناقض المظهر، ومتناقض الهوية والنسق.

دونما مقدمات بدأ بث مباشر لمباراة نهائي دوري أبطال أوروبا للأندية، برشلونة وأنتر ميلان. ولأنني كنت لا أشعر بكل شيء يتحول حولي، لم أتحرك من مكاني على المقعد الذي تراصت حوله عشرات من المقاعد في دقائق. قررت أن أتابع المباراة لعل هذا يريحني قليلاً من متاهات نفسي ولو حتى لوقتٍ قصير.

ضج المقهى بعشاق الكرة. يرتدون قمصان الفريقين فأحسست بأنني أتابع المباراة من مقعد بالإستاد، وليس على مقعد مقهى بشارع علوي في حي البورصة.

الأحاديث كانت عصبية ومتأججة، وكأنني وسط مشجعين أتوا من

إيطاليا وأسبانيا للتو. ما كل هذا التعصب؟ مباراة كرة أوروبية لم تكن تعني من قبل سوى ملاعب مبهرة وكرة قدم ممتعة وأهداف ملعوبة. قامت معركة بين الطرفين مع أول هدف، وتم تكسير عدد لا بأس به من المقاعد والأكواب. وقفت أتفرج على المعركة الحامية التي اتسعت دائرتها في وقت قياسي لم يتجاوز الدقيقتين. ظلت المعركة قائمة تهدأ حينًا بمحاولات التهدئة التي يستميت من أجلها عمال المقهى وبعض العقلاء، ولكنها تعاود التصاعد والتلاحم مع أول سبة بذيئة تخرج من أحد الطرفين. لم يتابع أحد المباراة الجميلة للأسف، وانشغل الكل بالمعركة فقررت أن أنسحب بعد أن أفسدوا ليلتي، وتمتمت في سري بأن كرة القدم دائمًا تُخرج أسوأ ما في المصريين من تعصّب وعدوانية، وبذاءة وصراع أهوج ليس له من داعٍ. صراع ذكرني بـ"شهدي" عاشق الصراعات، وعاودني وجهه الحاد وملامحه العدوانية وأنا أخترق شارع "شريف" ماضيًا نحو بيتي.

ظهر "توفيق" في طريقي واقترب مني وهو يحدق من خلف نظارته العجيبة. وقف يطالعني دون أن يقول شيئًا، ولأنني لم أكن أطيق شيئًا الليلة زعقت فيه:

- "إيه؟؟؟"

فرد مستنكرًا:

- "إيه انت!!"

وضعت يدي في جيبي، وأخرجت له بعض المال، وقلت والغضب يتملّكني:

- "خد.. وحل عني مش نقصاك".

تعجب وكأنني فعلت شيئًا غريبًا، ولم يأخذ المال بل قال بلهجة جادة:

- "معاك موبايل بكاميرتين؟"

رددت عليه ببديهية:

- "أيوه".

- "طب ممكن ترن عليا؟"

قلت مستغربًا:

- "ليه؟"

فقال وهو يجري من أمامي:

- "علشان أسيبك ترن..."

ابتعد وهو يجلجل فرحًا، ويهتف كالمنتصر:

- "عليك واحد.. عليك واحد".

ابتسمت دون إرادتي، هذا العفريت جعلني أبتسم بعد يومٍ عصيب.

فحت البحر

كان الشارع الذي أمر منه كل يوم، محفورًا لأعمال صيانة. ظل الشارع مشوهًا لشهور، وكلما مررت به قافزًا بين ضفتي الحفر أتساءل متى سينتهي هذا المشروع؟ ومتى سيتم ردم هذه الحفر ورصف الشارع؟ تتوالى الأحداث على الشارع المحفور.

ذات صباح وبسبب أعمال الحفر انفجرت إحدى مواسير الصرف، فتحولت الحفر إلى برك صار من الصعب اختراقها كل يوم. يتعثر أطفال المدرسة في تلك الحفر كل يوم، وتُسير طالبات مدرسة الثانوى بحرص وخوف في الشارع حتى يصلن لنهايته. ذات مساء انفجر كابل الكهرباء الأرضي بعد أن غرق في المياه، وكاد أن يصعق الكثيرين لولا العناية الإلهية. يقال إن الخط الذي يوصلونه لم يكن مطابقًا للمواصفات، فتم إلزام المقاول بتغيير كل شيء فاعترض الرجل وبقي الوضع محل التجميد.

ويقال أيضًا إن الخط المزمع إنشاؤه تم اكتشاف تعارض بين مساره وأنفاق المترو القريبة. ويقال إنه هناك خلاف قائم وتضارب بين شركة الغاز ومصلحة التليفونات، وهيئة الكهرباء وهيئة المياه والصرف الصحي حول المسارات. أصحاب المحلات ينعون حظهم ووقف الحال، والسكان يدورون بسياراتهم في الشوارع المجاورة كل مساء؛ للحصول على مكان يتركون فيه سياراتهم، أما المارون في الشارع فيمارسون رياضة القفز؛ ليعبروا الشارع المدمر تدميرًا حادًا، وكأنه تم قصفه بالمدفعية الثقيلة في زمن الحرب!

في يوم حار مشبع بالرطوبة قال عم "شاهين" لتاجر الأنتيكات الذي كان يفاصله على السعر باستماتة:

– "عارف فحت البحر؟"

قال الرجل

– "أسمع عنه".

قال العم "شاهين" بلهجته القوية الواثقة:

– "أنا بقى حضرت أيام فحت البحر.. أنا في المهنة دي من قبل ما انت تتولد، ولما أقولك ده خشب أرو أصلي يبقى تصدق على طول".

قال الرجل مماطلاً:

– "بس هزها".

رد العم "شاهين" غاضبًا:

- "أهزها.. ليه رقاصة أنا قدامك؟؟!!"

بهت الرجل. وأخرج رزمة الفلوس من جيبه، ووضعها على المكتب ثم قال:

- "ماشي يا عمنا.. الفلوس عندك وبكرة هبعتلك العربية تشيل".

ثم أردف وهو يهم خارجًا:

- "إلا البحر ده كان مكانه فين؟"

لم يُعره العم "شاهين" أي انتباه، فخرج الرجل مطأطأ الرأس. قال العم "شاهين" حانقًا:

- "قال بيقولي هزها.. إيه اللغة دي؟ بقينا في زمن الرقاصات.. زمان الكلمة كانت تخرج من بق الواحد سيف.. هي كلمة واحدة.. هات وخد من سكات.. كلمة ونص بذوق واحترام.. الرجل زمان لما يقول كلمة كان يلتزم بيها.. مش دلوقتي مليون كلمة.. وأصل وفصل ونحكي ونعيد.. هزها قال؟؟.. بقاله شهر بيشتري في الكام حتة لما طلع روحي".

فقلت مقاطعًا:

- "حلوة فحت البحر دي.."

مسح العرق الذي تصبب من وجهه بمنديل، وبدا عليه الإعياء، وما إن مضى نحو مكتبه حتى سقط مغشيًا عليه.

القلب العجوز

بعد أن فحصه الطبيب في المستشفى، أخبرني بأن قلب الرجل العجوز لم يعد يتحمل الإجهاد. كان عليه أن يلزم الفراش ولا يغادره حتى يتعافى. أتى أبناؤه وعرضوا عليه أن ينتقل ليسكن مع أحدهم فتركهم يتحدثون، وجذبني من ذراعي ثم همس في أذني بأن أذهب به إلى بيته.

أتت إحدى بناته بأغراضها وابنتها، وأقامت معه ولكنه لم يكن مرتاحًا وكلما زاره أحد أبنائه يظل صامتًا لا يتحدث مع أحد، وإذا أراد شيئًا كان يهمس لي.

دار حديث جانبي بيني وبين عبدالله ابنه الأصغر، الذي كان يقترب مني في السن، وأخبرني بأن في السنوات الأخيرة دار بين إخوته صراعات مذرية من أجل الميراث، وكانوا يريدون من العجوز أن يبيع المحل؛ ليستفيدوا بالمال، ولكنه ثار عليهم وقاطعهم، ومن يومها وهو على هذه

الحال معهم، وهم لم يتنازلوا عن رغبتهم وهو لم يلن لهم، و لم يتصالح معهم من يومها. بدا عبدالله وكأنه هو الآخر مغلوب على أمره أمام سطوة إخوته، ونظرات العجوز له كانت توحي لي بخيبة الأمل.

كنت أقرأ عيني العجوز وكأنني أطالع كتابًا مفتوحًا، ظل عدة أيام لا يبارح السرير، ولكننا كنا نتحدث سويًا بنظرات الأعين حديثًا لم ينقطع أبدًا.

تعافى العجوز ببطء مع الوقت، وكنت أذهب إليه كل مساء لأجلس إلى جانبه، وفي ذات ليلة حارة أخبرني بأنه يريد أن يجلس في الشرفة وأن يأكل "بطيخ". قطعت لنا حفيدته شرائح من البطيخ، وجلسنا في الشرفة المطلة على ميدان الأوبرا القديم نطالع الميدان، ونتنسم هواء الليل.

كان يرتدي بيجامته جالسًا على كرسيه، محني الرأس صامتًا، وكأن أشياء كثيرة تؤلمه أكثر من قلبه المريض، جفناه مرتخيان، وعيناه نصف مفتوحة وحاجباه الأبيضان تشوبهما شعيرات قليلة سوداء وكأنهما أطياف أيام ولّت.

قال عم "شاهين" وهو يتأسي:

– "أنا دفعت تمن حاجات كتير في حياتي.. مش هاجي في آخر أيامي، وأدفع تمن كرامتي".

صمت ففهمت أنه يتحدث عما فعله به أبناؤه، كيف يريدون أن يحيلوه للتقاعد. ناولته شريحة بطيخ فأكلها على مهل، وقال:

– "لو مت ابقى ادفني جنب "مصطفى".. مهما حاولوا معاك

ولادي متسمعش كلامهم.. ادفني جنب صاحبي.. والأنتيكات اديها لـ"حسنين"، أنا عاملك بيهم توكيل".

قلت له:

– "والنبي بكره أنت اللي تدفني".

ضحك ضحكته المعهودة، وقال:

– "طول عمرك لمض من وانت عيل صغير مش باين من الأرض".

– "يعني مش مكفيك سهرات الأوبرج مع جدي، ومقطعين السمكة وديلها.. وإسكندرية ورأس البر، وبرضه عاوز تروح تكمل معاه؟"

ضحك العجوز، وقال:

– "يخرب بيت عقلك".

– "احكيلي يا عم على المزز.. كانت أيامكو عاملين إزاي؟"

– "بس يا أهبل".

– "يا راجل دا انتو كنتو عايشين أحلى عيشة.. البلد كانت فاضية، وكنتوا عايشين فيها براحتكم.. وكل حاجة على أيامكم كانت بمليم".

بقينا صامتين طيلة الليلة حتى بزغ نور الفجر، والعجوز ينظر للأسفل ويهز رأسه بين الحين والآخر وكأنه يستمع لحديث وعظ لا متناهٍ في داخله، ثم قال:

– "من حكمة ربنا أن الإنسان يعجز ويضعف.. علشان في آخر أيامه يتعظ ويفكر في كل اللِّي كان معاه وراح منه من صحة وعافية.. ربنا

خلق الإنسان ضعيفًا وبعدين قوي، وفي النهاية يرجع ضعيف.. في نهاية الرحلة بس الواحد بيقدر يحكم على حياته اللي عاشها.. وعلشان كده ممكن تلاقي الناس بتتغير، واللي فضل طول عمره عاصي يتوب.. والمفتري يتهد.. احنا بنعيش الحياة كلها بطولها وعرضها، وللأسف مبنفهمهاش إلا في آخر محطة".

هز رأسه ذا الشعر الناعم الأشيب وهو ينظر أسفل قدميه، وعيناه أصابهما الوهن فارتخت جفونه، وسرحت أنا في تفاصيل وجهه وفي كلماته التي كانت تغوص في أعماقي وكأنها قنديل يومض في آخر سرداب طويل مظلم.

مرابض بروابط

جلس "عنتر" يفترش الأرض بجوار مقعدي، وكلما فردت قدمي فوق الرصيف المرشوش بالماء هز ذيله الكثيف الشعر كأنه يرد عليَّ. نحيت الجريدة جانبًا، وسألته في محاولة لكسر الملل:

- "الصيف حر قوي السنة دي كده ليه؟"

نظر إليَّ بعينيه السوداوتين بكسل، ثم أطرق وعاد يريح ذقنه بين رجليه الاماميتين الممدودتين أمامه كتمثال أبي الهول. لم أتوقف وهززته برفق قائلاً:

- "مش هتروح تصيف في مارينا؟"

ابتسم صبي المقهى وهو يضع الشاي أمامي، فأخذت رشفة وتابعت:

- "هتفضل طول عمرك كده مقطوع هنا جنب روابط والتكعيبة؟"

"عنتر" كلب مثقف بلاشك، ومقيم بشكلٍ دائم حول مقاهي شامبليون والتاون هاوس، ومسرح روابط حتى صارٍ أحد معالم المكان. أول لقاء جمعني به كان أثناء أحد عروض المسرح عندما لم أجد مقعدًا، فوقفت بالمدخل متابعًا العرض فلمحته يقف إلى جواري، وظل متابعًا العرض حتى نهايته، يتابع حركة الممثلين، ويتفاعل بهز ذيله في سعادة وإثارة. منذ هذا اليوم صارت بيننا ألفة وصداقة، وكلما كنت أذهب للتكعيبة كان يأتي ليلقي بجسده الأسود الفاحم إلى جواري.

"عنتر" الشهير أيقونة للمكان، ومعروف للمثقفين وشباب الفنانين، ومرتادي أرصفة سور شامبليون وروابط والتاون هاوس، "عنتر" يجوب المنطقة كزميل، ويُكِنُّ له الجميع التقدير، فلم يشكك أحد في إخلاص "عنتر" للحركة الفنية النشطة بكل تياراتها. لكن لسبب ما لا يعرفه أحد كان "عنتر" متقلب المزاج والأهواء، فأحيانًا يجول هادئًا مسالمًا، وأحيانًا أخرى يهيج وينبح في وجوه الجميع فيتحاشوه.

كان "عنتر" عدوًا للأمن كلما رآهم نبح وهاج، وكانوا يمقتونه بشدة. لم يستطع أحد تفسير سر هذا العداء المتبادل بين الطرفين، فهل كان جسد "عنتر" الممتلئ ونباحه السليط تجاههم يوحي بتهديدٍ ما يستفز غرورهم وسلطتهم؟

آخر مرة رأيته كان مصابًا فوق حاجبه ربما أصابوه بقذفة حجر، سكبت على رأسه الماء محاولاً تهدئته، ولكنه هاج أكثر وكاد يهاجمني فتركته.

في يوم نحس حار تم إعلان الخبر في كل مكان، علي المقاهى وبين المثقفين، وعلى صفحات الفيس بوك. الأسى عم الجميع ودارت الأقاويل.

من المسئول عن الحادث؟ حاول العاملون بالمسرح وشباب المنطقة إسعافه، ولكن قضاء الله نفذ، أكد لي "بيبرس" الخبر، أما "جهينة" فعزاني وشد على يدي.

مات "عنتر" بالسم، دسوا له السم في الطعام. مات "عنتر" لأنه كان لا يسكت. كان يسير فخورًا بنفسه في زمنٍ كان لا يترك فيه أحدًا حتى لو كان كلبًا.

بلد المدونين

كلام كثير يتطاير من الأفواه يمينًا ويسارًا، كلام متسق وكلام مبعثر، وكلام متلون وكلام صاخب، وكلام محبط. في بلد المدونين كل الكلام متاح بعد سنوات من الكبت إلا قليل، فمازالت هناك أعين ترقب. أعين ترقب في الظلام كل ما يقال، خفافيش سوداء في جهاز متسلط يفتش في الحشود عن خلق أهداف حتى وإن لم يكن هناك من أحد. كانوا يصنعونها. هي مقتضيات المهنة، فلا تلصص دون صيد ودون قصة محبوكة.

يتوالى الكلام من كل صوب في الفضاء المتسع، الغاضبون والمتمردون، والفنانون والحالمون كل آت ليقول ما كان يود أن يقوله. خرج علانية تحت الضوء الساطع. فمن يستطيع حجب الكلَام المنهمر؟

في بلد المدونين خرج الكلام، كله متلاحق لا يتمهل لحظة، بل انطلق كأنه طيور انفكت من أسر طويل. خرج المارد من قمقم ملعون فلم يعد أحد

قادرًا على إدخاله مكمنه. دفاتر اليوميات خرجت من الخزنات المغلقة، وأعلنت صفحاتها على الملأ. لم تعد هناك فكرة تختبئ في الظل، ولا رأي متوار وراء الحجب، بل حضر الجميع هنا في الساحة وتعالى الهُتاف. الهتاف صار يعلو في بلد المدونين، والصراع على كسب أرض صار كبحرٍ متلاطم الأمواج لا يهدأ له إعصار.

الحِراك يؤرجح المركب الذي مات في خليج مهجور. الحِراك يدفعه نحو البَحر المفتوح فمن ذا الذي يقف في وجه التيار الجامح المَسجور؟

في بلد المدونين يقابلني المدونون على النواصي وفي المقاهي. أنا فلان وصاحب مدونة كذا. فما أكثر من يريد أن يتحدث!، وما أكثر ما قد يقال في هذا البلد! المدونات، جرائد وصحف مستقلة يصنعها الشباب بأنفسهم؛ ليخرجوا ما في جوفهم من كلام وفن، وخواطر وقصاصات، واعترافات واتهامات. المدونات معارض فنية لم تجد لها ساحة عرض. المدونات كتب لم تُطبع. المدونات مسرح مستقل وحر وتجريبي. المدونات مفتوحة على مصراعيها، ومعبأة بمقاطع فيديو وموسيقى، وصور وتعليقات، واتجاهات وتحولات.

خروج جديد نحو أفق أوسع فمن ذا الذي سيسجن الطيور التي خرجت لتطير. أفواج وراء أفواج تبحث في الكلمات عن معنى ذي أجنحة. مدونات الوطن مهمومة ومسكونة بالأحزان والأحلام.

صفحات وراء صفحات تحوي في طياتها الكثير من الخبايا لأصابع مدونين يبحثون في كلماتهم عن أنفسهم.

من ذا الذي سيسجن الكلام إذا خرج؟ من سيقف أمام التيار إذا أحتدم وصار كاسحًا؟ الوطن يتغير وبدأ شبابه يكتسب طرقًا أخرى لم تكن من قبل على الخريطة. الزمن يتغير، وفي بلد المدونين سيطر الفكر الجديد، وازداد الإيقاع سرعة، الرأي ينتشر بسرعة الطلقة المصوبة. الإعلام المستقل يصنع نفسه، وينتشر مستخدمًا التواصل الاجتماعي. "الفيس بوك" أعطى الفرصة كاملة للجميع، وفتح الطريق على مصراعيه.

سألني "جهينة" ونحن نتمشى عن اسم مدونة ما، فأجبته بأني قد طالعتها عدة مرات. فهي المدونة الأكثر جدلاً في الوسط السياسي والثقافي، كل مابها أفكار صادمة لحد بعيد. لا أحد يعرف من صاحبها فهو يكتب تحت اسم مستعار. حاول كثيرون إيجاد هذا الرجل، وصارت إشاعات وأقاويل عدة عن هذا الشخص، ولكن لم يكن أحد متأكدًا من الشخص الحقيقي خلف تلك المدونة.

قال لي "جهينة" فجأة ودون مقدمات بأنه الوحيد الذي يعرف حقيقة من هذا الشخص. أصابتني حيرة، وراودني شك للحظات في الأمر كله. ولكنها كانت عادتي دائمًا بأن أدع السؤال يجيب نفسه. ربما لهذا كانت الإجابات تصدمني عندما تجدني؟

عندما لم أعلق قال لي:

– "أنت صنعت عالمك بنفسك، وربطته بالعالم اللِّي حوليك بخطوط وأفكار وبعض الذكريات.. علشان كده أنت بتشوف الأشياء في مكانها وساعات ببساطة بتحركها.. ممكن تجيب اللي هنا توديه هناك، لأنك اللِّي بتصنع الأماكن".

قادرًا على إدخاله مكمنه. دفاتر اليوميات خرجت من الخزنات المغلقة، وأعلنت صفحاتها على الملأ. لم تعد هناك فكرة تختبئ في الظل، ولا رأي متوار وراء الحجب، بل حضر الجميع هنا في الساحة وتعالى الهُتاف. الهتاف صار يعلو في بلد المدونين، والصراع على كسب أرض صار كبحرٍ متلاطم الأمواج لا يهدأ له إعصار.

الحِراك يؤرجح المركب الذي مات في خليج مهجور. الحِراك يدفعه نحو البحر المفتوح فمن ذا الذي يقف في وجه التيار الجامح المسجور؟

في بلد المدونين يقابلني المدونون على النواصي وفي المقاهي. أنا فلان وصاحب مدونة كذا. فما أكثر من يريد أن يتحدث!، وما أكثر ما قد يقال في هذا البلد! المدونات، جرائد وصحف مستقلة يصنعها الشباب بأنفسهم؛ ليخرجوا ما في جوفهم من كلام وفن، وخواطر وقصاصات، واعترافات واتهامات. المدونات معارض فنية لم تجد لها ساحة عرض. المدونات كتب لم تُطبع. المدونات مسرح مستقل وحر وتجريبي. المدونات مفتوحة على مصراعيها، ومعبأة بمقاطع فيديو وموسيقى، وصور وتعليقات، واتجاهات وتحولات.

خروج جديد نحو أفق أوسع فمن ذا الذي سيسجن الطيور التي خرجت لتطير. أفواج وراء أفواج تبحث في الكلمات عن معنى ذي أجنحة. مدونات الوطن مهمومة ومسكونة بالأحزان والأحلام.

صفحات وراء صفحات تحوي في طياتها الكثير من الخبايا لأصابع مدونين يبحثون في كلماتهم عن أنفسهم.

من ذا الذي سيسجن الكلام إذا خرج؟ من سيقف أمام التيار إذا أحتدم وصار كاسحًا؟ الوطن يتغير وبدأ شبابه يكتسب طرقًا أخرى لم تكن من قبل على الخريطة. الزمن يتغير، وفي بلد المدونين سيطر الفكر الجديد، وازداد الإيقاع سرعة، الرأي ينتشر بسرعة الطلقة المصوبة. الإعلام المستقل يصنع نفسه، وينتشر مستخدمًا التواصل الاجتماعي. "الفيس بوك" أعطى الفرصة كاملة للجميع، وفتح الطريق على مصراعيه.

سألني "جهينة" ونحن نتمشى عن اسم مدونة ما، فأجبته بأني قد طالعتها عدة مرات. فهي المدونة الأكثر جدلاً في الوسط السياسي والثقافي، كل مابها أفكار صادمة لحد بعيد. لا أحد يعرف من صاحبها فهو يكتب تحت اسم مستعار. حاول كثيرون إيجاد هذا الرجل، وصارت إشاعات وأقاويل عدة عن هذا الشخص، ولكن لم يكن أحد متأكدًا من الشخص الحقيقي خلف تلك المدونة.

قال لي "جهينة" فجأة ودون مقدمات بأنه الوحيد الذي يعرف حقيقة من هذا الشخص. أصابتني حيرة، وراودني شك للحظات في الأمر كله. ولكنها كانت عادتي دائمًا بأن أدع السؤال يجيب نفسه. ربما لهذا كانت الإجابات تصدمني عندما تجدني؟

عندما لم أعلق قال لي:

– "أنت صنعت عالمك بنفسك، وربطته بالعالم اللِّي حوليك بخطوط وأفكار وبعض الذكريات.. علشان كده أنت بتشوف الأشياء في مكانها وساعات ببساطة بتحركها.. ممكن تجيب اللي هنا توديه هناك، لأنك اللِّي بتصنع الأماكن".

ظللت على صمتي حتى شعرت بأنه ولأول مرة لم يكن يرضيه صمتي، فظل يطالعني وكأن عينيه ستخترقان رأسي. لسببٍ ما كان حائرًا وقلقًا. وعندما انتصف الليل سألته إن كان يود أن نذهب في جولة بالفولفو فوافق.

مضينا بالسيارة في الطرقات حتى تعطلت بنا في ميدان الأوبرا القديم، فظللنا نحاول إصلاحها دون أن نفلح. جلسنا على مقدمتها ندخن حتى أتت سيارة الشرطة وعنفنا الضابط بشدة، وبلهجة تعالٍ على شغل حيز من الطريق.

ظللنا نحدق في الضابط دون رد، فأثار هذا حنقه حتى أمر بتفتيشنا فما كنا منا إلا الاعتراض وعن سبب التفتيش، فأجاب بحدة:

– "انتو هتعلموني شغلي؟.. ركبهم البوكس يا أمين".

تم اقتيادنا إلى قسم الشرطة ودون محضر تم إلقاؤنا في الحجز.

ظللت أطالع "جهينة" وأبتسم، أما هو فبدا غير سعيد. ظل واقفًا مرتكنًا على الجدار وصامتًا. أتى "حاتم" في الصباح التالي، وأخرجنا من القسم بعلاقاته ولم ينسَ أن يسخر منا فأطلق نكاته المعتادة.

ذهبت إلى منزلي في هذا اليوم، وطالعت سيارتي المركونة بأسى. عندما دلفت إلى شقتي أول شيء فعلته هو أن فتحت الكمبيوتر، وبحثت عن كل المدونات التي تتحدث عن الشرطة. كم كان مخزيًا كل ما قرأته عن تعذيب وقهر، واعتقال لمدونين وقتل، وفساد ورشاوي.

تمر عيني على الصفحات فأرى رسائل للوطن مكتوبة من شبابه. رسائل تقول أين أنت يا وطن؟

أعود للمدونة الشهيرة للكاتب المجهول، وأحاول فك الرموز ويرنّ في رأسي كلام "جهينة". هل كان يظن أنني صاحب هذه المدونة؟ أو ربما كان يعرف أشياءً لم أعرفها بعد؟

الفاتنة المتمردة

كنت أحب "فريدة"، اسمها وعينيها المفتوحتين على العالم كطفل يستكشف الحياة. نبرة صوتها تمضي في داخلي فتحرك كل ما فيّ من حنين. صوتها به رنة مميزة، كانت تستحوذ على كياني، وتمضي من أذني إلى أعماقي فأشعر وكأني أرتحل عبر الزمن.

كل الاغتراب الذي كنت أحمله بين طياتي كانت "فريدة" تمحوه كالسحر عندما تتحدث. تمضي بي في طيات حكاياتها فأنسى كل مواجعي وأثقالي وكأن ريحًا خفيفًا تحلق بي نحو سماء مفتوحة.

كنت أستمتع بالأشياء البسيطة أكثر من الأشياء العميقة، كنت أستمتع بفنجان قهوة أشربه على مهل، وأتذوق طعمة على طرف لساني مع كل دفقة. كنت أستمتع بتمشية ذات خطوات هادئة في أمسيات القاهرة، وأسرح في نفسي وفي وجوه الناس العابرة. كنت أستمتع بالنيل رغم كل

ما أحاط به من زحام مبانٍ وبشر وسيارات. كنت أستمتع بنافذتي وقت العصاري أو في نهايات اللّيل. كنت أستمتع بعيون "فريدة" عندما تبتسم أو تتطلع لما حولها. كنت أحب نبرة صوتها الذي كان به شيء ما مميز. كنت أحب دفء يدها عندما تتسلل إلى كف يدي. كنت أحب كيف تلاحظ تفاصيلي أحيانًا فتعرف ما اللون الذي أحبه، وكم ملعقة سكر أضعها في قهوتي، وكيف أمسك بسيجارتي بطريقة مختلفة، وكيف ألقيها عندما أفرغ منها، وكيف أضع يدي في جيوبي طويلاً، وكيف أحك رأسي عندما أفكر. كانت تعشق حكاياتي عن السفر والبلدان التي زرتها أو مكثت فيها، كانت تستهويها طريقتي في سرد الحكاية من آخرها أو منتصفها.

لم تكن تفهم تفاصيل عقلي المتشابكة، ولكنها كانت تفهم تفاصيل الرجل البسيط في، كأنها طفل يفهم نظرات أبويه، ولكنه لا يفهم جدلهما.

كنا نسير سويًا ويأخذنا الحديث الطويل لدروب في داخلنا فيزداد اقترابنا من بعضنا البعض، فتزوي شخصيتها المتمردة وتعود "فريدة" الفتاة الحالمة وكأنها موسيقى ناعمة لقلبٍ هدأت دقاته، واستعاد دفء أنفاسه.

أجمل شيء في المرأة هي أن تكون امرأة بكل ما تحمله المرأة من رقة وحنان وطبيعة، وأصعب شيء في المرأة هو عنادها عندما يسيطر على كل ما فيها. عندما تكون "فريدة" أكثر هدوءًا نتناغم سويًا، ويمضي بنا الوقت كمعزوفة طويلة لـ"شوبان" تتوالى فيها دقات البيانو بصفاءٍ وملائكية.

لكن الحب لم يعد وحده كل شيء. كل الأمسيات الجميلة التي كنت أقضيها مع "فريدة" كانت عند نقطة ما تنتهي، ويتبدّل الحال إلى خلاف. تتغير "فريدة" طيلة الوقت فكل يوم تصبح في حال مختلف. تطل يومًا بشخصية هادئة حالمة، وتقترب مني وكأنها تريد أن تتوارى في طياتي، وتحتمي بي من العالم، وفي يوم آخر تطل بشخصية متمردة ونزق جارف تجاه التمرد والتقعر في اللغة، وانتقاد كل شيء وأي شيء. أشعر بأني أعرفها يومًا وفي اليوم الآخر أشعر بأنني لا أعرف عنها أي شيء وتفاجئني بكل ما تقوله وتفعله. تتقلب "فريدة" كل بضع ساعات، وأحيانا كل بضع دقائق، وكأن أمام وجهي عملة تقامر على كل شيء دون حسابات للعواقب. كم هو صعب أن تحكم أحيانًا على أشياء لست تفهمها، أو أن تقامر على شيء لم تعد تملكه والقادم يبقى دومًا مجهولاً.

وسط البلد المتشابك المشهد والتفاصيل يجتذبها نحو نقطة التقاء التيارات المتصارعة، فتتغير أفكارها مع الوقت فيما يشبه القفزات أو الصدمات. صارت أفكارها مُحمَّلة بتركيبات غريبة وأكثر تعصبًا عن ذي قبل. تختزن "فريدة" كلام المناقشات، وتعيد سردها على مسامعي دون أن تعي ماذا تقول، ودون أن يكون له سياق. مازال هناك خط أراه يتشكل كل يوم في كلامها، وكأنها تكرر كلمات شخص ما. الأمر يزداد وضوحًا كل يوم وأنا مازلت أحاول أن أسير عكس التيار، والاختلاف بين أفكارنا يزداد اتساعًا.

صيف المدينة

كان الحر يشتد كل يوم وكأن أبواب الجحيم تقذف المدينة بحمم اللهيب. المدينة ثقيلة وشمسها حارقة والعوادم خانقة. صيف المدينة يقتل الحواس.

قابلت "فريدة" عند هبوط المساء، وكانت قد خلعت حجابها فبدت بشعرها القصير فتاة لا أعرفها. أخبرتني بأن خلع الحجاب كان بسبب تقصف شعرها وتهتّكه. كما أنها استشارت الطبيب فنصحها بالاستغناء عن الحجاب لفترة. لم أفهم و لم أعلق فقد فكانت زائغة العينين وقلقة، وتتلفت حولها كالمطارد. ما لبثت أن حكت لي عن مضايقات بالجملة تتعرض لها من أشخاص كثيرين رفضت ذكر أي منهم بالاسم، تحكي عن مطاردات ومكالمات تتلقاها من شباب كثيرين، وكلهم يرغبون في التودد

إليها ومصاحبتها والخروج معها، حتى إن شابًا تبعها من وسط البلد إلى منزلها، و لم يتركها حتى صرخت في الشارع وتجمع الناس.

صمتي أغاظها بشدة فيما يبدو، فبدأت فاصلاً من التوبيخ، متهمة إياي بعدم الغيرة والاكتراث، وبأني بارد المشاعر ولا أهتم بشؤونها فما كان مني إلا أن غضبت وهتفت فيها:

– "أنت عاوزه إيه يعني؟ ما هو وسط البلد كده، وأنا حذرتك بدل المرة مليون.. أنت اللي مصممة تقعدي مع الشلل دي، وجاية دلوقتي تقوليلي أنت بارد ومش فارق معاك؟..."

صمتت لبعض الوقت، ثم تابعت غاضبًا:

– "أنت بقالك شهر معرفش عنك حاجة.. وكل لما أكلمك تعمليلي حوار، ومش بفهم تصرفاتك.. بقيتي ليل نهار قاعدة على القهوة أو مع الشلة إياها.. طب قوليلي آخر مرة رسمتي امتى؟ حتى أتيليه الشباب اللي كنت كل سنة مشاركة فيه السنة دي معرفتيش تشاركي؛ لأنك ضيعتي وقت كتير.. أنت نفسك مش فاهمة تصرفاتك.. "فريدة" أنا مبقتش عارف أفهمك ولا حتى أصدقك".

في زمنٍ آخر وظروف أخرى ربما كان شكل الحوار سيختلف، ربما كانت "فريدة" ستحاول إصلاح ما فسد. ربما كانت ستحاول أن تسترد ثقتي، ولكن "فريدة" مثلها مثل الكثيرين في هذا العصر، أصابها الغضب والحنق، وأشاحت في وجهي، و لم تتقبل أيَّ كلامٍ آخر، وانتهى الأمر بأن غادرت وهي تسب كل شيء.

نحن أجيال أفسدها التليفزيون و الثقافة السائدة، أجيال تبحث عن أشياء لا تشق عليهم، يستطيعون أن يتناولوها بسهولة، وعندما تصعب عليهم يتركوها بسهولة. أجيال ذات دوافع مبتورة وأفكار مشوشة وطموح غير منطقي. نريد ما نريده، ولو لم نحصل عليه نلوم الحظ والظروف، والبلد والمحيطين بنا.

نحن أجيال لم نشهد حربًا أو فقرًا مزريًا أو ظروفًا طاحنة، فلم نتعلم حكمة الصبر ولا صعوبة الحياة. أجيال تبحث عن الترف دون ثمن. تبحث عن الأسهل والأسرع، والأقرب إلى التناول. أجيال صنعتها مكاتب التنسيق، وسطوة الأهل ورغباتهم، والإعلام الضيق الأفق أحادي التوجه، من الدولة للشعب. نحن ضحية الفراغ السياسي والثقافي، وتحكمات مجتمع صنع من التوافه ضروريات، ومن الضروريات شكليات للديكور.

نحن أجيال متطلبة، و لم نعد نعرف ماذا نريد. فقط نريد كل شيء، وعندما لا نحصل عليه نهاجم ونغضب، ونثور ونتمرد. نحن ضحية أسلوب معيشة غير سويّ، ومقدرات لم تكن حقيقية بل كانت في غالبيتها شكلية.

أجيال خرجت من رحم مجتمع غير منطقي، وغير واقعي في أحكامه، فكيف ستحاول "فريدة" أن تتحاور لتصلح الأشياء؟ ستختار أن تقطع الحديث وأن تبتر الموقف الذي لم تتوقعه وسترحل.

هي هكذا الأشياء لم يعد يحكمها أيُّ منطق. هي هكذا "فريدة"، قررت أن تجول في عالمها كما تريد هي، وليس كما يكون عالمها. لا تريد أن تتحمَّل عواقب الأمور التي كانت تزداد سوءًا.

كان كل شيء في حياتي صعب التعامل معه، وشخصيتي الإيجابية التي عدت بها إلى القاهرة أصابها الإعياء من كثرة ما تعرضت له من إحباطات.

مع الوقت كنت أشعر بميلٍ نحو الابتعاد بمقدارٍ ما عن "فريدة". وكأنني أود السير بمحاذاة الرصيف ولا أود القفز نحوه، صرت أسير بمواربة أو بالموازاة.

"جهينة" لم يظهر منذ أسبوع، و"حاتم" الذي أتاني في الصباح التالي لم يكن أحسن حالاً. ظل صامتًا على غير العادة وبدا وكأن هناك خطبًا ما كبيرًا. حاولت معه طيلة الصباح أن أدفعه للفضفضة فلم يستجب، حتى نكاتي لم تجعله يبتسم. كان هناك عطب كبير في "حاتم" المهرج، فبدا وكأن مكروهًا كبيرًا أصابه، ولا يريد الخوض فيه أو حتى التلميح.

فارس الأحلام

تشاء الظروف كما تشاء، فكل شيء يلعب وِفق خُطة غامضة، ولأسبابٍ لا أعرفها. قد كانت رحلة العودة للوطن مليئة بالمفاجآت والتقلبات الدرامية، والأحداث المتشابكة. كنت على يقين بداخلي بأنّ المفاجآت ستظل تلاحقنى تباعًا من طريقٍ واحد، ولكنها ظلت دومًا تفاجئني من كل اتجاه ومن حيث لا أدري كالأمواج المتلاحقة، الواحدة تلو الأخرى دون توقف.

في حديقة الجريون كنت أجلس مع "بيبرس" عندما أطل علينا هذا الشاب بقامته المفرودة وشعره الطويل. جلس أمامي ومرر أصابعه في شعره بحركة سينمائية ثم مالبث أن نزع رباطًا مطاطيًا من حول رسغه، وربط به شعره إلى الخلف. قال "بيبرس" معرفًا إياه:

– "تيتو، ناشط سياسي.. يساري وفنان تشكيلي، وبيلعب مزيكا ومدون".

ما إن انطلق الشاب يتحدث حتى استحوذ على انتباهي كاملاً. أشعر أن في رأسي خطوطًا كثيرة مبعثرة بدأت تتجمع، وتشكل نسقًا ما أصابني بالدهشة البالغة التي حاولت ألا أبديها على وجهي. كلما مضى في حديثه أكثر تجمعت سحب متفرقة في رأسي، وبدأت تشكل قبة سماء واضحة المعالم.

أخيرًا ظهر مفتاح لأبواب كثيرة كانت موصودة، فبدأت تنفتح الواحد تلو الآخر وعلى مصراعيها، انكشف الغطاء عما كان مُخبَّأً عني منذ زمن.

طالعت شعره الأسود المعقود خلف رأسه، وبشرته البرونزية والشعر القليل الذي تركه ينمو أسفل ذقنه. التي شيرت الضيق الذي جسَّم عضلات صدره. كفيه اللذين يضعهما على ركبتيه فيبدو أكثر طولاً حتى وهو جالس. حقيبة الظهر التي وضعها إلى جواره تحمل نفس الأمارة. بادج جيفارا كان مشبوكًا على الحقيبة.

أمسك بعلبة السبرايت، وفتحها بأظفر أصبعه الصغير، ورفعها على فمه ولم يتركها إلا وهي خاوية، ثم سحقها بيده وقذف بها إلى الطاولة. قال "بيبرس" وهو يطالعني بتمعن:

– "تيتو رسام و.."

فقاطعته:

– "تشرفنا".

صمت "بيبرس" وقد أيقن بأني قد تلقيت الرسالة، و لم أكن بحاجة لأية مقدمات منه. فعلها "بيبرس" وأتى به ليضعه أمامي. ها هو أخيرًا العنوان الذي كانت تندرج تحته كل البيانات التي لديّ.

تحدث فنضحت لغته بسباب وشتائم تصيب كل شيء وأي شيء. كلما اعترض على شيء سبَّه. يساري النزعة، ليبرالي الهوى مثله مثل غالبية التيار الجديد. منتفخ بنفسه ويضحك بشدة على (إفيهاته) التي يطلقها. يتحدث عن صَولاته وجَولاته في التدوين ونشاطه، وإسهاماته السياسية والفنية وأشياء كثيرة أخرى عديمة القيمة. عصبي اللكنة، وصاحب حركات تمثيلية يستخدم فيها يديه وملامح وجهه. يرسم لنفسه صورة ويبروزها، فهو المناضل والحقوقي، والمطارد من أمن الدولة، هو رسام صاحب قضية، ومصمم شعارات ومدافع عن الليبرالية.

يتنقل بين الموضوعات، وكلما هدأ إيقاعه باغته "بيبرس" بسؤال أو تعليق، فيعود مهتاجًا على طول الخط. يتحدث في السياسية بلا توقف في سياق متواصل، يقطعه أحيانًا بحديثٍ افتعالي وبلكنة الحقوقي، منتقدًا قضايا اجتماعية كالتحرش بالفتيات، ومشروعه الفني للحد من تلك الظاهرة. يتحدث في الفن فيذكر مشروعاته الفنية ذات الأفكار المؤثرة، ويمضي في الحديث بغرورٍ متصل لا ينتهي. يعود للسياسة ويتحدث وكأنه يهتف دون اتساق. فقط زخم من السباب يتخلّله بعض الحديث. أود أن أسد سيل البذاءة، ولكن كان لابد لي من الإنصات مليًا لكل ما يقوله من تفاصيل.

يواصل الحديث عن الموقف السياسي الراهن فأتحسس في كلامه عبارات أعرفها جيدًا. سمعتها من قبل، ها هو المصدر الذي كانت تصلني شظياته طيلة الأشهر الماضية. أخيرًا ها هو النموذج الأصلي يمثل أمامي.

كلما سبّ الدين أو شتم، أو أصدر صوتًا من حنجرته دلالة على الاعتراض كنت أبتسم له ابتسامة عريضة، فيراوده غروره ظنًا منه أني مستمتع بتوجهاته وأفكاره، ويمضي مندفعًا. يبدو أن "بيبرس" قد مهد الأرض على أكمل وجه.

كنت أركب مربعات اللعبة الواحد تلو الآخر، مكتشفا الرجل الذي كان يلازم ذهن "فريدة". لم يكن حدسي يتخيل كل هذا وبهذا الشكل الصادم. لم أكن أظن أنه شخص واحد، بل كنت أظن أنها متأثرة بأشخاص عدة من شخصيات وسط البلد. كنت أظن أنها منساقة في مسيرة المتمردين الحنجوريين، أصحاب التشوهات اللفظية واللغة البذيئة، المعبرة عن نعرة عالية غاضبة على الدوام.

ها هو الرجل الذي أرادته "فريدة"، وتأثرت به يجلس أمامي مباشرة وجهًا لوجه وعينًا في عين، والحديث يتدفق من لسانه، والإشارات تتوالى من حركات أصابعه ويديه.

رميت له بالونات الاختبار الواحدة تلو الأخرى، ذكرت له شاعر عامية فشرح لي علاقته الوطيدة به، وأظهر لي على هاتفه صورًا تجمعه بالشاعر. سألته عن آرائه في أشياء عدة فكانت إجابته متطابقة تمامًا مع ما كانت تصدمني به "فريدة" بين الحين والآخر، و لم أكن أفهم مصدره. ها هو المصدر يجلس أمامي.

كان مندمجًا في حديثه إلى أقصى حد. الآن فقط ألممت بكل تفاصيل القصة التي لم أكن لأستوعبها، وكل الأحداث التي جمعتني بـ"فريدة" ولم أفهم مغزاها. فكلما فهمت أكثر كلما ازدادت ابتسامتي حتى انفلتت مني ضحكة لم أستطع أن أكتمها.

الصورة ركبت نفسها بنفسها، ووضحت أمامي الرؤية. حبي لـ"فريدة" أعماني طويلاً عن فهم الحقيقة. فكم كنت غبيًا وساذجًا. بدأت "فريدة" بـ"هادي البوهيمي"، ثم توالت الأحداث فانساقت مدفوعة بنزقها خلف كل من رأت فيهم شخصيات متحررة وبوهيمية، ومتفردة ومختلفة.

كل من علا إيقاعه، ورسم شخصية ثورية أو حقوقية كان دائمًا يمثل لفتيات وسط البلد محور الانتباه. كل من ارتدى وشاحًا فلسطينيًا، ونصّب نفسه صاحب قضية صار في عرف وسط البلد مناضلاً وثوريًا. بدلة جيفارا تجتذب الأنظار، ومظهر الفنان يضيف الرتوش المطلوبة.

محيط يسهل التأثير فيه والتأثر به، هكذا كانت حكايات وسط البلد تُصاغ وتتشابك. تاهت "فريدة" في وسط البلد وخرجت أنا في النهاية كما خرجت أول مرة عندما ودعت وسط البلد السياسي. ها أنا أحاول الخروج مرة أخرى وصورة "فريدة" الفاتنة بدت وكأنها تنطفئ.

"فريدة" التي أحببتها كانت ضائعة تبحث عن أي سياق صادم، لتندمج في طياته. "فريدة" التي أحببتها ولم تفهمني؛ لأنها كانت طيلة الوقت تبحث عن نسقٍ مختلف عني.

لم أفهم أي شيء طيلة الوقت الماضي، ربما لأنني كنت أركب قطارًا

آخر وماضيًا في اتجاه آخر. كلهم كانوا مختلفين معي في نقطة البداية التي أقف عندها الآن خلال رحلتي فوق أرض المدينة. الاتجاهات متضاربة وكلنا نخوض.

"فريدة" كانت قصة جميلة وحزينة، ولكنها جعلتني أفتح عيني لأرى. ربما اعترضت "فريدة" على شخصي كثيرًا، ولكنها أقنعتني في ذات الوقت بأنني على الطريق ولست تائهًا أفتش عنه مثلها.

النيل والناس

في وقتٍ ما بين العصر والمغرب جلست مع "جهينة" صامتين على ضفة كورنيش المنيل، نطالع صفحة الماء المتحرك وكأننا في حضرة هدوء مقدس رغم الضجيج المحيط بنا.

أمسك بصنارته في يده مشدودة كصياد محترف، أما أنا فوضعتها إلى جواري، تاركًا خيطها يتدلّى في النيل، ممدًا ساقي أمامي، مسترخيًا أفكر. تأملني قليلاً قبل أن يقول بيأس:

– "بقالنا ساعة، ومجبناش حاجة..."

قلت له:

– "تفتكر احنا ممكن نطلّع إيه من هنا؟"

ضحك ضحكته الهادئة، وتساءل:

- "أمال إيه اللِّي جبنا هنا؟"

هززت كتفي، ونظرت مليًا نحو النيل والمراكب، ثم قلت:

- "أكيد جينا نعمل حاجة".

قاطعني قائلاً:

- "أيوه.. هي إيه بقى؟"

ابتسمت ورددت بتلقائية:

- "مش عارف!"

ضحك مجددًا، ثم تابع تحسّس خيط صنارته. لم أكن صيادًا، وليس لي باع في هذه الهواية فقد كانت شيئًا جديدًا عليَّ أجربه للمرة الثالثة في حياتي، أما "جهينة" فقد بدا لي وهو يمسك بصنارته وبكرة الخيط بأنه ذا خبرة في الصيد.

في هذا اليوم كانت السماء تشوبها نقوش سحب خفيفة، وضفة النيل أمامنا أفق مسدود بزخم العمارات وخلفنا شارع الكورنيش مشغول بضجيج سياراته، ولقاءات العاشقين ساعة العصاري.

أرنو إلى العمارات العالية، ذات النوافذ مختلفة الأشكال وفوقها أطباق الدش، ولوحات الإعلانات العملاقة، ثم سألته:

- "تفتكر الناس اللِّي في العمارات دي بيعملوا إيه النهاردة في يوم أجازة نهاية الأسبوع؟"

- "بيذاكروا للعيال وبياكلوا، وبيتفرجوا على القنوات الفضائية، وبيناموا متأخر بعد نص الليل".

سرحت طويلاً في وصف صديقي وسألت نفسي، كيف يعيش الناس حول هذا النيل؟ هل فاتهم النيل العتيق العابر دومًا في حياتنا من أقاصي الجنوب حتى الشمال فلم يعد يطالعه أحد؟ هل لم يعد يتذكر أحد تفاصيله، ويمعن النظر في صفحة مائه؟ هل صارت حياة الناس عدوًا ليست فيها لحظة تأمل أو سلام مع الطبيعة أو استمتاع بالتفاصيل؟

ظل "جهينة" منهمكًا في تفاصيل الصنارة، ومعجبًا بحركة البكرة التي يدورها في يده. سألته مجددًا:

– "ليه الناس عايشة في بكرة؟"

– "لأنهم مرعوبون منه".

– "طب ليه مش عايشين في النهاردة".

– "لأنهم ناسيينه، وهما مربوطين في الساقيه بيلفوا".

– "طب ما هو بكرة هيفكروا في بعده، وتفضل تلف بيهم الدوامة.. طب يا صاحبي هما يبقوا كده مش عايشين".

سكت قليلاً مفكرًا قبل أن يقول:

– "لأ.. عايشين.. بس من غير زمن!"

ابتسمت وأنا أميل عليه، وأقول بصوتٍ خفيض!

– "عرفت احنا بنصطاد إيه؟"

فرد بعد تفكير متسائلاً:

– "الزمن؟"

– "أمال إيه اللِّي جبنا هنا؟"

هززت كتفي، ونظرت مليًا نحو النيل والمراكب، ثم قلت:

– "أكيد جينا نعمل حاجة".

قاطعني قائلاً:

– "أيوه.. هي إيه بقى؟"

ابتسمت ورددت بتلقائية:

– "مش عارف!"

ضحك مجددًا، ثم تابع تحسّس خيط صنارته. لم أكن صيادًا، وليس لي باع في هذه الهواية فقد كانت شيئًا جديدًا عليَّ أجربه للمرة الثالثة في حياتي، أما "جهينة" فقد بدا لي وهو يمسك بصنارته وبكرة الخيط بأنه ذا خبرة في الصيد.

في هذا اليوم كانت السماء تشوبها نقوش سحب خفيفة، وضفة النيل أمامنا أفق مسدود بزخم العمارات وخلفنا شارع الكورنيش مشغول بضجيج سياراته، ولقاءات العاشقين ساعة العصاري.

أرنو إلى العمارات العالية، ذات النوافذ مختلفة الأشكال وفوقها أطباق الدش، ولوحات الإعلانات العملاقة، ثم سألته:

– "تفتكر الناس اللِّي في العمارات دي بيعملوا إيه النهاردة في يوم أجازة نهاية الأسبوع؟"

– "بيذاكروا للعيال وبياكلوا، وبيتفرجوا على القنوات الفضائية، وبيناموا متأخر بعد نص الليل".

سرحت طويلاً في وصف صديقي وسألت نفسي، كيف يعيش الناس حول هذا النيل؟ هل فاتهم النيل العتيق العابر دومًا في حياتنا من أقاصي الجنوب حتى الشمال فلم يعد يطالعه أحد؟ هل لم يعد يتذكر أحد تفاصيله، ويمعن النظر في صفحة مائه؟ هل صارت حياة الناس عدوًا ليست فيها لحظة تأمل أو سلام مع الطبيعة أو استمتاع بالتفاصيل؟

ظل "جهينة" منهمكًا في تفاصيل الصنارة، ومعجبًا بحركة البكرة التي يدورها في يده. سألته مجددًا:

– "ليه الناس عايشة في بكرة؟"

– "لأنهم مرعوبون منه".

– "طب ليه مش عايشين في النهاردة".

– "لأنهم ناسيينه، وهما مربوطين في الساقيه بيلفوا".

– "طب ما هو بكرة هيفكروا في بعده، وتفضل تلف بيهم الدوامة.. طب يا صاحبي هما يقوا كده مش عايشين".

سكت قليلاً مفكرًا قبل أن يقول:

– "لأ.. عايشين.. بس من غير زمن!"

ابتسمت وأنا أميل عليه، وأقول بصوتٍ خفيض!

– "عرفت احنا بنصطاد إيه؟"

فرد بعد تفكير متسائلاً:

– "الزمن؟"

ما لبث أن ابتسم ابتسامة طويلة للنيل، وظللنا على حالنا متجاورين وطرف الصنارة الطويل يهتز برفق بين الحين والآخر في النيل.

ارتكانات ماركوني

نظريات متقطعة متفرقة تأتي من هنا ولا تنتهي في أي مكان. تبدأ ثم تستمر بلا عنوان. نظريات كلها تتجمع في محيطٍ واحد فتتصارع فيما بينها دون خلاص. سوق تتناثر فيه النظريات كبالونات العيد وتنفجر في لحظاتٍ وتتلاشى.

على مقهى ماركوني وذات مساء صيفي مر عليٌّ "بيبرس" ومعه فتاة تبدو في مطلع العشرينات من عمرها. ما إن جلسا وطلبا الشاي حتى رن هاتفه فاستأذن على أن يعود بعد دقائق. ترك الفتاة معي فأخذت تطالعني بفضول.

تبدو بمشيتها وجلستها، وتسريحة شعرها فتاة هادئة، ولكن سرعان ما تبدل الانطباع عندما بدأت حديثها، وبدأت أتجاوب وأرد عليها فبدت مختلفة تمامًا عما ظننته. عندما تطرقت معها لإحدى القضايا صدر

عنها نبرة صوت جدلية ومرهقة بأسئلة متوالية متواترة. كان يبدو عليها الذكاء وسرعة البديهة مما جعلني أتجاوب معها قليلاً. بدأت تقفز بي بين موضوعات متنوعة دينية ذات طابع سياسي، ولما تأخر "بيبرس" تشعبت المناقشة بيني وبينها.

كانت جدلية ولكن دون نسق ومتسائلة، وإلى حد جيد كانت تتمتع بثقافة ولكن دون نضج. سألتني عن معتقداتي الدينية عندما بدأ الكلام بيننا فأخبرتها عن معتقداتي باقتضاب. لسببٍ ما لم يعجبها كلامي فانعكس هذا جليًا في عينيها، فبدأت تسألني أكثر وأجيبها. كنا على خلاف عقائدي ومذهبي واضح، ولكني عندما ركزت قليلاً في ملامح شخصيتها وتنقلاتها الفكرية المتعبة كرهت منهجها ولكني تفهمته. كأن ترى شخصًا يخوض في مستنقع، ولكنك تتفهم عندما تجد أنهم لم يتركوا له طريقًا آخر.

ربما السبب الذي دفعني للحديث معها هو أنني كنت قد رأيت فيها نموذجًا للجيل التالي الذي قد يكون امتدادًا لجيلي، كما أن ذكاءها الحاضر بقوه ينبئني بأن بعض الحديث قد يكون مجديًا. جدلها الذي ساقته لا أستطيع أن أنتقده؛ لأنني كنت في يومٍ ما مثلها تمامًا، عندما كانت تنتابني رغبة عارمة في التمرد الفكري وكسرٍ تابوهات المجتمع الخانقة. ربما كنا جميعًا جيلاً من مكبلين بواقع قاسٍ وأفق ضيق، لم يتسع لنا بما يكفي لنحلم، فتمردنا عليه ومضينا نسب ونعترض حتى صار كل ما ننطقه ينبع من قرارٍ واحد. قرار موجوع رافض.

جميعنا خرج من الشرنقة لجحيم المجتمع المشوش دون سابق إنذار، فوجدنا أنفسنا في ظلماتٍ قاتمة نعاني التيه. لم نستطع أن نتقدم خطوة للأمام أو نغير شيئًا في المُجتمع، أو حتى نطمح لتغييرٍ قادم أو مستقبل أفضل.

نحن جيل التسعينات والألفية الجديدة ممزقون ما بين عصرين مختلفين. عصر المسلمات الغير مقنعة المقيدة، وعصر آخر يلهث منطلقًا تتبدل فيه الحقائق في كل لحظة. نحن الجيل الذي تم تطعيمه بمصطلحات: "المشي بجوار الحائط"، و"الحفاظ على الوضع الراهن"، و"من خاف سلم" فصار يعاني الكبت حتى الانفجار، والتخبط حتى الضياع.

لعلني أستثيرها كلما صدمتها بآرائي التي كانت غالبيتها ضد النموذج الغربي السياسي والعلمانية الأوروبية. تفتح فمها وتمد ساقيها، ومن ثم تطلق ضحكة ساخرة تتناسب مع لغتها التمردية.

تشرب شفطة من العصير، ثم تقطعها بتعليقٍ فج يخرج من بين شفتين مذمومتين، ثم تعقبه بسؤال فلسفي عن مفهوم الدين، وماهية الدين؟ أفكر قليلاً هل سأجيبه أم سأتركها هكذا تستعرض؟ قبل أن أصل لتصور عما سأفعله معها كانت تستفزني بسؤالٍ آخر. كان لابد أن أجيب لعلني أجعلها تصمت قليلاً، فطفقت أرد على أسئلتها بأسئلةٍ أدهى لم تتوقعها هي، وبدت وكأنها تسمعها لأول مرة.

نجحت في استفزازها بتلك اللهجة، فبدأت تتراجع في كرسيها، وتتقلص ملامح وجهها. لكن طاقة التحدي التي تبثها شخصية المتمردة

داخلها كانت تمنعها من التوقف فمضت معي قدمًا في حديثٍ يتأرجح يمينًا ويسارًا بين الجدل والسخرية، تقطعه بعض فترات الصمت.

الفتاة كانت فيما يبدو علمانية النزعة، وكان هجومها على الدين يستفزني إلى حد ما، لم يكن التيار العلمانى باديًا من قبل في ساحات وسط البلد، فقد كانت الأغلبية للشيوعيين الذين أفل نجمهم وصاروا قلائل، أما الليبراليون فكانت أعدادهم في تزايدٍ، وأفكارهم تزداد جرأة.

قدمت لي مقدمة رنانة عن التيار العلماني الموجود في مصر حاليًا، فما كان مني إلا أن سألتها عن أهم رموزه ومفكريه فازدادت حماستها ظنًا منها بأني متحمس للمعرفة، وأنها قد تنجح في استقطابي. أخذت تلقني أفكارهم الأساسية، ومذهبهم الفكري والسياسي، ومحاولاتهم توعية الشباب ونشر الأفكار، ومحاربة التيارات السلفية والرجعية والمتشددة.

شعرت بأن هناك أشياء عدة تجري خلف الستار، وأن وسط البلد السياسي لم يعد كله مفضوحًا كما كان من قبل، فيما يبدو أنه كان هناك أيضًا في الخفاء مذاهب جديدة تخرج وتبحث لها عن أبناء.

ظهر "بيبرس" فقطع الحديث الدائر. اعتذر عن تأخره وطلب من الفتاة أن يمضيا، قامت معه ولكنها قبل أن تمضى تركت لي اسم الجروب الخاص بها على "الفيس بوك" واسمها على موقع "تويتر". أنبأتني بأنهم عادة ما يتجمعون كل يوم خميس في جلسات نقاش، وبأنها ستكون سعيدة إن حضرت المناقشات واستمعت. هرش "بيبرس" في شعره الغير مصفف وابتسم، ربما من سذاجة طلبها لأنه كان يعرفني جيدًا، ثم جرها من

ذراعها وهو يودعني. بعض أن مضيا بضع خطوات ناديتهما وأخبرتها بأني قادم لهذا الاجتماع ولكن بشرط واحد. سألتني عن شرطي هذا فأخبرتها بأني إن حضرت لا يجب أنَّ يعرف أي من الحاضرين اسمي الحقيقي أو هويتي. تطلعت إليَّ بسخرية ولكن غرورها جعلها توافق على طلبي. رسم "بيبرس" ابتسامته الواسعة وابتسمت أنا أيضًا.

عندما أتاني "جهينة" وأخبرته بالقصة ابتسم، وسألنى عما أنوي فعله فلم أجبه، وأخذت أحاول تذكر اسم الفتاة، ولكنه غاب عن ذهني لسببٍ ما.

مضينا في اتجاه ميدان التحرير الذي كان في أوج صخبه وازدحامه بالبشر والسيارات، ولم ألبث أن قلت سارحًا:

- "ساعات بحس أن كل اللي حوليه نازلين رقص... المشكلة أني الوحيد اللي مش سامع صوت الطبلة اللي بيرقصوا عليها".

ضحك "جهينة" مرارًا وتكرارًا على مقولتي، ولكنه لم يكن ليعلق.

المدينة الخاوية

عندما تستند برأسك للخلف، وتفتش في ذهنك عن شيء ما، تفتش في كل مكان ولكنك لا تعرف أين ستجده في متاهتك الداخلية، تسأل نفسك عن هذا الشيء وماذا يكون، ولكنك لا تعرفه بالتحديد. لا تعرف كيف تصفه لنفسك، ولا تستطيع تحديد معالمه ولكنه شعور ما تبحث عنه. بداخلك يقين أكيد بأن هذا الشيء موجود، تكاد تشعر بلمسه وبوجوده في منطقةٍ ما بداخلك، ولكنك لا تعرف كيف تحدد ماذا يكون!!

في داخلك طبقات وركام، وأحداث وصدوع، وتشققات وزحام وكلام، وأنت تائه في الخضم بين جنبات بحرٍ متلاطم الأمواج. لا فكرة تراودك ولا علامة تدلك على الطريق. أنت فقط تسير من سفرٍ إلى سفر وكأنك عابر سبيل يتوقف في المحطات يطالعها ويقرأ جرائدها، ويشرب قهوتها ويتلفت فيسأله آخر عن عنوانٍ فلا يعرف بماذا يجيب.

منذ أن عدت وأنا كل ليلة أحملق في سماء الغرفة المظلمة وأتحسس خشب الشباك القديم عندما أفتحه، لأطل على سماء مدينة القاهرة. الشعور الذي يراودني ولا أعلمه مازال يطاردني في الأحلام وكأنه سحابة تتكون لتنقشع دون أن ألحق بها.

أحدث نفسي أحيانًا أحاديث لا أكاد أفهمها، فأنام دون أن أعلق على هذه الأحاديث طويلاً.

في الحلم يطل وجه أبي وهو يرتدي زيه العسكري، بوجهه الأسمر الدائري وعرق يكسو جبهته وكأنه عاد لتوه من الحرب. أشعر به يقول أنا انتظرت على شاطئ القناة سبع سنوات حتى عبرت. أنا رابضت على رأس الأرض وصبرت السنين. يرحل ويأتي جدي فيقول هل ترى أثر الندبة في جنبي؟ تلك طعنة جندي إنجليزي سكير، مر بي في شارع كلوت بك. يرحل ويطل رجال فقراء كادحون يسيرون تحت شمس حارقة. ثم يتلاشى الجميع رويدًا رويدًا.

في الحلم أرى شوارع وسط البلد خاوية، البنايات مهجورة والأسقف مهدمة. أقف تحت تمثال "عبد المنعم رياض" فأراه متصدعًا ويده اليمنى قد سقطت. أسير نحو وسط البلد فأرى تمثال "طلعت حرب" يقف وحده في الميدان، وعلى رأسه وقف نسر قلق، أصلع الرأس، يبحث بعينيه عن جثة متوارية.

في الحلم أجلس على ناصية وأفتش في الذاكرة عن صورة الزحام وضجيج المارة وأشكال الصخب، ولكنها كلها تلاشت فلا أقدر أن

أستعيد منها شيئًا. أبحث بعيني عن بائع الجرائد على الناصية ويافطة جروبي، وفاترينات الملابس وتسكعات العشاق فلا أجد شيئًا. المدينة خاوية والطرقات مهجورة.

أمضي في شوارع البورصة ومنه إلى لاظوغولي، ثم إلى شارع مجلس الشعب والقصر العيني فأرى أوراقًا رسمية من دواوين الحكومة، تتساقط من نوافذ الأبنية، وبقايا دخان يتصاعد للسماء.

أنا وحدي أطل علي كل شيء فأراه خاويًا، هي نفس العناوين ولكنها غائبة في زمنٍ من الحطام، ومغطاة بأتربة ثقيلة جامدة ورماد لبقايا حرائق.

أفيق من الحلم فأشعر باغتراب، وأطل من النافذة على الشوارع فينادي هاتف بعيد، فأنتعل حذائي وأرتدي معطفي، وأمضي نحو الشوارع أبحث عن مقهى لم يغلق أبوابه بعد فأجلس على ناصيته لأحتسي الشاى وأدندن ألحانًا قديمة.

يهبط ضباب الفجر، ويخرج للطرقات أناس مبكرون يضربون في الطرقات فرادى؛ فأمضي لعربة الفول لآخذ نصيبي من غذاء الشعب، وأمضي نحو بيتي ثقيلاً متعبًا.

في المدينة يكون من الصعب على ملايين البشر الحكم على أنفسهم.. ولكنهم فقط يتهكمون وينتقدون.. هو مجرد مصمصة للشفاة بعد كل موقف. عادة راسخة في مجتمع الأمثال الشعبية. فخاتمة الموقف دائمًا يصاحبها تعليق. صوت الراوي وصوت المعلق على الأحداث من على

ناصية المقهى، ومن على حافة الأريكة، ومن على طرف اللسان، ومن ظلام الجهل.

ما الذي دفعني للعودة وأنا الذي أيقنت منذ بضع سنوات بأن هذه البلد مركب تغرق في بركة موحلة؟ ما هذا الشيء الذي يدفعنا للعودة لهذا البلد؟!

أيها المد العتيد، كيف تأخذنا نحو هذا التيار العنيف؟ هل كان الاتجاه اختيار أم قدر محسوم؟

المدينة جسد لا عقل. المدينة قدر كان محتومًا.

زحام أغسطس

- "أنا مهاجر كندا"

قالها "حاتم" وهو جاد الملامح واليأس يتملك من صوته. السيارة كانت لا تكاد تتحرك في طرقات وسط البلد المختنقة بالزحام. التكييف معطل بالسيارة، والهواء الساخن يهب من نوافذ السيارة معبأ بعوادم الدخان الخانقة وكأننا نقود في دروب جهنم.

قالها "حاتم" بصوته الرفيع، فاخترقت أذني مع ضجيج الشارع المزدحم كيوم نهاية العالم. انتبهت كل حواسي، وأصابني حنق مفاجئ شديد، وسألته بغضب:

- "أنت بتتكلم بجد؟"

- "أيوة أنا مقدم من سنة.. من قبل رجوعك بكام شهر وكل حاجة خلصت.. فاضل بس إجراءات السفر".

احتدمت معه وزعقت فيه، وأنَّبته بعنف على عدم ذكره لهذا من قبل. كيف لم يخبرني بأمرٍ هام كهذا؟ فما كان منه إلا أن ضغط بقوة على آلة تنبيه السيارة فانطلق صوتها مدويًا قاطعًا كلامي.

صمتُّ وأشعلت سيجارة، وأخذت أدخنها بعصبية فما لبث أن قال:

- "احرق.. احرقلك سيجارة.. احرقلك علبة.. أنا بقى عاوز أحرق البلد دي.. أنت إيه اللي رجعك؟.. طول عمري بشوف فيك قدوتي اللي بتعرف تفكر، وسبقاني بخطوة.. تقوم ترجع؟.. رجعت تهبب إيه؟.. تتزنق معايا في الزحمة؟ هيَّ كانت نقصاك.. راجع علشان تحب واحدة تايهة مش عارفة هي عاوزة إيه؟ ولا علشان تقعد مع صاحبك اللي عايش على حافة الدنيا ومش عايش فيها؟ ولا علشان تقعد انت والراجل العجوز تغنوا الأطلال، وكلها كام يوم ويموت ويسيبك تغني مع نفسك؟ إيه.. وحشتك الزبالة والزحمة، وقلة الكرامة وشوية الصيع اللي متلقحين ليل نهار في وسط البلد، يتفلسفوا وكأنهم هما اللي فاهمين كل حاجة؟ راجع علشان تعيش في حتة وأمك وأخواتك في حتة تانية؟ راجع علشان أمك تجيبلك شقة؟؟ زيك زي اللي راح ليبيا ولا اللي راح الخليج، تبيع عمرك علشان حتة شقة هيبيعهالك مستثمر خد الأرض ببلاش.. بِع له عمرك يالا.. بلد إيه يا أبو بلد؟.. دي اتباعت بالحتة.. الكبار خدوا وش القفص، وسكتوا الشعب بالعشوئيات، وكمان وصلوا ليهم ميه ونور، وسابوهم غارقانين في المجاري والجهل والمرض.. اتقسمت بين الكل.. وكله راضي أربعة وعشرين قيراط بالقالب اللي طلع بيه من البيت لما اتخرب.. والنتيجة أهي.. كلنا مزنوقين في نفس الشارع لمَّا قربنا نفطس.. كل لما

أتقدم لواحدة أبوها يقولي أمضِ شيكات واكتب قايمة واكتب مؤخر.. إلهي تتحرقوا في الآخرة كلكوا.. وتقوله أنا والله ابن ناس، وأبويا كان سفيرًا يقولك الدنيا مالهاش أمان.. خليها تعنس جنبك!.. خللها في برطمان جايز تنفع في رمضان الجاي!! حطها على كوم العوانس اللي طفح.. مالها الخواجاية الكافرة؟.. أرحم منكم على الأقل بتتجوز بحتة خاتم.. بيخوننا ليه هو احنا كنا رايحين نتجوز علشان نطلق؟؟.. هتقولي احمد ربنا دا انت موظف بمرتب كبير في الخارجية وساكن في الزمالك، هقولك كله ده في الفاضي... طظ.. ولا له قيمة.. كلها محصلة بعضها.. ما احنا في نفس الشارع، ونفس الزنقة، ونفس الهم، ونفس الهوا المسمم والأكل المتسرطن والمية الملوثة.. أنا عاوز أعيش مش عاوز أحارب الهم والقرف كل يوم.. انزل وقف أي واحد من الناس دي كده.. هتلاقيه زيي عاوز يهج.. هتلاقيه نفسه يسيبها الصبح ويطفش.. زعلان ليه؟.. أنا عاوز أتدفن في التلج مش في ترب صلاح سالم اللي بكرة يبنوا عليها مولات.. زعلان ليه؟.. يا عم سيبني.. سيبني أغووورررر".

وكأنه قنبلة مدوية وانفجرت فجأة ودون سابق إنذار، وما إن هدأت ثورته حتى أدمعت عيناه وأدمعت عيناي أنا أيضًا، وغاصت روحي في داخلي تحت وطأة الألم.

بائع الفقاعات

كان يقف على ناصية شارع "شريف" عند التقاطع مع شارع قصر النيل ينفخ فتخرج فقاعات الصابون بالعشرات، متطايرة في السماء وتتخللها أشعة الشمس المائلة نحو الغروب، فتنعكس ألوان الطيف البراقة على الفقاعات المتفرقة في أفق الشارع.

تطير الفقاعات لأعلى ثم تتلاشى، بينما يطلق البائع دفعة أخرى من أنبوبة فينتشي المكان بالفقاعات المتتالية، التي تسبح فوق رؤوس المارة والسيارات عند تقاطع الطريق المزدحم الذي تكسو بناياته القديمة الباهتة أشعة الشمس القانية المتعبة.

يمضي في الطريق المارة والموظفون العائدون لبيوتهم، بينما توقفت أنا على الناصية المقابلة منتظرًا أن تهدأ السيارات المسرعة لأعبر، سرحت

متأملاً الفقاعات وهي تعبر نحوي من الناحية الأخرى، ولكنها ما تلبث أن تتلاشى في طريقها.

ربما أكون مثل بائع اللعبة هذا، تلك الفقاعات هي الأحداث التي مرت عليَّ. كانت تحملني بخفتها وبريقها لأعلى ثم تتلاشى، فأطلق دفعة أخرى من الفقاعات لتحملني مجددًا.

كيف كانت تصنع الأحداث فتمضي بي معلقًا ما بين حدث وآخر، أحاول أن أفهم الأيام، وأفهم ما يدور حولي. فلم أستطع ولكني بقيت أطلق الفقاعات فتطير لأتنقل معها وكأني متطاير أسكن في تيار الهواء الذي يتأرجح بي.

لم تحملني الأحداث بعيدًا، بل كانت تظهر سريعًا وتتلاشى من حيث بدأت.

اقتربت من بائع اللعب، وطالعت وجهه طويلاً، وشعرت أني أعرفه بالرغم من أنني لم أره من قبل. ها هو شخص آخر مثلي تمامًا يسرح في ملكوت المولى، يجوب الطرقات مثلي، باحثًا عن مشترٍ فمن سيشتري؟

رحلتي في مدينة البشر تمضي بي كل يوم إلى حدث، وكلما احتضنتني القاهرة كلما عادت تسألني من أنت؟ كلما فهمتني، كلما دوختني.

تزوي الشمس، تاركة المدينة لليلٍ مزدحم، ويختلط في الطرقات كل شيء.

علم الدين العلماني

ضحك "جهينة" من قلبه على كل تفاصيل الأحداث التي كنت أرويها، ولسببٍ ما ألح لأروي عليه مجددًا منذ البداية كل ما حدث لي في النادي العلماني.

في هذا اليوم عندما قابلت الفتاة التي عرفت فيما بعد أن اسمها "بكينام"، قررت أن أستفزها قليلاً، فسألتها عن السبب الذي جعلها تدعوني لهذا التجمع رغم أنها عرفت مسبقًا بأنني من المعارضين لمنهجها. أطلقت في وجهي مقولات عن تفتّح الأفق وتقبل الآخر، والتعرف على فكرٍ جديد. مارست معها دور الساذج، وكنت أومئ برأسي ببلاهة وأنا أتصنع التفهم.

صعدنا سويًا للمطعم الكلاسيكي الذي كانوا يتجمعون على طاولاته

في شكل مجموعة كبيرة، ثم بدأت تقدمني للأفراد فأبتسم بسذاجة وأنا أعرف نفسي باسم "علم الدين". كانوا يعرفون بعضهم البعض، وربما كان هذا بسبب "الفيس بوك" فكل اسم كان ينضم وحتى لو كانوا لم يقابلوه من قبل، كانوا يهمسون بسرعة بمعلومات عنه، ويحيونه على بعض تعليقاته ومشاركاته. يبدو الأمر وكأنه شبكة متشعبة في الفضاء الإلكتروني ومن ثم أرض الواقع.

وقف يتحدث شاب في منتصف الثلاثينيات وفيما يبدو أنه كان المنسق العام. استرسل في مقدمة طويلة عن فخره بهذا التجمع، وهذه الروح التي يتشاركون فيها من أجل إصلاح المجتمع، والمطالبة بحقوق المواطنة. الكلام كان يبدو في مجمله جيدًا، وكنت مصغيًا وإلى جواري الفتاة المتحمسة تطالعني لتقرأ تعبيرات وجهي.

بدأ النقاش يزداد سخونة وخرج أشخاص يهاجمون كل شيء وأي شيء. مع الوقت يتشعب النقاش الفكري والسياسي، وكله يدور في سياق انتقادات، وكانوا يقاطعون بعضهم البعض طيلة الوقت.

كان البعض ذا توجه سياسي معارض بحت، وآخرون ذوو توجه ليبرالي، وآخرون من فلول الاشتراكيين وكلهم كانوا محتدمين في نقاشهم حتى رفعت يدي وطلبت الحديث.

تعلقت عيون الجميع بهذا الوجه الجديد، الذي يرتدي قبعة ويبدو غير مألوف إليهم، فسألوني عن اسمي، فقلت "علم الدين جاد الحق" قاطعتني إحدى الفتيات، وسألتني عن اسمي على "الفيس بوك"، فأخبرتها بنفس الاسم وانطلقت في الحديث عن كيفية إيجاد منهج، وكيف نضع كل

أفكارنا في نطاقٍ واحد وفلسفة واحدة، يستطيع رجل الشارع تفهمها. استعدت فجأة بلاغتي القديمة، ومهارتي في الخطابة ورص الكلمات المؤثرة. نفس ما كنت أفعله منذ عدة سنوات على مقاهي وسط البلد. هو نفس الشخص الذي كان يعرف جيدًا كيف يتحدث أمام حشد من المنصتين، ويستحوذ على عقولهم. أخرجت الشخص القديم من داخلي ليتحدث بلسانٍ علم الدين ذي القبعة.

ما إن انتهيت حتى صفق بعضهم لكلماتي وأفكاري، وحدق في الجميع بحب استطلاع وفضول. جلست وتركتهم يواصلون الحديث. كم هي عقول خاوية لا تمتلك رؤية؟ كيف في دقائق معدودة اعتبروني واحدًا منهم؟ كم هو الخداع سهل لهؤلاء المنتفخين بأنفسهم.

ابتسمت الفتاة بفخر، وصدقت هي الأخرى كل ما حدث هكذا بكل بساطة بالرغم من أننا كنا مختلفين تمامًا عندما التقينا أول مرة منذ أسابيع. هي صدقت ما تريد أن تصدقه تمامًا مثلما يصدق حفنة من أشخاص بأنهم يمتلكون الفكر الذي سيغير البلد.

هممت بالرحيل فصافحني أشخاص كثيرون وطلبوا بريدي الشخصي فلفقت أي عنوان ومضيت إلى الشارع.

ضحك "جهينة" من قلبه عندما رويت الأحداث مرة ثانية، كما ضحك عندما حكيت في المرة الأولى وبنفس القدر، ثم سأل:

- "وصدقوا؟"

- "طبعًا.. لو حد فيهم بيفهم وفكر في الاسم ولو لدقيقة، لكان قد عرف أنه شخص مزيف".

- "فعلاً!"

- "بس هما عاوزين يصدقوا".

- "الناس دي مش كلها التيار العلماني؟"

- "صح دول مجموعة من المنشقين".

- "عن التيار؟"

- "لأ.. منشقون عن كل حاجة وأي حاجة.. أنا قعدت ساعة أسمع مالقيتش ولا فكرة واحدة هما متفقين عليها".

- "أمال دول إيه؟"

- "شلة!!.. أحد إفرازات النت؟!"

- "النت غير الخريطة".

- "أكيد.. النت".

قاطعنا "توفيق" الذي ظهر فجأة، وقال وهو يحدق في:

- "طرااااطير.. في الهوا بتطير".

حدق فيه "جهينة" بشدة، ثم قال بالفصحى:

- "ها قد جاءكم "توفيق" أحد أضلاع نظرية المؤامرة!".

ضحكت وقلت:

- "تصدق... "توفيق" لو كان عنده بروفايل على "الفيس بوك" أو "تويتر"، وبيقول كلامه ده اللي مش فاهمين منه ولا حاجة... كان زمانه

شخصية افتراضية شهيرة دلوقتي... لو ثبت قدامي لمدة خمس دقائق هعمله كليب، وأنزله على اليوتيوب!"

ضحكنا بينما ظل "توفيق" يحدق فينا بعينيه من خلف النظارة العجيبة، ذات العوينات المقعرة قبل أن يقول:

- "عبده بتاع الكشري حطلي شطة كتير في الطبق علشان يلهلبلي بوقي.. بس أنا مش هسكت.. هفضحه وأقول على كل حاجة.. هقول إن المخزن اللي بيسوي فيه المكرونة مليان فيران.."

ضحكت وفهمت ما يريد، فطلبت له زجاجة مياه غازية. هتف صبي المقهى قائلاً:

- "عندك واحد صاروخ لـ"توفيق" المجنون على حساب البيه".

رمقه توفيق بتكبر، وقال بعنجهية:

- "كانز!"

ضحكنا ونحن نراقب "توفيق" وهو يلتقط علبة المياه الغازية ويفر من المقهى مسرعًا نحو الشارع.

ربما كان "توفيق" شيئًا ليس مفهومًا، ولكنه عندما يطل علينا في أي وقت كان يغير سياق الأشياء تمامًا، ويصنع دومًا خلفه العديد من علامات التعجب. "توفيق" سياق مختلف ولكن لا تكاد تلحظه لأنه مثلنا جميعًا، تائه في الزحام. "توفيق" ليس الوحيد بل هو الأغلبية.

الشاعر القنبلة

بينما كنت أتسكع في المساء مع "جهينة" و"بيبرس" وبعض الشباب مال على "جهينة"، وأشار نحو بوستر معلق على الجدار بممر الأفتر إيت وقال:

- "حبيبك أهو".

توقفت أمام البوستر ولوهلة لم أفهم قصد "بيبرس"، فالبوستر المعلق لكتاب بعنوان (مصر بالخلطة والسلطات) أما اسم المؤلف المكتوب في الأسفل فكان اسم شخص أعرفه تمام المعرفة. "وليد توكا" شاعر العامية. قلت لـ""جهينة"" متعجبًا:

- "إيه ده؟! وليد مش كان شاعر؟.. بقى دلوقتي طباخ؟!"

ضحك "بيبرس" حتى كاد يسقط على وجهه، بينما رسم "جهينة" ابتسامة عريضة. لم أفهم لم. قال "بيبرس" بعد أن استقر بنا المقام في مقهى الأفترإيت:

- "الأكثر مبيعًا دلوقتي عقبال عندك".

"وليد" كان شاعر عامية خفيف الظل، وكانت قصائده الكوميدية خفيفة الظل يلوكها المراهقون وبعض شباب المقاهي بوسط البلد. أخبرني "بيبرس" أنه في السنوات الأخيرة كتب عدة كُتب ساخرة أصابت نجاحًا كبيرًا، وبيعت منها آلاف النسخ، وحصد جمهورًا كبيرًا من الشباب، وتسابقت عليه كل دور النشر، والآن يشرف على صفحة ثابتة في إحدى الجرائد الأسبوعية. ضحكت وأنا أركب الصورة وأتذكر آخر لقاءاتي به، بالفعل كانت نظريته صحيحة والدليل هذا النجاح.

كنا نطلق عليه لقب "القنبلة" سخرية، فقد كانت قصائده العامية عبارة عن هزليات كوميدية. قلت لـ"بيبرس":

- "فاكر قصيدة قاعد مقرفص؟"

ضحك الشباب كلهم، وتساءل أحدهم:

- "إيه قاعد مقرفص؟ أمنحتب ولاّ إيه؟"

- "لأ.. كانت بتقول.. قاعد مقرفض ولا على بالك.. وأنا برقص أرجوك كفاية.. أقولك سيجارة.. تقولي خساره.. ليه يا مقطف دي الدنيا دوارة!!"

ضحك الجميع على الكلمات، ثم دار حديث بين الجميع عن الشهرة التي يتمتع بها، بينما أنا أتعجب كيف تحولت الساحة إلى هذا التسطيح، فصار الأدباء المشهورون هم أصحاب الأفيهات والتسليات؟ منذ أن عدت وأنا أطالع عناوين الكتب التي تحولت أكثرها إلى وجبات سريعة من

الأفيهات الكوميدية، والقصص التي لا تُعبِّر سوى عن جلسات المقاهى ونميمة. لو صار "توكا" الأكثر مبيعًا فلابد أن هناك فراغًا كبيرًا في الساحة وخللاً ما شنيعًا يسده كُتاب الهوامش.

أما الملاحظة الأخرى فكانت أن الإنتاج الأدبي والفكرى صار يدور في فلك الهجوم على مصر. كل من يريد أن يشتهر كان لابد أن يندب في الكلام من ظلم مصر، أو يسخر من كل ما فيها. القصائد والشعراء صاروا ناقمين، والإبداع الشبابي كله يدور في هذا الفلك. اللغة صارت ركيكة والعامية في الكتابة تنتشر. الكتب أغلبها أفيهات صالحة للاستخدام مرة واحدة.

هناك رواج كمي فقط، والفكر استهلاكي بحت. المرحلة أفرزت شاعر القنبلة ومستنسخاته على الأرفف، أما كتاب الصحف فغالبيتهم يسير في ظل السلطة. أشعر أحيانًا بأننا نعيش في النكتة وتنطعاتها يوميًا حتى لا يقتلنا ملل الوضع الجامد في هذا الوطن.

النكتة والنخبة

أنت وحدك من يبيع نفسه، وأنت أيضًا الوحيد الذي سيدفع الثمن. الفساد يطل عليك من كل الأركان. كل شيء يتم تسوقيه فاسدًا حتى النخاع. الدولة فاسدة، والنخبة تآكلت على مدار عقود ومن تبقوا منها هم مُدّعون يسوقون لكل خدعة حجة. حتى الفكر صار مقعرًا، واللغة هبطت نحو درك أسفل عميق. في غياهب الظلام الدامس والأعتام صار الكل يتخبط.

في نهر الشارع الممتد تتراص الكراسي والطاولات، ويجلس الكثيرون من الشباب المنتمي لكل الفئات وكل التوجهات. كان "بيبرس" يعرف كل أفراد المجموعة المتمركزة حول إحدى الطاولات، أما "جهينة" فظل إلى جواري صامتًا، ولا يعلق على أي شيء وكأنه في ملكوتٍ آخر، وكأن

عينيه مصنوعتان من زجاج. "حاتم" أتى الليلة للمقهى؛ ليقضي معي أيامه الأخيرة قبل رحيله المرتقب.

الحزن كان يتملكني كلما فكرت في رحيل "حاتم"، أشعر بأن أحد الأشياء التي أحبها في هذا البلد تضيع مني. أنظر إليه وأطيل الصمت.

"حاتم" خريج العلوم السياسية من الجامعة الأمريكية في القاهرة كيف لم يستطع أن يتزوج إلى الآن؟، وكيف يظل طيلة ثماني سنوات حبيس مكتب جانبي في مقر وزارة الخارجية وهو شاب ذكي طموح؟ لماذا المناخ الفاسد يسيطر على كل شيء فتظل الكراسي مملوكة لأشخاص بعينها، والترقيات والمميزات لفئة معينة التي تمتلك الواسطة والمحسوبية للمنافقين؟

كما قال لي يومًا وأنا أناقشه في السياسة الخارجية لمصر "احنا مجرد موظفين مش سياسيين".

لا أحد يعطيك الفرصة لتعبر عن رأيك، أو لتكون شريكًا في التخطيط، أو لتقترح شيئًا حتى لو كان فيه الحل للمشكلات أنا مجرد موظف في آخر طابور الموظفين في هذا البلد. وشاب آخر يجلس على المقهى طيلة الليل، لأنه لم يعد لديه سبب ليصحو في الصباح التالي. وشاب آخر لم يجد طريقة ليعبر بها عن نفسه وعن همومه سوى القعود في مقهى ليلي مزدحم.

خلال شهور الصيف تعرفت على شابين أصغر مني سنًا. "مصطفى" يدرس هندسة الميكانيكا، و"أحمد" يدرس الإعلام بالجامعة الأمريكية، كانا يتطلعان بشغف إليّ كلما تحدثت، ويبحثان عني في مقاهي وسط

البلد كل ليلة. كانا ذكيين بحق، ولكني كنت أتهرب منهما. أنا لم أعد هذا الشخص الذي كنت عليه من قبل. كانت تؤرقني فكرة أنني أسير وخلفي أشخاص تتبعني. لم أعد الشخص الذي كان يجلس في جلسات التنظير الفكري والسياسي، وتتجمع حوله الدائرة ويستحوذ على الانتباه. لم أعد أريد أن أطرح أفكاري، ولكن ذكاءهم الواعد وحبهم للوطن كان يستدرجني أحيانًا للكلام.

أنضم الشابان للطاولة التي اتسعت بين فريق يضم أصدقائي وفريق آخر يضم شلة من المتحدثين في السياسية والثقافة.

إحدى الفتيات من تلك الشلة ذات قدر كبير من الجمال بدأت تدير الحديث. ولسببٍ ما لا أفهمه كانت تستحوذ على انتباه من حولها كلما تحدثت. من سياق الحديث أيقنت أنها ليبرالية متحررة وربما وجودية، كانت تسب وتشتم على الدوام، وتستخدم (كوكتيلاً) من الألفاظ القبيحة، وتبتلع دخان سيجارتها الرفيعة ابتلاعًا.

تركيبة الغرور الممزوج بإحساسٍ عال بالذات كانت تشع من كلماتها إشعاعًا، رصت في كلامها "نيتشهً" ثم "سارتر"، ودلفت في تحليلات فلسفية ووجودية. تابعت مع الجالسين آراءها و لم أعلق، بينما كان البعض يقاطعونها بأسئلة فترد عليهم بآراء صادمة.

صِداماتها المتتالية كانت تُقابل عند البعض باستغراب، وكان البعض الآخرَ يؤيدها وبشدة. كان معظم الحديث مستفزًا بشكلٍ أو بآخر، ومعظمه جدليات عقيمة.

داومتْ على استخدام مصطلح الصفوة كثيرًا، كأنها تود إثبات حقيقة ما وهي أنها من الصفوة الفكرية، وأن هذه الصفوة يجب أن تفعل هذا ولا تنخرط في ذاك. الصفوة هي النخبة المنفصلة عن مجتمع من الرعاع والجهلة. الصفوة هي المحركة لمفهوم الحضارة، والمنتجة للفكر والفن. بالطبع هي كانت من الصفوة -كما تؤكد طوال الوقت-، ولكنها كانت مشمئزة على الدوام من انقراض تلك النخبة السامية، واستشراء الجهل، واستفحال الدين، والغزو الوهابي، والفساد السياسي.

كانت تعتلي وجهي ابتسامة عريضة، وفيما يبدو كانت تلفت انتباهها كلما نظرت ناحيتي وهي مندمجة في حديثها.

فجأة خرج مني سؤال تعمدت أن يبدو ساذجًا بما فيه الكفاية فقلت:

- "لو سمحت ممكن تشرحيلي مفهوم النخبة أو الصفوة؟"

اندمجت حتى النخاع في لعب دور المدرس الذي يلقن تلاميذه المصطلحات الأساسية اللازمة. النخبة أو الصفوة -حسب تعريف الفتاة الجميلة- هم هؤلاء الذين لا يسيرون خلف قطيع البهائم، وليسوا قابلين لغسيل المخ، ولديهم الحرية الفكرية، ومتحررون من المعتقدات البالية والتقاليد الغبية، لذلك هم على حد وصفها الفئة السامية التي لا يجب أن تنخرط في إشكاليات العامة من الجهلاء. في نظريتها الجهلاء يجب أن يدفعوا ثمن جهلهم وهذا بديهي، كما أن النخبة يجب أن ينأوا بأنفسهم بعيدًا عن إشكاليات الجهلة وأحكامهم. كنت في أوقات كثيرة أشعر بأنها تخاطبنا ضمنيًا بهذا الوصف "الجهلة".

مجددًا أتت بـ"نيتشه" و"ديكارت"، والعديد من الأسماء الرنانة والنظريات وعناوين الكتب بما لا يترك مجالاً للشك في ثقافتها واطلاعها. بعض من الجالسين يدعم نظريات الفتاة ويؤيدها بأفكار فيما يبدو على نفس الوزن ونفس النغمة، فتنتفخ الفتاة أكثر، وتعبث بالسلسلة الذهبية المعلقة حول رقبتها، وتنصت لمجموعة العزف الخاصة بها بتركيز.

نظرت نحو سيجارتي التي قاربت على الانتهاء، ثم ضربتها من بين أصابعي بطرف سبابتي بعد أن ثنيته. طارت لأعلى ثم سقطت بين قدمي وأنا أتابعها بعيني. قام على التو "جهينة" من مكانه، ونادى على النادل ليدفع الحساب.

مازال يفهمني تمامًا، ودون أن أتحدث يجيد قراءة وجهي وحركاتي. خرجت بفريقي من الجلسة الجدلية التي أدارتها الفتاة لصالحها بالطريقة المعتادة في وسط البلد، أنا الأعلى صوتًا والأكثر ثقافة.

مضينا نسير نحو ميدان التحرير وأنا غارق في التفكير، البلد على كل مستوياتها لا تدع لك فرصة لتقول شيئًا، النخبة الحاكمة تسيطر على الدولة، والنخبة العالية الصوت تسيطر على المشهد الثقافي، والنخبة المطحونة تحاول ابتلاع ما تبقى من هواء في أفق المدينة، ولكن كله ملوث بالعوادم والدخان، ورطوبة الصيف الخانقة. لم يستطع الشاب الصغير أن يعبر عن رأيه على الطاولة، ولا العارف ببواطن الأمور تحرك. لقد تحولت أنا كذلك إلى مثقف أخرس لا يتكلم، وكأنني قد تحولت إلى "جهينة" آخر يراقب ولا يتحرك. "حاتم" باع السياسية وهو المشتغل بها و لم يحرك

ساكنًا عندما احتدم النقاش عن السياسة، و"بيبرس" ظل منسق تجمعات لا يعبر فيها عن رأي، وطلبة الجامعة المرافقين لنا بدوا تائهين بلا إجابات حتى هتف أحدهم فجأة عندما وصلنا التحرير:

– "هو يعني إيه نخبة؟"

فما كان من "حاتم" إلا أن نطق أخيرًا:

– "يعني نكتة!!"

ضحك "حاتم" بسخرية. ولكن الشابين لم يفهما ما قيل فبدا عليهما التعجب. لم أضحك كما فعل "حاتم"، ولم أبتسم كما فعل "جهينة"، ولكن سيطر عليَّ شعور بالحنق.

ألح أحد الشابين وسأل مجددًا:

– "يعني إيه نخبة؟ حد يفهّمنا!!"

قفز "حاتم" فوق سور الميدان، وجلس قبل أن يقول:

– "يعني لما تبقى بتشتغل في وزارة سياسية، اللي حاكمينها مالهمش في السياسة.. يعني لما تقعد في جلسة مثقفين معندهمش غير الغرور والتعالي ونعرة الأنا، وحافظين من كل كتاب كلمتين.. يعني لما الناس ما يبقاش ليها صوت غير في ماتشات الكورة، والهتاف الوحيد عندهم للنادي الأهلي أو الزمالك.. لما البلد يبقوا اللي حاكمينها النخبة اللي سارقينها، ولو سألت يقولك احنا اللي عارفين مصلحة البلد فين.. ولما المثقفون يقولولك أنت جاهل واحنا اللي عارفين الكتب واحنا اللي فاهمين.. تبقى البلد بلدين، وكل فريق ماسكها من ناحية.. لما تقرا جريدة الحكومة والجرايد التانية

وكأنك بتقرا جرايد بلدين مختلفين.. لما تفتح الفضائيات وتلاقي الخناقات شغالة على التوك شو، وفي الناحية التانية تلاقي تليفزيون الحكومة بيقولك نسبة نمو بتزيد، وافتتح السيد الرئيس.. ساعتها هتسمع كلام أمك وأبيك وتمشي جنب الحيط.. لأن هما اللي عارفين مصلحتك فين.. هتعرف أنت أكتر منهم؟؟.. بس يا سيدي هي دي البلد.. فريقين، فريق النخبة وفريق الجهلة اللي هو احنا.. اضحك بقى على النكتة وأنت ماشي مع نفسك جنب الحيط زيك زي بقيت الشعب.."

رد الشاب الآخر بحنق:

- "لا يمكن الوضع ده يستمر".

قاطعه "حاتم" ساخرًا منه:

- "أه أنا فهمت كده انتوا ليه مصاحبينه.. لسة هو الوحيد اللي مصدق أن فيها أملاً".

أشار نحوي وعندها توقف الزمن، وشعرت أن كلماته كلها كانت صحيحة، فلم أعلق وأنا أعرف تمامًا أن "حاتم" كان يرثي الوطن بكلمات أخيرة قبل أن يرحل، ليتخذ مقعده في صفوف المهاجرين المصريين الناقمين.

تاء مربوطة

عندما تفقد الأشياء القريبة منك يصبح العالم أحيانًا بعيدًا وكأنه مسافة خالية. عندما تفقد الأشخاص القريبة منك تشعر باستسلامٍ غريب، وتبدأ قبضتك ترتخي. منذ رحيل "حاتم" وأنا أجوب رأسي مفتشًا فيها فتطل "فريدة" بين الحين والآخر.

لم أكن أعرف حقًا هل أنني قد شفيت من تلك الفتاة أم أننى لم أُشف بعد؟ من حين لآخر كانت تعبر فضاء مخيلتي في الأمسيات الطويلة، وأظل أربط خيوط القصة فتوجعني التفاصيل. أحيانًا في بعض القصص التي تمر بحياتك لا تستطيع أن تفسر الأحداث. هي فقط تحدث لك وأنت تمضي متثاقلا أو مارًا مرور الكرام. حتى أنت أحيانًا تكون زائرًا لنفسك غير مفهوم.

ذات مساء ذهبت لمعرض رسم، وبينما أنا أطالع اللوحات رأيت

"فريدة" تقترب مني. كانت تلك أول مرة أرى "فريدة" منذ اكتشفت أبعاد القصة وكنت أشك بشدة أنها كانت تعرف بأنني قد التقيت بالشاب الذي كانت تفضله عليَّ. كان يبدو من كلامها أنها مازلت تظن أن بيننا خلافًا مؤقتًا ولكنه طال قليلاً. غرورها يسيطر عليها كالعادة، وتتحدث إليَّ بتأنيب وبوجه جامد وأنا أستمع حتى أصابني الضيق، وأردت أن أنهي كل شيء فقلت فجأة:

- "أنتِ مصاحبة تومي؟"

انفجرت "فريدة" قائلة:

- "أنت بتراقبني؟؟ ولا ممشي حد ورايا يتجسس عليَّ؟"

لم أتمالك نفسي، وقلت مستهزئًا:

- "ليه أنت مفكرة نفسك مين؟"

تحدثت بانفعال، وأخذت تتهمني بكل شيء وأي شيء وأنا أرد حتى توصلت في النهاية إلى أن "فريدة" تكابر كعادتها، وتحاول أن تدعي بأنني المخطئ، وأن كل ما أقوله هو تخيلات مريضة وأوهام.

ذهبت إلى بيتي في تلك الليلة فحاصرتني على الإنترنت، واستمرت تهاجمني، وتدّعي بأني شخص ظالم ولا أثق فيها، وكلام كثير من هذا القبيل، وظلت عدة أيام على الإنترنت تتعامل معي على أنني مخطئ، ولكني كنت أتجاوز كل هذا ولا أعلق. استبسلت "فريدة" في الدفاع عن نفسها، وحاولت بكل الطرق إثبات أنني أختلق أشياء لم تحدث حتى كدت أصدقها.

مع الأيام هدأت ثورتها ولكن الصدفة لعبت دورها هذه المرة أيضًا وكأنني على موعد دائم مع قدر "فريدة" الفريد. كنت أمر في المساء.بميدان مصطفى كامل في طريق عودتي عندما رأيتها تسير معه وهم منشغلون بالحديث. توقفت على الناصية وأخذت أتأملها وهي تسير إلى جواره يمضيان في الزحام. لم أدرِ هل كانت قد لمحتني أم لا، ولكن منذ هذا المساء لم تعد "فريدة" تظهر في قائمة أصدقائي، فتأكدت من أنها قد أدركت الحقيقة، وأنه لم يعد هناك شيء باقٍ لتكابر به أمامي أو ربما أمام نفسها.

حكيت لـ"جهينة" ولأول مرة قصة "فريدة" كاملة، فسرح يفكر دون أن ينطق.

في مساء اليوم التالي، وبينما كنت أعبث بهاتفي محاولاً الوصول إلى أمي قال "جهينة" فجأة وهو يتفحص وجهي:

- "ما علتك مع التاء المربوطة؟"

فقلت دون اكتراث:

- "بطلع دايمًا حمار".

صمت لفترة، ثم عاد يسأل:

- "طب فهمني".

فهرشت في رأسي، وقلت:

- "يا بني بقولك أنا حمار.. لو كنت فاهم أنا بقيت كده إزاي كنت أقول".

مر "توفيق" من أمامنا قاطعًا واجهة المقهى وهو محني الظهر للأمام، ويهز رأسه ذا الشعر المشعث بقوة كالمجذوب، ناظرًا للأرض من تحته. هتفت بعد أن أصابنا بالدهشة واختفى:

– "هوَّ فيه إيه؟"

كتم "جهينة" ضحكته، ولكن أفلتت منه ابتسامة عريضة. لم يلبث أن فاجأنا "توفيق" مرة ثانية من حيث لا نراه، عائدًا بملابسه التي لا تخلو من الكاروهات، ثم توقف لبعض الوقت على ناصية المقهى ينظر إليَّ، فقلت له بغضب:

– "مالك يازفت؟"

نظر إليَّ نظرة استهزاء، ثم قال:

– "طلعت فوق السطح هز الهوا كمي.. كل البنات اتجوزت وأنا قاعدة جنب أمي!!"

ضحكت ضحكة قصيرة، بينما قفز "توفيق" لأعلى متجاوزًا الرصيف، ومضى نحو الجانب الآخر من الطريق وهو يقفز كالأعرج، والسيارات تطلق آلات التنبيه غيظًا وهو لا يبالي.

ما الذي قاله "توفيق"؟ وما علاقته بأي شيء؟ لا أحد يدري أين الحقيقة. هو فقط يعلق ثم يختفي. هل كان "توفيق" مونتاجًا من فيلم آخر؟ أم جزءًا تم تسجيله على الشريط الأصلي بالخطأ؟ إلى أيِّ عالم ينتمي "توفيق"؟

قلت لـ"جهينة" محتارًا:

– "توفيق ده عامل زي ما يكون فاصل مفاجئ.. عمره ما عدَّى وعمل حركة أو قال جمله إلا وبرجلني ولخبطني".

- "طب كويس إن في حد لسه بيثير دهشتك".
- "أنت فيه حد بيثير دهشتك؟"

رد بسرعة يقينية

- "الناس معدتش بتثير دهشتي من زمان".

قلت له وأنا أسرح مطالعًا النافذة:

- "أنا الناس مش بتثير دهشتي وبس... الناس بتصدمني!"

بعد فترة صمت تابعت:

- "طلعت فوق السطح هز الهوا كمي... الواد ده بيجيب الكلام ده منين؟!"

أخذت كوب الشاي من يد "جهينة"، فجأة طالعني متعجبًا فقلت له:

- "يالا".

ذهبنا إلى أعلى عمارة في الميدان وكان الجو خريفيًا وهواء متقلب المزاج. تمشيت على السور وأنا رافع يدي على امتدادهما، وأتمنى أن تهب ريح قوية فأطير. ظل "جهينة" يغني طيلة الليل أغنية واحدة شجية وحزينة، تشبه ترنيمة لم أسمع بها من قبل:

"كان بدي نلتقي بحياتي تشرقي..
مثل نجمة تبرقي لكن ظروفي غريبة..
خليني إحساس وخيال.. خليني صورة وجمال..
نلتقي هذا محال..
حتى لو مني قريبة.."

الرجل ذو القميص الأبيض

أحلم بأني أطوف في دائرة واسعة، والضوء يتسلل من نوافذ مستطيلة حولي، أدور كالتنورة فتختلط حولي الألوان والأضواء وتندمج حتى تصير طيفًا واحدًا، أشعر بأني أتحرر من مركزية ثقلي والموسيقى من حولي تحملني نحو أقاصي أفق بعيد.

أطوف كالصوفي وكأني أدخل فيّ، وكأني أستعيد ظلالي التي تقترب مني وتدخل في، وكأني أعيد تطابقي مع نفسي، أدور في المركز فينادي كل ما كان قد ابتعد، ليقترب. كل هوام أفكاري تعود أدراجها نحو جذورها.

كنت كل يوم بعد ساعات العمل أذهب إلى العم "شاهين"، أو أبحث عن "فتلة"؛ لنتناول الطعام سويًا، وفي الليل أبحث عن "جهينة".

سافر "حاتم" ولم يبق لي رفيق سوى "جهينة" أقابله على الناصية، ويغيم ليل القاهرة دون مقدمات وكأنه قدر محتوم للمدينة المزدحمة بتخوم البشر والأضواء. نمضي لنتمشى سويًا، نتحاور أحيانًا، ونختلف أحيانًا في وجهات النظر، ولكن المؤكد أننا كنا نستمتع بالوقت الذي نقضيه سويًا.

كان أحيانًا يلقبني بلقب "مولانا"، والسبب في ذلك أنني كنت أشبه الزاهد الصوفي كما كان يدعي، فما كان منه إلا أن قام بتعييني شيخ طريقة على طريقة المصريين في تفخيم الأشياء.

اقترابي من "جهينة" في الأشهر الأخيرة أتاح لي ملاحظة أشياء لم أكن أعرفها عنه من قبل. كانت ثقافة "جهينة" في علم الاقتصاد مبهرة ولكنه نادرًا ما يتطرق للخوض في هذا. كان فقط يعلق عندما يقرأ أحد الأرقام المزيفة في الصحف عن الناتج القومي أو التضخم. لكنته في اللغة الإنجليزية بريطانية سليمة، لا تخطئها أذني رغم أنه لا يتعمد تحدث الإنجليزية، بل كانت تفلت منه كلمة أو كلمتان دون قصد. كل من يعرفه لديه تحليل ما عنه. "حاتم" كان دومًا يظن أن "جهينة" وراءه قصة كبيرة، وأغلب الظن أنها ربما كانت مأساوية. كل الاحتمالات واردة ودليل "حاتم" على هذا أن "جهينة" عندما يدخن معه الحشيش ينقلب إلى حالة من الشجن. أما الآخرون فكانوا يعتقدون أنه يمارس نشاطًا سريًا يستوجب تعتيمًا.

لكني أنا الوحيد الذي اجتذب هذا الشاب ذا القميص الأبيض، واستطاع الاقتراب منه. كنا نمضي سويًا ونجلس سويًا، ونأكل سويًا، وأحكي له كل تفاصيل حياتي. عندما كنت أقترب منه أكثر كان يزداد بيننا التفاهم بشكلٍ عجيب.

"جهينة" يعيش الأشياء البسيطة في الحياة، يجوب الحياة دون أن يخوض في تعقيداتها. يشرب الشاي على مهل وكأنه سيقضي العمر في احتسائه. عندما نمضي بالسيارة يخرج رأسه من النافذة وكأنه يريد أن يطير، ويعب الهواء في فمه وأنفه. لا يأكل السلطة بل يأكل حبات الخضار كما هي كاملة. يتأمل وجوه الناس طويلاً. يمشي متمهلاً، ويلاحظ اكتمال القمر أو نسمات الرياح عندما تهب.

كان له تأثير عليَّ بلا شك، فعندما عدت من الخارج وأنا أشعر بأني أقل اهتمامًا بالماديات وإشكاليات الناس في الحياة كالمال والممتلكات، وحب الذات وحب الظهور. كنت مع الوقت أستمتع بطريقته البسيطة في تناول الحياة من جانبها الذي صار غير المرئيّ. رغم أني لم أتمتع بالحرية التي كان يتمتع بها، ولكني كنت أميل إليه؛ لأننا نتوافق في نفس الخط. كنا نجلس طويلاً على كورنيش النيل أو أعلى العمارة القائمة بميدان التحرير، نرقب أحيانًا النهر وهو يمضي في طريقة كفعل جريان الطبيعة في شرايين الحياة، ونرقب حركة البشر والصخب في طرقات المدينة المتشابكة كخيوط العنكبوت.

كان "جهينة" ركنًا أساسيًا في حياتي في المدينة الصاخبة حتى اختفى، وعندما طالت غيبته قررت البحث عنه في مهمة أشبه بالبحث عن المجهول. لم يكن له عنوان أعرفه أو قريب يذكره لي، وكل ما كان لديّ رقم لهاتف محمول أصبح مغلقًا منذ اليوم الذي اختفى فيه.

تواردت عليَّ كل الأسئلة التي كنت أتجنبها من قبل، هل كان شخصًا مزيف الهوية، وذات يوم قرر أن يعود إلى هويته الأصلية دون مقدمات؟

هل كان هاربًا من قضية جنائية أو حكم بالسجن أو ثأر أو ديون؟ هل سئم نمط حياته، وقرر أن يتحول إلى حياةٍ أخرى؟ هل مرض وصار ملازمًا الفراش؟

فكرت في مرض كالسرطان، فهؤلاء المصابون بهذا المرض يقررون أن يستمتعوا بحياتهم كما يحبون قبل أن يموتوا. هل كان "جهينة" مجرد مريض قرر أن يقضي بقية سنواته بين طرقات وسط البلد، متأملاً الأشياء البسيطة في الحياة؟ هل مات؟

رفا

خريف المدينة متقلب وصعب المراس ككل شيء في المدينة الفوضوية، يوم غائم، ويوم آخر حار خانق وكأن مناخ الأرض يصب علينا لعناته ويتركنا تائهين بين الفصول، دون أن نفهم أين ذهب موسم سقوط أوراق الشجر. نحن بأيدينا قطعنا كل الشجر، وعبأنا الهواء بالدخان الملوث.

سألت العجوز المنكب بإبرته على سجادة ضخمة عن سبب تمسكه بإصلاح هذا السجاد البالي رغم أنه كبر في السن وضعف بصره، وقلّت مهارته وسرعته فنظر لي، وقال:

- "عارف مين اللي بنى مصر؟"

فرددت متهكمًا:

- "متقوليش حلواني؛ لأننا مش لقيين السكر دلوقتي.. كل يوم سعره بيزيد!"

قال بصوت جاد:

– "اللي بنى مصر كان في الأصل بتاع رفّا".

– "رفّا؟؟ ليه يعني؟"

– "لأن فيها في كل حتة رقعة.. في كل حتة فيها هتلاقي حتة متركبة على حتة.. حتة من هنا على حتة منها.. فتلة شكل وفتلة شكل.. ودواير خطوط مرسومة زي الألغاز والحكايات.."

– "مش فاهم!"

– "زمان واحد فيلسوف قال الكلام ده ومحدش فهمه برضه".

– "طيب تصدق بقى بالعند فيك إن اللّي بناها كان في الأصل حلواني".

طالعني طويلاً، فتابعت قائلاً:

– "هوَّ حلواني لأنك حلو يا راجل يا عجوز".

ابتسم ابتسامة طويلة، ثم قال:

– "هوَّ حلواني علشان انتو الحلو اللي جاي.. علشان بكره اللي جاي لازم يبقى حلو".

كانت هذه آخر كلمات قالها لي العجوز، وآخر مرة رأيته فيها.

من 2000 إلى 2010

كم توقفنا هنا وأطلنا الوقوف، كم قطعنا ما مضينا فيه فسرقتنا بصنعة خفة الأيام. كم تقلبت بنا الأحوال ودارت دورتها دون تفسيرات.

كنا في طفولتنا ننظر لسنة ألفين وكأن التاريخ سيتغير هنا. وكأن هذه البلد سينقلب حالها، أو أن معجزة ما لا نعرف شكلها ستأتي. هناك في سنة ألفين سيتغير التاريخ بناءً على بريق الرقم الذي يبدو متممًا لعصرٍ سيتبدل ما بعده.

جيل كامل في انتظار أن يغير التاريخ نفسه، أو يتحرك الوضع الراكد في بركة الماء التي تحولت إلى مستنقعٍ آسن.

مر العام ألفين وأتممت أنا العشرين في ذلك العام، ولكن لم يحدث شيء و لم يتبدل شيء. يسير كل شيء كأنه يسير وحده دون أن يعطله شيء أو يفاجئه شيء.

نقترب من نهاية العام ألفين وعشرة، ويبدو أن تلك العشر سنوات مضوا هكذا كقطارٍ ليس له مسار، يتنقل دون خط سير ولكنه يسير دون توقف. قطار يطويني كما طوى المحطات وينقلني معه دون مسار. خمسة أعوام قضيتها بالخارج وخمسة بالداخل، ولم أفهم فيهم كيف صارت بي دورة الأشياء.

أطل على القاهرة كأني أطالع مدينة من صنع الفوضى . ممتلئة بالبشر والزحام، ولكنها وحيدةٌ وكأنها ثقب أسود عملاق يبتلع كل شيء ويسحقه، فيصنع منه خليطًا ممزوج الملامح.

في كل حارة وكل شارع فيها تبدو كمدينة لا تتسق مع ذاتها أو تاريخها. مدينة ممزوجة الملامح، ومطحونة الامتدادات والتقاطعات. يعربد في سمائها خليط من ضباب الدخان الرمادي، وسحب الغبار الصفراء، راسمةً أفقًا ثقيلاً جاثمًا.

سار كل شيء دون أن يتوقف ولو للحظة. مضى دون أن يعرف أحد إلى أين يمضي، وبقي جيل كامل يطالع كل شيء حوله فلم يعرف من أين أتى؟ وإلى أين هو ذاهب؟

قال "صلاح جاهين" منذ سنوات طوال كلماته الخالدة "أنا شاب ولكن عمري ألف عام". هل كان يقصد نفسه؟ أم كان يحكي قصتنا جميعًا؟

كم هرمنا في سنوات قليلة، وكأننا تشكلنا تحت وطأة ضغط قاسٍ فتم اختزال الزمن الذي كنا نود أن نرتاده، لم يترك لنا المساحة حتى أو الفرصة. وطئنا تحت أقدامه، وتم اختزال كل أحلامنا في وطنٍ متسع وكريم إلى شقة

بأربعة حوائط قد تكون على الأطراف أو مسحوقة في العشوائيات.

وقفنا في طابور طويل، لنتعلم ولنأكل، ولنفهم ولنتكلم. نمنا في الطابور وتطاحنا في الطابور، وسرقنا أماكن في الطابور، ومضى بنا الطابور، ومضى بنا كما شاء. الوقت في هذا الطابور كائن غير مفهوم وغير مأمون.

لم نفهم لماذا نسير هنا، ولماذا الطرقات لا ترحمنا وتعتصرنا في زحامها. لم نفهم لماذا الغلاف الجوي الكبير عندنا فقط ليس به أكسوجين كافٍ أو صالح للاستخدام.

لماذا لم يعد هناك شيء كاف؟ من سرق الأرض والماء والهواء، وتركنا نقف في الطابور في انتظار آخر قطعة خبز؟

مازال كل شيء يسير كما هو، لم نعلم هل كان يسير على قدمين أم على عجلات؟ هل هو ذاهب إلى مخرج أم إلى هلاك؟ هل نحن في الوادى أم نحن على حافة الجرف؟ هل اعتلينا جبل المقطم أم أننا تحته وسوف ينهال علينا؟

مرت سنة ألفين ووراءها سنوات أخرى.. في كل مرة أطالع المدينة، ونتبادل الحديث الصامت ولا أفهمها ولا تفهمني.

نزيل وسط البلد

لعلني أنا الغريب دومًا.. يطالعني الناس وكأنني غيرهم، لم أدرِ لماذا كان يُلقبني الناس بالغريب؟.. لم أفهم ما يعنيه الناس بهذا، ولكني كنت دومًا أقف على الحياد مع نفسي.

أنا أسير، فإلى أين أنا كنت ماضيًا؟ أنا الجالس على المقهى أو المتسكع على الرصيف المزدحم. أنا المقيم بحي وسط البلد من كنت أنا؟ وماذا أصبحت؟. هل هذا المكان يخصني أم كنت مجرد زائر مر على مكان ساعة ثم رحل؟ هل هذه المدينة ملكي أم أنا أحد ضحاياها؟ أأسير آخر في الصف الطويل، أم ثائر قادم ينتظر اللحظة لينفجر في وجه من قمعوه؟

تدور ميادين وسط البلد حول نفسها. مثقلة الشوارع بزحامها. كل شيء في وسط المدينة يئنّ تحت وطأة ثقل ما. قيد ممدود والكل فيه مكبل. الشعب أطال حبال الصبر حتى آخر المدى فإلى متى سوف يظل مفعولاً به؟

هل كنت أسكن وسط البلد أم كان يسكنني؟ بشر الأمكنة لم يعودوا كما كانوا ذات يوم. الكل معبأ بالصراع وكأن حربًا قامت ذات يوم، ولم تضع أوزارها بعد. ربما كنت أنا رومانسيًا خياليًا أحلق في الطرقات متحسسًا ماضيًا ولّى وفات. كأني أستعيده وأعيد تركيبه في خيالي، محاولاً رسم شكل للزمن جميل. زمن لم يعد له وجود.

كم نحب هذا البلد، ولكنها لم تعطنا الفرصة لنبوح لها بما كان في القلب من كلام. أطبق علينا صمت ثقيل، وانسحقت ضلوعنا في خندق الزحام. منذ عشرة أعوام كنت لم أتجاوز العشرين من عمري، وكنت أبحث عن مكان على أرصفة وسط البلد لأهتف عاليًا. كانت أحلامي عريضة وكنت متمردًا من طرازٍ عنيد. جُبت الأحزاب من اليسار إلى اليمين، وقفت أقول رأيي وسط الخضم، وأصابتني هراوات الأمن وقوات القمع بملابسها السوداء وكأنها جنازة تشيعنا نحو موتنا البطيء. كنت أمضي في الغمار وكنا دومًا قلة. شرذمة من شبابٍ انخرط في غمار ساحة لم نكن نفهم بعد أبعادها. كنت أحافظ على مقعدي بين المثقفين، وكنت والكثيرين معي نبحث عن تغيير الماء الراكد الذي لم يحركه أي شيء طيلة سنوات كنت فيها مؤمنًا بأن التغيير وليد لحظة أو نتاج شرارة واحدة. هل كنت مقلوب الكوب ومقلوب الرأس؟ هل كنت أحلم بلحظة قد تأتي وقد لا تأتي؟

لم أكن لأفهم فساد المكان وفساد الأدمغة. أرض وسط البلد ساحة لعراك الضدين، لنزاع ملكية على حقوق وهمية. معركة كسب الأرض ليست معركة شرفاء، بل معركة تكسير عظام بين ضباع على جثة. فمن

الذي سيغير الخريطة يومًا. لابد من طوفان يأتي، فهل سيأتي؟ ربما كنت قد فقدت الأمل، وربما لم أكن فقدته بعد.

لما عدت للأرض المتخمة بأوجاعها تصادق طرقاتها ثانية؟ لما عدت تخوض مع الخائضين؟!! هل لم تكتفِ بما رأيت من قبل وعدت من أجل المزيد؟ ما الذي تنتظره وتبحث عنه؟

كُفِّي عن مطالعتي أيتها الأبنية القديمة، فقاهرة سنة 1930 ليست قاهرة 2010 المسافة بينهم 100 عام للخلف. لو لم تكن تلك البنايات قائمة لما ملك الزمن برهانًا على صدق تقدمه.

لماذا تاريخنا موجع هكذا؟ لماذا يترك لنا شواهده لتسخر منا؟ لماذا ترك لنا الأهرامات؟ لماذا ترك لنا ألف مئذنة؟ لماذا ترك لنا بنايات وسط البلد التي مضى في عهدها المصريون يجابهون الاحتلال؟

لماذا تركت رابطة العنق والسيارة الرياضية، والمكتب الأنيق والمكانة الرفيعة، والعقول المنطلقة في فضاء التكنولوجيا وسيل الدولارات، لأعاود التسكع هنا على أرصفة تبدو كالحة؟

هل هو خلل وراثي أم ثقب كبير في الدماغ؟ هل هو حبل الجينات الذي فسره لنا "زويل" ذات يوم، وقال إن به مساحات ظن العلماء أنها فارغة، ولكنهم اكتشفوا أنها تحوي تكوينات طباع كل إنسان؟ أنا هكذا دون أن أجد لنفسي تفسيرًا. ربما كان لدي خطأ فادح في الجينات، وخطأ في الاتجاه.

أينما ذهبت كنت أحمل هذا الرصيف معي. لم تكن جينات الأرض

تفارقني. مهما ابتعدت كانت ساحة وسط البلد وقلب القاهرة وبؤرة الأحداث تناديني كهاتفٍ عميق. الحنين القلق لم يكن ليستكين.

ربما كان العطب كبيرًا والواقع مريرًا، ولكني ابن الحقيقة وابن المكان. لو لم أملك تلك الهوية لكنت قد تلاشيت في الخارج، وذبت بين طيات ناطحات السحاب.

ربما أنا ابن الزمن الصعب والأفق الملوث، ولكنها حقيقتي والباقي كان بالنسبة لي زيفًا كبيرًا. كأنك تحلم بمدن نظيفة وعالم واسع يفوق شطحات الخيال وبلاد تنتمي للمستقبل، وكل شيء يحدث بضغطة زر، وبشر حولك منمق وكأنك في يوتوبيا الفاضلة ولكنه حلم. طوال الوقت وأنت ماض في الحلم تشعر بأنك تحلم وهذا ليس واقعك. تشعر بأنه حلم لابد أن ينتهي ذات صباح. لابد من العودة إلى أرض الواقع.

خريف سياسي

هناك دائمًا احتمالية بأن تكون الأشياء مختلفة عما ظننته طيلة حياتك. اعتقادك دائمًا بأنك على دراية تامة بما يدور حولك لا يعني أنك على حق. هي مجرد احتمالات.

لا أحد هنا يفهم الاحتماليات، بل هي بالنسبة للجميع أحكام نهائية. لا يدور النقاش هنا بين الأطراف في خطوطٍ تتلاقى دون صدام. مع كل صدام تزداد الهوة اتساعًا وتقفهر المسافات.

مارس "تهامي" مع الجميع لعبته، فخرج الحديث عبارة عن مشاهد من فيلم مطاردات أمريكي، تصطدم فيه كل السيارات ببعضها بسبب أو بدون، وتنفجر وتشتعل بها النيران. أمسكت يدى في خشب مقعدي، وضغطت بقوة حتى أفرغ ما بي من غضبٍ مكبوت، ولكن ما إن وقفت

وهممت بأن أمضي حتى تحركت قدماي، وركلت طقطوقة كانت بيننا فتناثر ما عليها من أكواب، وتهشمت على أرضية المقهى الصلدة.

فزع الكل ونظروا لي لبرهة، ولكن عيني كانت ترمقهم بازدراءٍ وغضب فتراجعوا، وسحبوا أعينهم نحو ملابسهم يمسحونها، ويطالعون الأكواب المسالة والمهشمة على الأرض. أشحت بظهري ومضيت نحو الخارج، وما إن خطوت خطوتين حتى أتاني صوت "تهامي" من الخلف بنبرة يملؤها الغرور:

- "هو ده الفرق بيني وبينك.. أنت دايمًا تهرب وأنا بستمر للنهاية".

عدت له ووضعت يدى على كتفه وهو جالس، وبعد دقيقة ثبتُّ فيها عينيَّ في عينيه قلت له:

- "مشكلتك أنك مسكين.. أنت نفسك مش مصدق نفسك.. ماتتاجرش عليَّ ببذلة جيفارا دي اللي لبساك.. أنت مصدق نفسك؟ أنتوا المعارضة والأحزاب أكتر فسادًا من النظام نفسه.. كلكم عملاء عند أمن الدولة.. تكونش فاكرني مصدق أنك كان بيتقبض عليك، علشان صاحب قضية؟ ما أنا عارف أنك صناعتهم وكل يومين يمسكوك ويسيبوك زي مابيعملوا مع الإخوان.. بلاش تتاجر عليَّ بالوطنية ولا مفكرني أهبل؟.. دا كل الشعارات الوطنية أنا اللي معلمهالك.. الفرق اللي بيني وبينك أني متاجرتش بيها إنما أنت تاجرت بيها.. هُوَّ ده الفرق اللي بيني وبينك.. هختمها بكلمة قالها "نجيب سرور" شاعرك المفضل.. شعر قاله للأفاقين في عصره:

تكفي مرة..

ثبت هذه المعلومة..

كالنيشان إلى العروة..

واجلس بين السذَّج والأغرار..

والأبرار ذوي القلب الأبيض..

سمسر بالسنوات السوداء..

قل ما شئت بغير حياء".

خرجت لطرقات المدينة التي كانت قد أصابها عطب ما، فتوقفت صفوف السيارات دون حِراك. تجلط الدم في عروق المدينة العجوز مع زحام طلبة المدارس والجامعات.

خريف المدينة غائم بضباب دخان ثقيل وبقايا قيظ صيف قاسٍ، وهواء غير محتمل الاستنشاق. أين رياح الخريف البعيد الذي عهدناه في طفولتنا؟ هل صار المناخ أقسى مع مرور الزمن ففقدنا ما كانت فيه من تغيرات؟ أم أن هذه المدينة صارت ضائقة الأفق لتقلبات المناخ؟

المدن تفسد من أعلى أم من أسفل؟ من مفسدها الحاكم لمقاديرها أم السارح في طرقاتها؟

"تهامي" فاسد مثله مثل الجميع. الغرفة كلها فاسدون ومتشدّقون، والدليل أن كل هذا الفساد لا يقدر على إصداره طرف واحد.

هذا الفساد صنعه الكل، لأنه ابتلع الكل تقريبًا. الراعي الرسمي لهذا الفساد هو النظام. هو المنسق العام له، والمتحكم فيه والمغذي له.

المعارضة والنظام لعبة واحدة ومكاسب واحدة، والفساد يستشري في جسد الوطن كالسرطان الخبيث. يتوغل كوسوسات شيطان بغيض في قلب رجلٍ واهنٍ ضعيف.

من ضلل تلك المدينة إلى هذا الحد؟ أين أذهب بكل شكاوى صدري؟ أمي لا تجيب على الهاتف كالعادة، و"حاتم" هاجر، و"جهينة" اختفى ذات مساء. أين سألقي بمواجعي يا أيتها القاهرة؟ لماذا تضيقين عليَّ الخناق يا مدينتي هكذا؟ لماذا تريدين قتلي؟

أبتلع خريف المدينة كلها فلا يهز في داخلي شيئًا، وكأن رياح الخريف جفت من حيث كانت تأتي. صارت الأشجار وكأنها مُحنّطة ولم تترك أوراقها اليابسة لتجدد دورة الحياة. صار كل شيء في المدينة صامتًا رغم الزحام والضوضاء والغضب.

ديسمبر الحزين

في مساء شتوي غائم مات العم "شاهين". جاءني "حسنين النوبي" و لم يقل كلمة واحدة، بل كانت عيناه تفيض بالدمع. عرفت ساعتها أن العجوز الجميل قد فارق الحياة.

مشينا في الجنازة نحمل النعش وأنا لا أشعر بالكون من حولي. أمضي تائه في ذاتي التي اتسعت عليَّ، و لم أعد فيها أعرف من أنا وما اسمي؟ أحقًا ذهب العجوز وتركني؟

الحزن في صدري وكأنه أفق يمتد بلا نهاية. كم أنت قاسٍ أيها الموت، وكم أنت محق عندما ننساك. الحزن في جوفي تلال موج في ذروة إعصار يقتلع كل شيء.

سقطت قطرات المطر مع دموع السائرين في الجنازة، الماضين في

طرقات ضيقة غائمة بين قبور الموتى الصامتة. تواريت عن الأعين، وجلست أنتحب خلف شاهد قبرٍ بعيد.

بكيت العم "شاهين" كما لم أبكِ أحدًا من قبل. بكيته حتى اختنقت، وارتعد جسدي من الألم. بكيت العجوز الجميل الذي جابه الحياة فلم تنتصر عليه، و لم تحنِ ظهره. العجوز الذي صمد قويًا كالهرم، و لم يسلبه الزمن عزيمته وصبره وابتسامته. بكيت وجه مصر الجميل الأصيل الأسمر، العتي الصامد. بكيت خطوط الصبر في جبهة الرجل المتحمل الطيب. بكيت العجوز الضاحك الساخر. بكيت العجوز الذي علمني كيف أقف شامخًا ولا أنحني لأحد. بكيت العجوز وبكيت فيه أبي وجدي، وكل من فقدت.

يضيق صدري فينسحق قلبي بين ضلوعي، وتتسع نفسي حتى أضيع بلا سبيلٍ أو نهاية في خضم بحر قاسٍ طاغ.

مات الزمن الجميل، و لم تتبق سوى الذكريات، مات العجوز وتركني وحدي أبكيه في ركن مستتر.

يذهب الناس وأظل كما أنا فأنام من التعب في مكاني، وأحلم بصوت "المنشاوي" يأتي من مكانٍ قصي يقول "ألم" بصوته المجود الفخيم فيرتعد جسدي أمام حروف الخالق. العجوز يطالعني بوجهه الأسمر وشعره الأشيب. يتأملني دون أن يقول شيئًا.

أفيق من غفوتي على صوت حارس المقابر يطلب مني الرحيل، فأمضي في الظلام هابطًا من مقابر الغفير، ومطلاً على أضواء القاهرة الحزينة التي اختلطت فيَّ أمامي.

مر من الأيام ما قد مر فلم أعد أعرف الصباح من المساء. كنت أنام طيلة الوقت، وعندما أصحو أقلب في الكتب، وأستمع للقرآن، وأحتسي الشاي وأدخن بنهم.

عندما يدق الهاتف أو جرس الباب كنت لا أجيب، وأظل محملقًا في الفراغ وكأنني لا أنتمي لهذا العالم من حولي. في بعض الأمسيات كان يتناهى إلى مسامعي صوت "أم كلثوم" قادمًا من المقهى الكائن بناصية شارعي، فتعاودني صورة الرجل العجوز وتدمع عيناي بلا توقف.

ذات صباح اقتحم أخي باب الشقة ومعه أمي وأختي وكانوا قلقين بشدة علي. قاموا بتنظيف الشقة وإعداد الطعام. حاولت أمي وأختي اصطحابي إلى القاهرة الجديدة، ولكني رفضت وبشدة. أمرت أمي أخي بالبقاء معي لبضعة أيام.

طلبني أبناء العم "شاهين" فذهبت إليهم بصحبة أخي. كان الصراع بينهم محتدمًا، وفي أثناء الحديث تململ أخي، وطلب مني أن نغادر، فتقسيم التركة شيء خاص بهم وليس لنا به شأن. فشعرت أنه محق وطلبت المغادرة، ولكنهم رفضوا وطلبوا أن أفصل بينهم، فتعجبت وهم أكبر مني سنًا وأنا أصغرهم، والوصية واضحة بأن ممتلكات المحل تؤول إلى "حسنين" من بعده، ولكنهم اختلفوا على المحل والشقة، وكيف سيتم التقسيم.

لم نصل لنتيجة، فهم ليسوا من أمٍّ واحدة، فمنهم أبناء زوجته الأولى الأجنبية، ومنهم أبناء زوجته الثانية المصرية التي تزوجها بعد وفاة الأولى. كانوا كلهم مختلفين التوجهات.

إعادة اختراع العالم

في أول أيام عام 2010 كنت في طريقي للبن البرازيلي، قاطعًا شارع عدلي عندما قررت أن أتعمق في ممر كوداك الخاوي؛ لأبتاع علبة سجائر من الكشك الكائن بآخر الممر. انتبهت إليه وهو يتوارى في مدخل العمارة، لمحت طرف بنطاله الكاروهات فعرفته على الفور، توقفت في مكاني و لم أمضِ قدمًا منتظرًا إياه أن يخرج، لكنه لم يظهر. قررت أن أتحرك حتى لا يتحرش بي أفراد أمن المعبد اليهودي المرابطين على الرصيف الآخر، ويحاصرونني بالأسئلة عن سبب مروري من هنا وكأن هذا المعبد منطقة حظر تجول في قلب المدينة.

ابتعت السجائر، وفكرت هل أمضي نحو شارع عبد الخالق ثروت أم أعود؟ لم أقوَ على المضي، وعاودت أدراجي نحو الممر، وطالعت مدخل

العمارة بترقّب فبدا خاويًا مظلمًا، خبرتني نفسي، لعلها تهيؤات، ولكنه أفاقني فجأة عندما هتف من أعلى الدرج بسذاجة:

- "أنا مستخبي".

فضحكت كما لم أضحك منذ حين حتى رنت ضحكتي في فضاء الدرج، أمرته أن ينزل فأتى وهو يهبط الدرج بطريقة عجيبة، كان يهبط درجة درجة وهو جالس، يهبط على مهل، فمر به شخص يهبط الدرج ونهره مستنكرًا ما يفعله، فما كان من "توفيق" إلا أن نظرة استهزاء، ثم قال له:

- "بكرة تصورك الكاميرا اللي في الإشارة وتدفع الغرامة".

لم يفهم الرجل ومر بي خارجًا وهو يهمهم. ابتسمت وأنا أطالع "توفيق" وهو مازال يهبط على مهل قبل أن يقول فجأة:

- "تلعب سيجا على المشاريب لو أنت صحيح واد لعيب؟"

- "لأ تعالَ نلعب دومنه، والمشاريب عليَّ".

جلست ألعب مع "توفيق" على مقهى صغير بممر فيلبس. يبدو منهمكًا في مطالعة قطع الدومينو المرصوصة أمامه، وبعد طول انتظار كان يلعب القطعة الخطأ، بدا لي أنه لا يجيد اللعب، أو ربما هو أبله -كما يعرف عنه الجميع-، يتسكع في الطرقات دون سبيل، فكيف إذن كنت أتوقع منه سلوكًا مفهومًا في لعبةٍ كتلك؟!

قلت له مستنكرًا:

- "أنت هتلعب ولا هتعاكسني؟!!"

لم يكترث بما قلت، وظل يلعب وهو يهز رأسه فيهتز شعره المشعث على جانبي صلعته. يلعب ويغني منتشيًا، ويضحك ويجلجل، ويصفر ويمسك أوراقه بحرص وكأنه يمتلك الكنز. مضيت ألاعبه بنفس طريقته حتى تلاشت قوانين اللعبة تمامًا. لسببٍ ما لم تعد قوانين اللعبة تصنع أي فرق يُذكر. تلعب مرتجلاً كما يقتضي الموقف دون ترتيب للأوراق. تلعب دون تفكير معتمدًا على حدثك، أو نزقك، أو حركة انفعالك. فقط تلعب مع الأشياء وترتجل اللحظة. هي ليست فوضى، بل هي ترتيب جديد مختلف. هي كسر الجمود بالجموح. فقط قامر لتربح أو لتخسر. قامر بكل ما تملك. اسحب من الأوراق لتكتشف حظك، والعب دون خطة. اللعبة ليست عما تمتلكه بل ما تغامر به ملقيًا. هي ليست موازين قوى. هي لعبة مع الحظ فقد يكون حليفك هذه المرة. "توفيق" المقامر كان يكسب في النهاية.

المدينة القاهرة

دار كل شيء دورته إلى أقصى مداها، ووقفت متأملاً كل ما مضى وكأن فلول ما مضى كانت تتساقط تحت ضربات الآتي، الذي كان يدق الأبواب ويمضي بي في طرقات المدينة، التي أيقنت أني ظللت أبحث عنها، وأبحث فيها حتى الآن دون أن أصل.

عام وبضعة أسابيع مرت منذ عودتي، وكلما طالعت المدينة بطرقاتها وسكانها، ونشرات أخبارها وصفحات جرائدها كنت أشعر بالحزن والغضب والضياع.

توقفت السيارات في زحام التقاطعات، وتصلبت الحركة في شرايين الطرقات كمريض يتدهور في طريقه نحو الموت بالسكتة القلبية. الكل يتصارع في بؤرةٍ مغلقة، والوجوه كلها تحمل ملامح الأزمة.

تطل المدينة على العام الجديد ببرلمان مزور واشتعال مصادمات نتيجة تفجيرات طائفية. يحتل المدينة عسكرٌ الأمن في كل شارع وكل ميدان.

تتوارد الأنباء عن ثورة في تونس بعد أن أشعل شاب في نفسه النيران. يشعل شاب آخر في نفسه النيران أمام مجلس الشعب ويتبعه آخرون.

صفحات الجرائد تنذر كلها بالهلاك. والغضب يتنامى في داخلي كلما تأملت الواقع المرير.

المدينة تتوحش. وتبرز قسوتها فوق السطح، وتطحنني طرقاتها دون رحمة. تلك مدينة الدهر تعاني القهر، تلك مدينة التاريخ تعاني النسيان، تلك المدينة التي أبحث عنها ما بين الحُطام، يتكسر كل شيء فيها في ضجيج محموم، يفور كل شيء فيها وكأننا نصعد نحو فُوَّهة البركان.

المدينة المتقاطعة المتقطعة تسير بين كل شيء كمحموم يصارع أشباحه. كل من يزورها يخرج منها سقيمًا ثقيلاً، متخمًا بالأوجاع.

المدينة تحيط بنفسها كمارد تمدد فأكل كل ما حوله من أخضر ويابس، المدينة تتمدد بعشوائياتها ليل نهار كالسرطان، تفور بما فيها كالطوفان، يعربد فيها كل ما فيها وكأن الحياة فيها هي على حافة الضياع.

مدينة أسقطت إنسانيتها، ووطئت كل كائناتها كغابة قاسية التضاريس والمناخ.

أينما نظرت حولي رأيت الحطام، حطام الوجوه يطل من بين أنقاض الحياة. زحام يأكل كل شيء في طريقه، طرقات تضيق وتعتصر كل من يسقط فيها، طرقات تختنق فتدمى بما في جوفها من ماءٍ آسن، وتنفث سحبًا سوداء.

هل المدينة تسمم سكانها في محاولة للخلاص؟ هل المدينة تقتلهم مع سابق العمد والإصرار؟ هل المدينة تمارس الغضب القاتل بعد طول صمت؟

25 ينـايـر

الوطن النائم لا يموت، والصمت الكاظم لا يدوم، والسوط الظالم لا يسود. الوطن البعيد لابد أن يعود، الزمن المريض لابد أن ينتفض. الحق شمس لابد أن تشرق بعد سنوات الظلام. دولة الرجل العجوز لابد أن تنتهي وتعود شابة.

الأيام التي كنت تدّعي تشابهها لم تكن سوى مركب يمضي بك نحو فُوَّهة الإعصار، والأيام التي ظننت أنها هادئة كانت تجرك نحو عمق المحيط. التواريخ التي كانت لا تمثل سوى أرقام تتبدل في وضع ميت، كانت في الحقيقة تتصارع، راكضة بك نحو الطوفان.

في الصباح الباكر من يوم 25 يناير رأيت الحشود السوداء من قوات الأمن تسد عين الشمس في كل طرقات وسط البلد، والمدينة تشبه ثكنة بوليسية ضخمة. هل سيطر عليهم الرعب إلى هذا الحد؟ الضباط أوقفوني

وأسير ومن حولي الهُتاف يهز أركان الطرقات، وكلما مضينا ازداد العدد، وخرج الهتاف من الحناجر هادرًا وغاضبًا وقويًا.

لم أعرف كيف بدأت المظاهرة، وإلى أين كانت تمضي، لا أذكر كيف اندفعت، ولكني كنت أسير في الخِضَمّ، أهتف بكل ما في حنجرتى من قوة.

الزمن الماضي باطل.. كله باطل.. من سرق عمري باطل.. ومن سرق وطني باطل.. ومن سرق حلمي باطل.. ومن أخرجني من أرضي باطل.. ومن سممني باطل.. ومن قهرني باطل.. ومن أسكتني باطل.. من حوّل المدينة لوحشٍ قاسٍ باطل.. من سجن المدينة باطل.. من أخرج أسوأ ما فيها باطلٌ.. من نافق باطل.. من زوّر باطل.. من باع باطل.. ومن قبض الثمن باطل.. من أحرق الأرض من تحت أقدامنا باطل.. من جرف الوطن من أحلامه باطل.. القهر باطل.. والزمن الذي سرقوه من أعمارنا كله باطل.. باطل.. باطل.

الطريق إلى الميدان

نقطة البداية لم أعرف أين كانت وكيف بدأت، ولكني أمضيت ثلاثة أيام أهتف دون أن يسكتني أحد. كنت أسير وسط شباب لا أعرفهم والهتاف يوحدنا، يمضون فأمضي، ويعبرون سورًا فأعبر، ويصمدون فأرابط معهم، ويصطفون فأصطف معهم وكأننا جسد واحد لا يستسلم، كنا نحمي بعضنا البعض، ونتحرك في صفوف ونرابط على المداخل، ونصمد مدافعين عن النقاط حتى ينضم إلينا أفواج أخرى من الثوار. كلما زاد عددنا كلما زاد الأمل. كنت أخاف على من حولي مع توحش القمع، ولكنهم لم يكن لديهم ما يخافون منه. كلما هتفنا باسم مصر زادت قوتنا، وكلما مضيت معهم في الطريق أشعر بأن الوطن اختار اليوم رجاله ليدافعوا عنه. انتقاهم شجعانًا لا يأبهون الموت، جندًا يمسحون أديم الأرض نحو قلب الميدان. في الخضم كنت أرى أجمل وجوه رأيتها في حياتي وأنبل من في الوطن من رجال. من أين أتى هؤلاء؟ وكيف انشقت الأرض وأخرجتهم ليدافعوا عنها؟ أنا لست وحدي. كان في الوطن آخرون.

كلما زادت قسوة الضرب كنا نقوى أكثر. كلما توحشوا علينا أخرجنا غضبنا أكثر. كلما هاجمونا كنا نتقدم أكثر. كلما قتلوا واحدًا كنا نزيد آلافًا. الأرض لنا والطرقات لنا، والميدان هو معركتنا.

الليل يأتي كمجهول يحط على المدينة. الرؤية تحجبها سحب الغاز المسيل للدموع البيضاء، ودخان الحرائق الرمادي القاتم، والطلقات تدوي في كل مكان. كنت في الضباب أحدق باحثًا عن "جهينة"، ولكني لم أكن أرى سوى خيالات تعدو صوب الخطر. من هؤلاء؟ وكيف يمتلكون تلك الشجاعة؟ كانوا مُلثَّمين كفرسان ذاهبين نحو جحيم المعركة. يتجهون نحو الطوق الأمني الأخير الباقي في قلب الميدان.

التوجه نحو ميدان التحرير كان انتخابًا من الشعب لقلب المدينة. المدينة المحتلة كان لابد من تحريرها. كل ما فقدته من أمل كان يعود وأنا أرى صيحات النصر تدوي في الميدان العظيم بعد هروب جحافل الظلام. كنت أرى مصر التي هرمت تعود فتية قوية، وصوت الحرية يعانق خفقات الأعلام في سماء وسط المدينة.

كنا نبحث عن القلب. قلب الجسد المريض يجب أن ينبض من جديد. لابد من أن يعود خفقان الحياة للقلب العليل، الموجوع من عهود. قلبي كان يخفق في صدري قويًا كما لم أعهد في حياتي من قبل. قلبي كان يضرب كأنه حصان عفي جامح، ينطلق في ربوع الأرض. كل حياتي تلخصها لحظات عظيمة.

البحر الجاف لعقود عاد ليمتلئ بموجه المتلاطم عفيًا وقويًا. البحر الجاف عاد إليه الطوفانً، وارتفع الهُتاف إلى عنان السماء. الموج الأبيض يريد أن يُمحي شطآن السواد.

الشعب يريد إسقاط الظلم.

الشعب يريد إسقاط النظام.

الشعب يريد إسقاط النظام.

طريق العودة

كنت أقف على جانب الطريق المؤدي للميدان ألوح بالعلم، عندما رأيت أول دبابة قادمة، والثوار يطلقون صيحات الانتصار.

كان جالسًا على مقدمة الدبابة وذراعه تلفها الضمادات، وعندما رأيته قفزت من مكاني وعدوت نحوه أناديه، فلما رآني ابتسم ومد يده لي وسط الزحام، ولكني لم أعطه يدي بل أعطيته العلم، فتناوله ووقف منتصبًا فوق الدبابة يلوح بالعلم عاليًا، وتوالى الهُتاف من حناجر الشعب يهز الأركان.

لم أسأله أين غاب؟ وأين كان؟ وما حدث له؟ قال لي:

- "مولاااااااانا".

- "إن لم تكن لي والزمان شرم برم!"

- "فلا خير فيك والزمان ترلللي!"

ابتسمنا وتعانقنا طويلاً، ثم اعتصمنا سويًا، في الميدان.

الليل يهبط والنهار يعود، والدماء تتجدد. النهر عاد لجريانه، والميدان صار رمز الحرية الصامد. نقطة على الخريطة هي رمز الخريطة المعقدة.

حكى لي "جهينة" سبب إصابته حيث كان في الفوج الأول الذي بدأ المظاهرات مع انطلاق شرارتها الأولى، ولكن تم ضربه بقسوة من قبل قوات الأمن أمام دار القضاء العالي، وأصيبت ذراعه، وفي النهاية اقتادوه للسجن في مكان ما غير معلوم مع المئات من النشطاء، ولكن في اليوم الثالث تم إطلاق سراحه وعاد. لم يحكِ لي: أين غاب في الأشهر السابقة، وكعادتي لم أسأله.

نتشارك أنا و"جهينة" الشاي والسجائر، ونجوب خيام الاعتصام وجلسات النقاش. "بيبرس" كان متواجدًا بجوار إذاعة الميدان، وكان هو المنسق لفقراتها، وكان أحيانًا ينضم إلينا لنتشارك الطعام، في الميدان كنت أقابل كل أصدقائي القدامى والجدد، قابلت الشابين "أحمد" و"مصطفى"، كما تعرفت على شخصيات جديدة. شباب ثوري تجري في عروقه دماء حرة وإرادة صلبة. مصر بحر مليء بالقوة وبالمقدرة. مصر تنجب ولا تتوقف أفواجًا وراء أفواج. مصر تولد دائمًا من رحم المعاناة. لتقف كشابة لا تشيخ. كنت أقف وسطهم، وأشعر أن المدينة لا تموت بل هي مليئة بالحياة. عندما كان "جهينة" يتحدث وسط الجموع، كان يبدو حديثه مختلفًا عما كان عليه من قبل. كانت كلماته لها وقع صدى لدى

قرأته من قبل. الآن فقط عرفت ماذا كان يعني بما قاله آخر مرة عن صاحب المدونة الشهيرة.

ذات صباح حاول "شهدي التهامي" التحدث في ميكرفون الإذاعة، فما كان من "بيبرس" سوى أن قطع عنه الصوت.

عندما يهبط الليل ويسري حظر التجوال، كنت أخرج من الميدان أنا و"جهينة"، لنجوب الطرقات وسط البلد الخاوية، ونطالع شعارات الثورة التي كُتبت على كل الجدران في كل شارع، وعلى كل ناصية وواجهة محل مغلق. المدينة كانت فارغة -كما كنت من قبل أراها في أحلامي-. ميدان طلعت حرب كان شبه خال، وعلى أرصفته حطام المتاريس والحجارة، وأضواؤه خافتة في الوقت الذي كان فيه ميدان التحرير ممتلئًا، ويضج بالهتاف والحياة.

كان أكثر ما يقلقنا ويجهدنا هو الخوف على الثورة التي تناضل من أجل الاستمرار. كنا نخشى من هجوم الوطاويط الذي كنا نوقن بأنه قادم لا محالة. كنا نرابط في ساعات الليل المتأخرة على مداخل الميدان منتظرين المجهول.

مع الوقت كنت أشعر بأن تغييرًا ما حدث لـ"جهينة". شيء ما قد تغيَّر فيه كنت ألمسه مع الوقت. لم يعد "جهينة" الشخص الهادئ الذي كنت أعرفه، فقد صار أكثر قلقًا، ولم يعد الشخص المسترخي. تشعر بثوريته، وتتلمس حماسته كلما انطلق يهتف. كان ينظر إليّ كلما خضنا في حديث سياسي في الميدان كأنه يستحثني أن أنطق. كان وكأنه يدفعني ولأول مرة

إلى خضم المعركة. عيناه الحالمة صارت أكثر حزمًا وصلابة. كنت أفترش الرصيف، وأنام عندما ينال مني الإجهاد، بينما يظل هو ساهرًا.

كنت أسرح طويلاً فيما هو قادم، بينما كنت أشعر به مهمومًا بما يحدث الآن، كنا نذهب أحيانًا معًا إلى مقر دار نشر قريبة تحولت إلى استراحة للثوار، ومقهى للمشروبات الساخنة. وذات ليلة وبينما كنا جالسين على الدرج رن هاتفي لأول مرة. قد عادت الاتصالات المقطوعة منذ أيام عن الميدان. على الطرف الآخر كان صوت أمي جميلاً بكل ما فيه من حنان، متلهفًا عليَّ، وبعد أن طمأنتها دعت لي وهي تبكي. لم تمضِ دقائق حتى رن الهاتف مجددًا، وكان هذه المرة "حاتم" صوته يأتي من بعيد فرحًا وسعيدًا. فتحت صوت الهاتف؛ لنتشارك نحن الثلاثة في المحادثة، وظللنا نتبادل النكات والقفشات. أخبرنا "حاتم" بأنه عائد على أول طائرة، وأننا سنلتقي في التحرير.

عندما عاد "حاتم" التقينا في الميدان، ووقفنا طيلة يومين في انتظار التنحِّي حتى تم، وانطلقنا نحتفل ونرقص، ونغني وسط ما يقارب من المليون احتشدوا في الميدان. كان يومًا مشهودًا ترفرف فيه أعلام مصر في كل جزءٍ فيها. كنا نقف على رصيف جامعة الدول العربية على مدخل ميدان التحرير من ناحية كوبري قصر النيل، نشاهد بأعيننا آلافًا من البشر تدخل الميدان، وآلافًا تخرج فيما يشبه تيارًا عظيمًا وحاشدًا ومتجددًا ترفرف فوق رؤوسنا الأعلام الحرة الخفاقة في السماء لتعلن عن الحرية.

"حاتم" و"جهينة" الصديقان اللذان عاشرتهما أغلب أوقات حياتي كانا سعيدين سعادة لا توصف لم أرها فيهما من قبل، حتى أن "جهينة"

رقص مع "حاتم" على أنغام أناشيد النصر، وصمما أن يحملاني على كتفيهما.

"حاتم" كان كطفل صغير عاد لأمه، فظل يغني ويقفز طيلة الليل. هواء المدينة كان جميلاً ورطبًا ونحن نقف على كوبري قصر النيل. النهر العظيم بدا براقًا ساحرًا والوطن كان كعاشق يبادلنا الحب بجنون.

رحل "حاتم" مجددًا إلى كندا؛ ليصفي مشروعه الذي كان قد بدأه هناك على أن يعود بعد عدة أسابيع إلى الوطن. "حاتم" قرر بأنه سيعود، فبعد الثورة أصبح لديه أمل.

في الليل الطويل كنت أنا و"جهينة" نتطلع أحيانًا إلى كاميرات العالم، التي اصطفّت بأعلى عمارة الميدان تراقب. الموقع الذي كنا نتسلق إليه من قبل؛ لنمضي الليالي الطويلة نطالع الميدان. نفس البقعة التي صار العالم الآن كله يطل علينا من خلالها بعد أن رجت أحداثها الدنيا.

السير عكس الاتجاه

قررت أن أمضي في رحلة؛ لأكتشف أماكن في وسط البلد، لم يكن مسموحًا بالولوج إليها. لم يكن فضولاً بقدر ما كان نشوة الحرية تسيطر عليَّ. قرر "جهينة" مرافقتي في تلك الرحلة فذهبنا إلى المعبد اليهودي "أبواب السماء" بشارع عدلي، وجلسنا ندخن بشرفته الخارجية، كان مبنى المعبد يحتل نصيبًا من وسط البلد، ولم أكن أستطيع الاقتراب منه قبل ذلك. كان شارع عدلي شبه خاوٍ، وكنت أستمتع بالعربدة على درجه الأمامي ومحيطه الذي كان من غير المسموح المرور من أمامه من قبل.

الزيارة الثانية كانت لقصر شامبليون. بدا القصر مهيبًا وهو غارق في الظلام. درنا حول السور العالى حتى وصلنا إلى نقطة في السور تعلوها نافذة مكسورة، فتسلقت السور حتى وصلت إلى النافذة، ومددت يدي لـ"جهينة"، ولكنه وقف بالأسفل يتأملني وقد بدا على ملامح وجهه في

الضوء الخافت حيرة وحزن. تشبثت بضلفة النافذة بقوة بإحدى يدي، وملت بجسدي لأسفل، وقربت يدي الممدودة منه، ولكنه ظل ثابتًا و لم يتحرك.

قلت له راجيًا:

- "مش هدخل من غيرك يا جهينة".

صمت و لم يرد، ونظر تحت قدميه فتعجبت، ولأول مرة أشعر بأني لا أريد أن أمضي وحدي، ولا أريد أن أدلف إلى هذا المكان دون "جهينة"، دون صديقي الغامض. قلت له متسائلاً:

- "مالك؟"

نظر إليَّ نظرة حائرة، وقال:

- "يا صاحبي أنا مش جهينة.."

ما الذي حدث؟ لم أجد شيئًا أقوله، وأصابتني الحيرة من ردة فعله، ولكني بقيت مادًا يدي له، فتابع قائلاً:

- "بتدوّر على إيه جوا الخرابة دي؟"

- "دا قصر مش خرابة.. صدقني!"

- "أنا مش جهينة".

- "مش مهم اسمك.. أنت صاحبي".

مد يده إليَّ فأمسكت رسغه فتشبث بي، وسحبته لأعلى بكل قوة. مضينا داخل طرقات القصر على ضوء خافت، يتسرب من البنايات

السكنية المجاورة. القصر كان مهيب الطراز، وديكوراته الحجرية بديعة الطراز ولكنها مهجورة وتكسوها الأتربة، والأرضيات مغطاة بالعلب الفارغة وقطع الخشب. القصر البديع مهمل وغارق في الفوضى والظلام. ظل "جهينة" يتبعني من غرفة إلى أخرى، وعندما انتهيت من اكتشاف القصر وجدت نفسي أقول له:

- "هتحكيلي القصة؟"

أومأ برأسه في الظلام موافقًا، ثم ما لبث أن قال:

- "تعالَ نروح عمارة الميدان".

انتصف الليل وأنا معه نتحسس الدرج، صاعدين لسطح عمارة الميدان القديمة -كما كنا دومًا نفعل-.

كان مستلقيًا على ظهره فوق حافة السور، بينما كنت أنا جالسًا مدليًا قدمي، أنظر للميدان بعد أن فرغ من المعتصمين الذين رحلوا عقب احتفالات عارمة بتنحي الرئيس المخلوع.

بينما كان يحكي قصته لأول مرة كان يبحث في الكلمات عن خطوط وعناوين. تابع سرد حكايته وأخبرني كم هو صعب أن يروي قصته في الحياة هكذا ودون رتوش، والأصعب أنه كان يرويها للمرة الأولى.

بدأ قصته بأنه في يوم خمسة وعشرين قرر أن يخرج، ليهتف ضد الرجل الذي كان يكرهه. كان يريد رحيل النظام، ولكنه كان يريد أكثر رحيل رجلٍ ما آخر.

صمت طويلاً، ثم تابع سرد قصته بحادث الطريق الذي تعرض له

عندما مضى بسيارته في الاتجاه المعاكس. بعد الحادثة قطع اتصالاته بأسرته وأصدقائه وزملائه في العمل. بدل مسكنه وهاتفه، والأماكن التي يتردد عليها، وقرر أن يقضي وقته كله في محيط وسط البلد، والسبب في هذا أن وسط المدينة مليء بالغرباء وهو كان قد قرر أن يصير غريبًا.

أيًا كان الطريق الذي يرتاده، أو المقهى الذي يجلس فيه، أو المكان الذي ارتكن إليه، كان يحب أن يشعر بأنه غريب، مجرد عابر سبيل يمر، ربما كان أيضًا بالنسبة لنفسه مجرد زائر مر بذاته مرور الكرام.

ربما كان في رحلاته اليومية يترك نفسه وراءه، كان يقلص نفسه لمجرد عين تتابع ما يدور ، فصار العالم خارجه وأمامه. وفر هذا له سلامًا داخليًا فريدًا. أينما مضى كانت تتشابه أمامه الأشياء والمقاهي والأشخاص. يفني الساعات واللحظات دون أي ضجيج.

كانت الحادثة بالنسبة له بداية جديدة في عالمٍ بديل، لم يعد ثانية لعهده القديم، ولا لمنزله، ولا لأصدقائه، وربما أيضًا لم تخطُ قدمه في اتجاه ضاحية المعادي منذ ذلك الحين.

مع الوقت طاب له العيش، وانخرط في صخب الحياة، متابعًا من مقعده دون أن ينقاد إلى أي اتجاه. ملأ فراغ حياته بالكتب والقراءة والكتابة. حياته لم تعد رحلة في الذات، بل هي رحلة خارجها.

كان هناك شيئان يمكن أن يعيداه لذاته، ولكنه كان منجرفًا تجاههما، ودون أن أسأل قال "أنت والحشيش". ثم تابع "اسمي الحقيقي أحمد" روى لي كيف اختار اسم "جهينة" لنفسه؛ لأن أسلافه ينحدرون

من قبيلة أصولها تحمل نفس الاسم. تعجب مني كثيرًا حيث إنه كان قد أخرج بطاقته مرتين أمامي، ولم أنتبه لاسمه الحقيقي، ولم أختلس حتى النظر. ثم أطلق ضحكة طويلة.

بعد فترة صمت تابع سرد حكايته بأنه ظل دومًا يحاول أن يبتعد عن كل ما قد يعيده.

صدمت سيارته تلك الشاحنة القادمة بسرعة في الاتجاه المقابل، فانقلبت سيارته عدة مرات وتحطمت تمامًا، ولكنه نجا بمعجزةٍ إلهية، لم يذهب حتى في إغماءة وكأنها معجزة قدرية مرسومة بدقة، جاهد حتى يخرج من نافذة السيارة المقلوبة على سقفها، ووقف يطالع آثار الحادث. هرع إليه الذين شاهدوا الحادث، وتعجبوا من أنه سليم إلا من خدوش وجرح غائر بالجبهة يسيل منه الدم. لم يكن به كسور، ولم تخر قواه من واقع الصدمة، بل كان واقفًا صامتًا، يطالع من حوله، واعيًا لما يدور حوله.

خرج من المستشفى بعد يوم واحد، فحصوا عظامه وجمجمته، وتأكدوا من سلامته، تسلل من المَمر الخلفي قبل أن يأتي أفراد أسرته، ظنوا أنه مفقود فبحثوا عنه في كل مكان، وخشوا أن تكون الحادثة قد أفقدته الذاكرة. هاتفهم فيما بعد، وأخبرهم بأنه لن يعود فظلوا يفتشون عنه ولكن دون جدوى. لم يفهم أحد من أهله أو أصدقائه ما حدث. بعد عدة أسابيع أرسل ورقة الطلاق لزوجته. فقد أدرك أن حبه لها تحول إلى كراهية، وأنه لم يعد مُتيَّمًا بها كما كان يظن. كانت نموذجًا للتسلط والسطوة، وظل طيلة سنتين يتّبعها وينفذ ما تطلبه منه، حتى رغبته في طفل

وأدتها دون علمه. طموحها الشخصي في عملها ودراساتها التي كانت تود أن تكملها في الخارج كانتا تسيطران عليها طيلة الوقت. كانت ترى فيه مجرد زوج مهذب من أسرة ثرية وذات نفوذ كبير، تستطيع أن تحركه كيفما تشاء، بخبث شديد ومكرٍ ليس له نظير. بينما هو كان يحاول أن يقنع نفسه طيلة الوقت بأنها حبيبته وكفى.

كم من السهل أن تخدع نفسك عندما تريد. تختلق الأعذار في عالمك لتبقيه كما هو، منتظمًا ومرتبًا ومتّسقًا. كم من السهل أن تخفي عن نفسك ما قد يضايقك إن فكرت فيه. كم من السهل أن تعيش على هامش نفسك؛ لأنك تخشى أن تكتشفها فتتغير حياتك. وفي يوم من الأيام تصحو من النوم لتجد نفسك غريبًا في بدنك، ووحيدًا في روحك. تحركك الحياة التي انصعت لها. قد يمتلكك المال الذي ظننت أنك تملكه. قد يسرقك الوقت الذي تدخره. قد تسجنك المساحات التي تفتحها.

لم تكن لديه ذرة رغبة في العودة لمكتبه بمقر مجموعة الشركات التي تمتلكها الأسرة، ولا للفيلا التي تقيم بها، ولا لأبيه الرجل ذي النفوذ السياسي والمالي، الأب الذي رسم له مسار كل شيء في حياته. حدد له خطًّا مستقيمًا ظل يتبعه دون أن يخرج عنه، مدرسته، أصدقاءه، كلية إدارة الأعمال بسويسرا، الفتاة التي يجب أن يتزوجها. ظن في البداية أنه يحبها فقد كانت ذكية وقوية الشخصية، كانت نقيضه الذي انجذب إليه بقوة وبسرعة. قبل أن يكتشف أن هذا كله وهم كبير وكذبة أراد أن يصدقها.

كان يذهب مع أبيه إلى قريتهم في أيام الانتخابات؛ فقط لتوزيع المال

والذبائح على الناخبين حتى يحافظ أبوه على مقعده في البرلمان، وعلى موقعه في الحزب الفاسد. كان يشاهد بعينيه الفقر المستشري في قريته وفي أقاربه ويصمت؛ لأن أباه أقنعه بأنه يعمل من أجلهم، ولكن مع مرور السنوات تأكد من أن هذا كله كذب، وأن لا شيء يتغير، وما هي إلا شعارات كان يُروِّجها أبوه.

ظل طيلة طفولته يعتقد أن أباه قديس ورجل خير. رجل يراعي الله في كل ما يفعله ويحج كل سنة، بار بالفقراء وبالحي، وبالعمال وبالأقارب. عندما تخرج وبدأ الانخراط في العمل مع أبيه اكتشف أن الأب البار ليس سوى رجل مصالح. كان لدى أبيه قدرات فذة في إقناعك بالشيء ونقيضه في نفس الجلسة. يصوغ لك كلمات الحق والنزاهة والدين؛ ليقنعك بما يريده. رجل متوغل في الحزب الحاكم وفي عالم الأعمال. يوحي للناس طيلة الوقت بأنه يعمل من أجل مصلحتهم، ولكنه في الغرف المغلقة يبيع أي شيء وكل شيء، ويعقد صفقة مع الشيطان ذاته. كل يوم كان يطالع حقيقة أبيه، كان يستفحل داخله إحساس بزيف الحياة.

يجلس أبوه مع رجال القرية والمحليات ورؤوس العائلات، ويسوق حديثًا ناعمًا عن التطوير، وتعيين فلان، ومحطة الماء، ورصف طريق المدينة، ووحدة غسيل الكلى التي سيتبرع بها للمستشفى العام. يكسبهم جميعًا بما يسوق لهم من كلام معسول. كلام يخدرهم ويذهب عقولهم. مع الوقت كان يتابع أوراق الشّركة، ولقاءات أبيه وشبكة العلاقة، وفهم أن المنصب الذي حصل عليه أبوه كان يتيح له صلاحيات واسعة ونفوذًا أخطبوطيًا، يُسهِّل عليهم إصدار تراخيص، وتسهيلات جمركية، والحصول على

ملايين الأمتار من أراضي الدولة بأبخس الأسعار. كل هذا يتم في الخفاء، وتبقى صورة رجل الخير هي الظاهرة للعيان.

كره شهادته التي حصل عليها بتفوق. العلم الذي تفوق فيه لم يكن يعني لأبيه سوى مهارات جديدة يضيفها الأب لشبكة الفساد. كان كل يوم يدعي الجهل، وحاول محو العلم الذي حصل عليه من ذاكرته.

كان يرى أباه يجلس على مائدة الطعام، ويربت على كتف إخوته الصغار، مدعيًا النبل والمثالية، كان يزداد اغترابًا عن بيته. كان يود أن يصرخ في أمه وإخوته قائلاً: "لا تصدقوا هذا الشيطان"، لكنه لم يستطع، وأبقى على أوجاعه داخله.

كانت زوجته ترغب في المزيد من المال والنفوذ، وتدفعه نحو هذا دفعًا، وعندما صارحها ذات يوم بما يكتمه في صدره لم تبدِ أي اهتمام، وببساطة أخبرته أن أباه رجل ذكي وشاطر طالما يستفيد. منذ هذا الحين، انفتحت فجوة كبيرة بينه وبينها لم يستطع تجاوزها. فقد كل مشاعره الجميلة نحوها، وصار يشعر بأنهما مبتعدان كشاطئ المحيط.

كل يوم يمر كان يكره الاتجاه الذي يسلكه، ويود لو امتلك الشجاعة ليقفز نحو الاتجاه المعاكس.

الضفة الأخرى

عربة الوطن المحملة بالأحمال الثقال، والمهلهلة الهيكل تمضي فوق جسرٍ متهالك ضيق. تمضي ببطء فوق الجسر المتجه نحو الضفة الأخرى. تتعالى من العربة صرخات فزعة وهي تترنّح بقوة فوق الممر الضيق المتهاوي. العربة بها شجعان يدفعونها، وبسطاء يبغون شاطئ النجاة. العربة بها شياطين تبث الخوف، وملائكة تُثَبِّت القلوب. العربة تمضي فوق الجسر المخيف فهل ستصل إلى ضفة النجاة؟

أقطع مسافات من الطرق، وعندما أصل إلى النيل أطل عليه فأشعر به يغمرني بفيضه. عندما أغمض عينيّ؛ لأنعم بهواء الليل البارد كنت أرى العم "شاهين" يضحك ضحكته المعهودة وهو يرفو قبل أن يقول "أنتم الحلو اللي جاي" فأبتسم له ويبتسم لي. كنت أرى جدي جالسًا عن يمينه يبتسم، وأبي يمسح على رأسي.

كل الأحداث التي مرت بي، والأشخاص الذين عايشتهم.. وكل الأوجاع التي تملكتني والهواجس التي عرفتها.. كل الليالي التي طالعتها والأرصفة التي صادقتها.. كل الأحاديث التي صغتها.. وكل النكات التي قلتها.. كل هذا كان يقول شيئًا واحدًا وحقيقة واحدة.. "أنا مصري".

القاهرة 2011

المؤلف في سـطور

ياسر أحمد

- كاتب ومدون وشاعر، قام بنشر العديد من أعماله على الإنترنت باللغتين العربية والإنجليزية.
- من مواليد الدقهلية عام 1980.
- متخصص في تكنولوجيا المعلومات والسوشيال ميديا.
- يكتب بصفة دورية في مجال التكنولوجيا في العديد من المواقع والمنشورات.
- تنقل بين عدة دول ويقيم الآن فى القاهرة.
- يهوى التصوير الفوتوغرافي والضوء والظلال.
- عندما تواتيه الأحلام.. يكتب، يمكنك البحث عنه على:

www.yasserahmad.com

عكس الاتجاه

نحن أجيال لم نشهد حربًا أو فقرًا مزريًا أو ظروفًا طاحنة، فلم نتعلم حكمة الصبر ولا صعوبة الحياة. أجيال تبحث عن الترف دون ثمن. تبحث عن الأسهل والأسرع، والأقرب إلى التناول. أجيال صنعتها مكاتب التنسيق، وسطوة الأهل ورغباتهم، والإعلام الضيق الأفق أحادي التوجه، من الدولة للشعب. نحن ضحية الفراغ السياسي والثقافي، وتحكمات مجتمع صنع من التوافه ضروريات، ومن الضروريات شكليات للديكور. نحن أجيال متطلبة، ولم نعد نعرف ماذا نريد. فقط نريد كل شيء، وعندما لا نحصل عليه نهاجم ونغضب، ونثور ونتمرد. نحن ضحية أسلوب معيشة غير سويّ، ومقدرات لم تكن حقيقية بل كانت في غالبيتها شكلية. أجيال خرجت من رحم مجتمع غير منطقي، وغير واقعي في أحكامه، فكيف ستحاول "فريدة" أن تتحاور لتصلح الأشياء؟ ستختار أن تقطع الحديث وأن تبتر الموقف الذي لم تتوقعه وسترحل. هي هكذا الأشياء لم يعد يحكمها أيُّ منطق. هي هكذا "فريدة"، قررت أن تجول في عالمها كما تريد هي، وليس كما يكون عالمها. لا تريد أن تتحمَّل عواقب الأمور التي كانت تزداد سوءًا.

الغلاف: بسمة صلاح

دار العين للنشر
Elain Publishing House
6 224007 220887